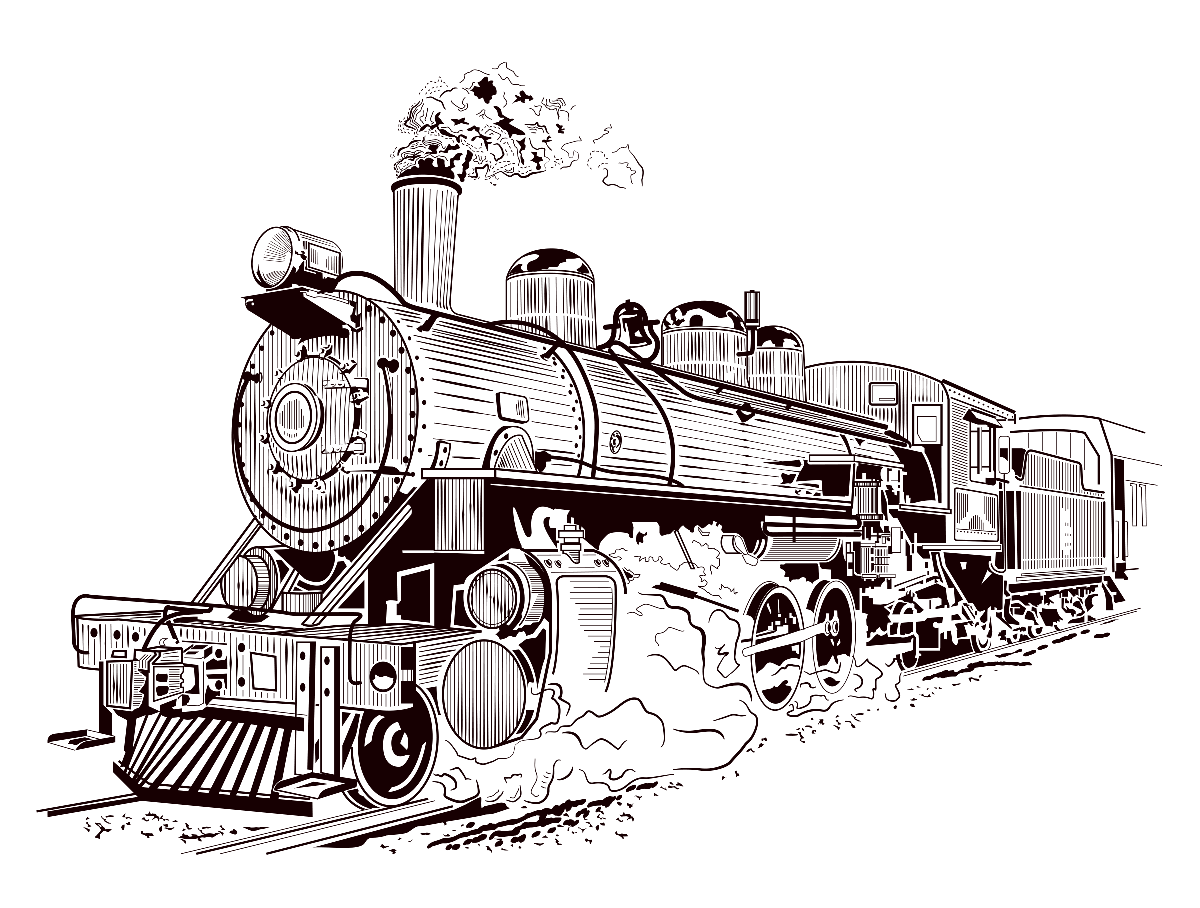
لغز محطة تشارينج كروس

جوزيف سميث فليتشر



ترجمة عبد الفتاح عبد الله

لغز محطة تشارينج كروس

تأليف
جوزيف سميث فليتشر

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
الزهراء سامي



لغز محطة تشارينج كروس

جوزيف سميث فليتشر

The Charing Cross Mystery

J. S. Fletcher

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٦٢٢ ٤

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٣.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

الفصل الأول

القطار الأخير نحو الشرق

في ذلك المساء، تناول هيثرويك طعام العشاء مع أصدقائه الذين يقطنون في كادوجان جاردنز وظلَّ يتحدث مع مضيفه حتى ساعة متأخرة، حتى إنَّ منتصف الليل حلَّ عليه قبل أن يغادر ويتَّجه إلى شقته التي يعيش فيها وحيدًا بحي تيمبل؛ وكان في اللحظة الأخيرة تمامًا أن تمكَّن من اللحاق بآخر قطار متجه نحو الشرق في ميدان سلون. كان القطار يكاد يخلو من الركَّاب؛ ولم يكن في العربة التي ركب فيها — وهي عربة تدخين تابعة للدرجة الأولى — أحدٌ سواه، ولم يدخلها أحد حين وصل القطار إلى محطة فيكتوريا. لكنَّ رجلين ركِبا القطار في محطة «سانت جايمس بارك» وجلسا في مواجهة هيثرويك.

كان هيثرويك محاميًا يافعًا يعمل في القضايا الجنائية، ويتمتَّع بملَكة اليقظة المتأصِّلة فيه؛ فكان من الطبيعي بالنسبة إليه أن يراقب أيَّ شيء يراه ويفكِّر فيه. وبسبب هذا، وربما لأنه لم يكن لديه حينها شيء آخر يشغل تفكيره، جلس هيثرويك يراقب الوافدَين الجديدَين؛ إذ كان يجد استمتاعًا وتسليةً ونفعًا ليس بالقليل في قيامه بهذا الأمر، وفي محاولة تحديدِ ما إن كان الشخص الذي يراقبه يتصف بكذا أو كذا أو بشيء آخر.

وعن الرجلين اللذين خضعا بذلك لفحص هيثرويك، فقد كان أكبرهما سنًّا، ضخمًا قوي البنية متورِّد البشرة، ويبدو أنه يبلغ من العمر ستينَ عامًا أو خمسة وستينَ. وبسبب شعره الفضي الممشط جيدًا وشاربه الرمادي المشذَّب بأناقة وعينيه الزرقاوين المتوقدتين ومظهره العام الذي يدلُّ على النشاط والحيوية، ظنَّ هيثرويك أنَّ الرجل على صلةٍ بالجيش بطريقة أو بأخرى، أو كان على صلة به؛ وزادت حدة هذا الانطباع لدى هيثرويك بفعل انتصاب الرجل في جِلسته ومنكبيه العريضين، ثم إنَّ شيئًا قد أوحى بمعرفته الطويلة والوثيقة بطرائق التدريب العسكري وساحة الاصطفاف. اعتقد هيثرويك أنَّ الرجل ربما يكون ضابطَ صف متقاعدًا أو رقيبًا أوَّلَ أو شيئًا من هذا القبيل، ومرةً أخرى تعزَّزت هذه

الفكرة لدى هيثرويك بحقيقة أنَّ الرجل كان يحمل في يده عصًا جميلة للمشي يتخذ رأسها المصنوع إما من الذهب أو الفضة المذهبة، شكلَ تاجٍ ملكي. أوحت تفصيلة ملابسه أيضًا بطابع عسكري؛ إذ كان الرجل أنيقَ الثياب بدءًا من قبعته الحريرية الجديدة اللامعة التي ارتداها بشكل أنيق على الجانب الأيمن من رأسه، وحتى حذائه الملمَّع بعناية. قرَّر هيثرويك أنَّ الرجل مرحٌ يتمتع بلياقة جيدة وبحس الدعابة، ومن الواضح أنه راضٍ عن نفسه إلى حدٍّ كبير ويستمتع بالحياة كثيرًا، والأرجح أنه بلغ مرحلةً متقدِّمة في السن وفقًا لمظهره الإجمالي الخارجي.

أما الرجل الآخر فكان يندرج تحت فئة أخرى. تجلى الاختلاف في الثياب التي كانت شبه رثَّة إن لم تكن رثَّة بالفعل، كما أنها كانت بالية ويرتديها الرجل بصورة سيئة؛ من الجلي أنه كان مهمِلًا يستهين بفرشاة الملابس ولا يبالي بالحقيقة الصارخة المتمثلة في اهتراء ثيابه وقذارتها. كان الرجل نحيلَ الجسد هزيل البنية ولا يبلغ في حجم جسده نصف حجم رفيقه الضخم الممتلئ؛ بدا الإرهاق في وجهه الشاحب وكانت لحيته رقيقة وغير مهذَّبة فأوحت هيئته العامة بشيء من رقة الحال. وبالرغم من ذلك، فقد رأى هيثرويك أنَّ الرجل يتخطَّى في قدراته العقلية الحد الطبيعي؛ إذ كان يتسم بعينينِ كبيرتينِ ذكيتينِ وأنف ممشوق وذقن بارز مربَّع الشكل. أما يده العارية من القفازات فكانت دقيقة ومتناسبة مع جسده؛ إذ الأصابع طويلة ورفيعة ومستدقة. لاحظ هيثرويك شيئينِ في أمر تلك الأصابع؛ أولهما أنها كانت مضطربة، وثانيهما أنها كانت كثيرة البقع، وكأن الرجل كان يقوم مؤخَّرًا بخلط الأصباغ أو استخدام المواد الكيميائية. وفجأة لاحظ هيثرويك أنَّ يد الرجل الضخم وأصابعه كانت ملطَّخة هي أيضًا بصورة مشابهة؛ فكان بها بقع بألوان الأزرق والأحمر والأصفر.

كان الرجلان يتحدَّثان حين دلفا إلى عربة القطار، واستمرَّا في حديثهما بعد أن استقرَّا في مجلسهما. ولم يكن بوسع هيثرويك أن يتجنب سماع حديثهما.

كان الرجل الضخم يقول وهو يجلس إلى أحد مقاعد الزاوية: «تلك أغرب تجرِبة مررت بها في حياتي! لقد عرفتها منذ اللحظة التي وقعت عيني فيها على تلك الصورة! بعد كل تلك السنينَ؛ كم يبلغ عددها الآن؟ عشر، أجل، أعتقد أنها عشر سنوات. أجل، أجل! كنت أعرفها بما يكفي. حين نصل إلى فندقي، سأريك الصورة: سأخرجها وأضعها جانبًا، وستتعرَّف عليها بنفس السرعة التي تعرفت عليها بها، ويمكنك أن تراهن على ذلك. لا شك في هذا!»

قال الرجل كلامه هذا بلكنة شمالية واضحة، وهو ما رآه هيثرويك متماشيًا تمامًا مع الهيئة القوية للمتحدث. أما الرجل الآخر فقد أجاب بنبرة دلَّت على أنه من مواليد لندن.

قال برفق: «أعتقد أنني سأتمكَّن من التعرُّف عليها. لديَّ ذكرى واضحة للغاية عن المرأة، رغم أنني لم ألتقِ بها إلا مرة أو اثنتينِ بالطبع.»

صرَّح الآخر قائلًا: «حسنًا، إنها امرأة حسنة المظهر؛ بل هي جميلة! ذلك الجمال الذي لا يُنسى سريعًا. وفي هذه الأيام، يبدو أنَّ مرور السنوات لا يُحدِث اختلافًا كبيرًا في عمر المرأة. لقد عرفتها على أية حال! وقلت في نفسي فور أن فتحتُ تلك الورقة «هذه أنتِ يا سيدتي الجميلة». لكنني احتفظت بذلك لنفسي! لم أتفوَّه ولو بكلمة واحدة لحفيدتي رغم أنها كانت تجلس قبالتي حين اكتشفت الأمر. كلا، لم أخبِر أحدًا حتى الليلة! فليس ذلك بالأمر الذي يثرثر المرء عنه!»

قال الرجل الأصغر: «أنت محقٌّ بالطبع. لا شك بأنك تذكَّرت أنني أذكرها على الأرجح وأذكر الظروف المحيطة. الأمر غريب، بل في غاية الغرابة! وأعتقد أنَّ الخطوة التالية هي: ماذا ستفعل حيال ذلك الأمر؟»

أجابه الرجل الضخم: «أجل، حسنًا، لقد مرَّت عشر سنوات بالطبع. لكني أخبرك أنَّ هذا الأمر لا يهم، وإن مر عشرون عامًا. لكن ...»

حينذاك خفض الرجل من صوته لدرجة الهمس، ومال على رفيقه؛ فلم يسمع هيثرويك أكثر من ذلك. بالرغم من هذا بدا له أن الرجل الأصغر لم يكن يستمع باهتمام في واقع الأمر، وإن بدا عليه أنه يفعل. ذلك أنَّ أصابعه الطويلة الملطَّخة صارت أكثر اضطرابًا من ذي قبل، ثم إنه أخرج ساعته ونظر فيها مرتينِ قبل أن يصل القطار إلى ويستمنستر، ومرةً بعد ذلك، لاحظ هيثرويك يد الرجل المضطربة وهي ترتعش في طريقها إلى جيب المعطف. أدرك هيثرويك أنَّ الرجل كان ينظر إلى رفيقه الثرثار بنظرات فضولية مختلسة، وكأنه كان في انتظار شيء مجهول لكنه متوقَّع، وهو يتساءل عن موعد حدوثه: ثمَّة يقظة خفية أوحى بها مظهر الرجل، ورغم أنه كان يومئ برأسه بين الحين والآخر اتفاقًا مع ما كان يُهمس به إليه، فقد صار هيثرويك مقتنعًا بأنه إما كان شارد الذهن أو لم يكن مهتمًّا بالأمر. ووفقًا لما بدا من مؤشرات على عينيه وأصابعه، فإنَّ الرجل كان شاردًا بذهنه في مكان آخر.

توقَّف القطار في محطة ويستمنستر لنصف دقيقة ثم واصل التحرك مجددًا، وكان الرجل الضخم لا يزال مائلًا على رفيقه يُكمِل حديثه الهامس، ويضحك بين الحين والآخر

وكأنه يقصُّ قصة مثيرة أو يطرح رؤية ذكية. لكن فجأة ومن دون سابق إنذار، توقَّف الرجل توقُّفًا حادًّا مفاجئًا في كلامه المرسَل. راح الرجل يحدِّق بشدة فيما حوله، ولمح هيثرويك لمعانَ عين الرجل وهي تمسح العربة، ولم ينسَ أبدًا نظرة الرهبة والاندهاش التي رآها فيها؛ وكأن الرجل واجه فجأة وبسرعة خاطفة شيئًا مخيفًا ومريعًا. ارتفعت يده اليُسرى وقبض بها على صدره وحلقه، بينما تركت اليد الأخرى عصاه ذات الرأس الذهبي واندفعت من مكانها وكأنه يحاول أن يدرأ عنه بها ضربة. هوت العصا بجانبه كالرصاصة؛ وارتخت الذراع الأخرى وسقطت مترنحة واهنة، وقبل أن يتمكَّن هيثرويك من الحركة، غاص الرجل الضخم في مكانه في الزاوية وكانت عيناه مغلقتين.

هبَّ هيثرويك من مقعده، وهو يصيح بالرجل الآخر.

صاح هيثرويك: «صديقك! انظر!»

لكنَّ الرجل الآخر كان ينظر بالفعل. كان هو الآخر قد هبَّ واقفًا على قدميه وكان يميل على صديقه مادًّا يده نحو رسغ الرجل الضخم. غمغم بعد ذلك بشيء لم يتمكَّن هيثرويك من سماعه.

سأله هيثرويك بفارغ الصبر: «ماذا تقول؟ يا إلهي! ينبغي أن نفعل شيئًا! الرجل، ما هذا؟ أهي نوبة؟»

أجابه الآخر: «نوبة! أجل، هذا صحيح، إنها نوبة! لقد أصابته نوبة أولى كانت محض دُوار طفيف قبيل أن نركب القطار. ها هو ذا القطار يتوقَّف الآن. أليست تلك محطة تشارينج كروس؟ أنا، أنا أعرف طبيبًا في الجوار.»

كان القطار يتوقَّف بالفعل. فتح هيثرويك الباب الفاصل بين هذه العربة والتي تليها، ورأى المحصِّل فناداه.

صاح به يقول: «أسرع! هنا! هنا رجل مريض، أعتقد بأنه يُحْتضَر! فلتأتِ إلى هنا!»

أتى المحصِّل يسير ببطء. لكنه حين رأى الرجل في الزاوية، أسرع نحو الباب الخارجي ونادى على رجالٍ كانوا على الرصيف. هُرع رجل يرتدي زيًّا رسميًّا ودلف إلى القطار.

سأل الرجل قائلًا: «ما هذا؟ رجل نبيل مصاب بنوبة؟ مَن معه؟ هل ثمة أحد معه؟»

نظر هيثرويك حوله باحثًا عن ذي الأصابع الملطَّخة. لكنه كان قد خرج من العربة بالفعل وصار يمشي على الرصيف متَّجهًا إلى الدَّرج المؤدي إلى المخرج. صاح بكلمات قليلة بينما كان يشير إلى الأعلى في الوقت نفسه.

صاح قائلًا: «طبيب! في الجوار! سأعود في غضون خمس دقائق! أخرِجوه.»

لكنَّ ثمَّة طبيبًا كان معهم بالفعل. وقبل أن يختفي ذو الأصابع الملطَّخة تمامًا، كان رجال آخرون من العربات المجاورة قد أتَوا؛ وراح أحدهم يشق طريقه نحو المقدِّمة.

قال باقتضاب: «أنا طبيب. أفسِحوا الطريق من فضلكم.»

وقف الآخرون يشاهدون في صمتٍ بينما راح الوافد الجديد يُجري فحصًا سريعًا للجسم الهامد. والتفت بعد ذلك فجأة.

قال بنبرة سريعة واثقة: «لقد مات هذا الرجل! هل هناك أحد معه؟»

توجَّهت أنظار موظفي القطار نحو هيثرويك. لكن هيثرويك هزَّ رأسه نافيًا.

وأجاب قائلًا: «لا أعرفه. كان معه رجل آخر، وقد ركبا القطار معًا في محطة «سانت جايمس بارك».» تابع حديثه وهو يلتفت إلى المحصِّل قائلًا: «أنت رأيتَ الرجل الآخر. لقد قفز من القطار بينما كنت آتيًا إلى هنا، وهُرع على الدَّرج، وقال بأنه ذاهب إلى طبيب في الجوار.»

قال المحصِّل موافقًا: «لقد رأيته، وسمعته أيضًا.» التفت إلى الدَّرج وإلى المخرَج من ورائه وأضاف قائلًا: «لكنه لم يَعُد.»

قال الطبيب: «من الأفضل أن تُخرِجوا الرجل. ضعوه في مكانٍ ما على الرصيف.»

وصل أحد رجال شرطة المحطة إلى القطار في تلك اللحظة؛ وقام هو وعمال السكة الحديد برفع الرجل وحمله عبر الرصيف إلى إحدى غرف الانتظار. شعر هيثرويك بأنهم قد يحتاجون إليه فتبعهم من خلفهم، والطبيب معه. شعر هيثرويك بسخرية الحياة الكئيبة حين تحرَّك القطار في طريقه فور أن نزلوا منه، وكأنه غير عابئ بما حدث ولا يكترث له.

تمتم بنبرة خفيضة هي أقرب إلى نفسه أكثر مما هي للرجل الذي يسير بجواره: «بحق السماء! قبل خمس دقائق فقط كان ذلك المسكين على قيد الحياة، وكان في أفضل صحة وحال بحسبِ ما رأيت!»

علَّق الطبيب بنبرة جافة: «لا شك في ذلك! لكنه مات الآن. ماذا حدث؟»

فأخبره هيثرويك بما حدث باقتضاب.

علَّق الطبيب قائلًا: «والرجل الآخر اختفى! حسنًا! لكن أظنُّ أنَّ أحدًا لم يفكِّر في احتجازه. فما الذي سيحدث إذن لو لم يَعُد؟»

صاح هيثرويك: «ألا تظنُّ أنها جريمة قتل؟»

قال رفيقه: «الملابسات غريبة. أقول إنَّ الرجل وافته المنية! مات فجأة كما يمكن لأي رجل أن يموت، كما لو كان قد أُرديَ بالرصاص أو تفجَّر إلى شظايا. وهذا مما تخبرني به. وربما يكون الأمر حالةً من حالات التسمم. فهل سيعود ذلك الرجل الآخر؟ إن لم يَعُد ...»

وحينها بدأ هيثرويك يتساءل عما إن كان ذلك الرجل سيعود، أم لا. لم يَعُد بعد مرور عشر دقائق، ولا بعد خمس عشرة دقيقة، ولا بعد مرور ثلاثين. غير أنَّ رجالًا آخرين أتَوا يُهرعون إلى داخل حجرة الانتظار الشاحبة الجدران متجمعين حول الطاولة التي يتمدَّد عليها الرجل المتوفَّى. كانت غالبيتهم من الموظفين الرسميين ورجال الشرطة، ثم أتى جرَّاح الشرطة ومعه مفتش شرطي يُدعى ماذرفيلد، وكان يعرف هيثرويك. وفي حين كان الطبيبان يُجريان فحصًا آخر، انتحى ذلك الرجل بهيثرويك جانبًا. أعاد هيثرويك رواية قصته، لكنه رواها هذه المرة بكامل التفاصيل. وراح ماذرفيلد يستمع ويهزُّ رأسه.

ثم قال: «ذلك الرجل الآخر لن يعود! لقد مضى على ذهابه الآن نصف ساعة. أتظنُّ أنه كان يعرف أن الرجل قد مات قبل أن يهرب؟»

أجابه هيثرويك: «لا أستطيع الجزم بذلك. حدث الأمر برُمَّته بسرعة شديدة حتى إنه انتهى قبل أن أتمكَّن من إدراكِ ما يحدث. لكنَّ المؤكد أنني رأيت الرجل الآخر يُجري فحصًا سريعًا ودقيقًا للمتوفَّى. بعد ذلك، قفز من الباب حرفيًّا، كان قد خرج من القطار ووصل إلى الدَّرج يُهرع عليه قبل أن يتوقَّف القطار تمامًا.»

سأل المفتِّش مقترحًا: «أتستطيع أن تصِفَه؟»

أجاب هيثرويك مؤكِّدًا: «أصفه؟ أجل. ويمكنني أن أتعرَّف عليه أيضًا. لقد كان يتسم بملامحَ محددة بارزة. يمكنني تمييزه مرة أخرى في أي مكان.»

قال ماذرفيلد: «حسنًا، سيكون علينا أن نبحث عنه. والآن، ينبغي أن نأخذ هذا المتوفَّى إلى المشرحة ونُجري له فحصًا كاملًا لنقف على ما حدث له. من الأفضل أن تأتي معنا يا سيد هيثرويك؛ فسوف أحتاج إلى وجودك في واقع الأمر.»

ذهب هيثرويك — في مؤخرة مسيرة كئيبة — وكان يسير بصحبة الطبيبين. كان عليه أن يقصَّ ما حدث مرةً أخرى إلى جرَّاح الشرطة الذي راح هو أيضًا — مثله في ذلك مثل البقية التي سمعت القصة — يهزُّ رأسه على نحوٍ ينذر بالسوء بشأن اختفاء الرجل ذي الوجه الشاحب.

وقال: «لم يكن ذلك سوى مبرِّرٍ لاختفائه، ليس هناك طبيب في الجوار. ألم تخمِّن هوية المتوفَّى، أقصد من خلال حديثهما معًا؟ ألم يذكروا أي اسم؟»

أجابه هيثرويك: «لم أسمعهما يذكران اسمًا. لم يخاطب أحدهما الآخر باسمه. ليس لديَّ أدنى فكرة عن هوية الرجل.»

كان هذا هو ما أراد معرفته. لا شك بأنَّ لذلك المتوفَّى أصدقاء في مكانٍ ما. كان قد تحدَّث عن فندقه، ربما يوجد مَن ينتظر وصوله هناك، ربما ستمثِّل أخبار وفاته صدمةً لأحدهم وستتسبَّب له في مشكلة كبيرة. انتظر هيثرويك وقد انتابه شعور أشبه بالقلق الشخصي بينما كانت الشرطة تفتِّش جيوب المتوفَّى.

وُجِد الكثير من الأشياء المختلفة في جيوبه، ووُضِع على طاولة جانبية. كان من بينها محفظة مليئة بالمال؛ ومبلغ نقدي في جيوبه. كانت توجد أيضًا ساعة ذهبية جميلة وسلسلة ثقيلة ومدلاة. وكان هناك دفتر صغير، يعجُّ بالخطابات والأوراق. علاوةً على ذلك، كانت توجد الأشياء التي يحملها الرجل الميسور الحال: علبة سيجار، وعلبة ثقاب فضية، ومقلمة فضية، وسكين جيب صغير وما إلى ذلك؛ كان من الواضح أن المتوفَّى كان ثريًّا. لكن مفتِّش الشرطة نحَّى تلك الأشياء الثمينة جانبًا؛ إذ كان اهتمامه الحالي منصبًّا على الدفتر الصغير، والذي أسرع في إخراج الخطابات منه. التفت بعد لحظة إلى هيثرويك والطبيبين، مشيرًا برأسه نحو الجثة الهامدة الممدَّدة على الطاولة.

قال وهو يشير إلى المظروفات في يده: «هذا هو اسمه وعنوانه. السيد روبرت هانافورد، فندق مالتر الخاص، شارع سُري، ستراند. توجد عدة خطابات موجَّهة إلى هناك مثلما ترون، وكلُّها بتاريخ حديث. سيتعين علينا أن نذهب إلى الفندق؛ فقد نجد زوجته أو أشخاصًا يعرفونه هناك. أتساءل مَن كان ذلك الرجل؟ شخص من الأقاليم على الأرجح. وفي الواقع …»

وضع الخطابات من يده وأمسك بتلك الساعة الجميلة ذات الغطاء الذهبي، وفتحها. كان على ظهرها نقش محفور بأحرف رقيقة. وصاح المفتِّش صيحةً تنم عن التعجب.

ثم قال: «يا إلهي! لقد خمنت ذلك جزئيًّا من مظهره. إنه واحد منَّا! انظروا إلى هذا: «مهداة إلى مفوَّض الشرطة روبرت هانافورد في تقاعده، من قضاة سيليثوايت …» سيليثوايت؟ أين تقع تلك؟»

أجابه أحد الواقفين بالقرب منه: «يوركشاير. الدائرة الجنوبية الغربية.»

أغلق ماذرفيلد الساعة ووضعها جانبًا.

وعلَّق قائلًا: «حسنًا، لا شك أنَّ تلك هي هويته: إنه هانافورد مفوَّض الشرطة السابق من سيليثوايت بيوركشاير، وهو نزيل في فندق مالتر. سيتعيَّن عليَّ الذَّهاب إلى هناك. آمل أن تأتي معي يا سيد هيثرويك؛ إذ كنتَ آخرَ مَن رآه على قيد الحياة، والفندق في طريقك إلى حي تيمبل.»

شيء شديد الشبه بالفضول القهري وإن لم يكن مَرَضيًّا، جعل هيثرويك يوافق على ذلك الطلب. وسرعان ما كان هيثرويك وماذرفيلد يسيران معًا على الجسر، ويتحدثان بشأنِ ما حدث ويفكِّران في سبب وفاة هانافورد المفاجئة.

علَّق ماذرفيلد قائلًا: «قد نقف على السبب الدقيق لوفاته بحلول الظهيرة. سوف نُجري فحصَ ما بعد الوفاة بالطبع. لكن ذلك الرجل الآخر! ربما نعرف عنه شيئًا هنا. وأتساءل عمَّن قد نجده هنا؟ آمل ألا تكون زوجته ...»

الفصل الثاني

لمن تعود هذه الصورة؟

فتح مالتر نفسه باب فندقه الخاص الصغير، وكان رجلًا هادئًا متحفظًا بدا وكأنه كبير خدم متقاعد. كان من نوعية الرجال البطيئين في الحديث، ولم يُجِب عن استفسار مازرفيلد الحذِر بشأن السيد روبرت هانافورد حين فُتِح باب في القاعة الصغيرة وخرجت منه فتاة تقدَّمت نحوهم على الفور حين سمعت سؤال المفتِّش، وكأنها أتت لتجيب عنه.

تعرَّف هيثرويك على الفتاة. كان قد رآها في ظهر اليوم السابق في مبنى «فاونتن كورت» بصحبة رجل كان على معرفة طفيفة به يُدعى كينثوايت، وهو محامٍ زميل له. من الواضح أنَّ كينثوايت كان يقوم بواجب الضيافة مرشِدًا إياها في جولة في حي تيمبل؛ والحق أنَّ هيثرويك قد سمع كينثوايت وهو يمر بهما، وكان يُخبِر رفيقته بشيء عن تاريخ المنازل القديمة والساحات الواقعة حولها. جذبت الفتاة انتباهه آنذاك. كانت فتاة جميلة، طويلة ورشيقة وأنيقة، وعلاوةً على جاذبية وجهها وجسدها التي لا جدال فيها، بدا أنها تتمتع بأكثر من القدْر المعتاد من الشخصية والذكاء، وكانت تستمع إلى مرشدها بانتباه وامتنان واضحين. صنَّفها هيثرويك على أنها ربما تكون قريبة لكينثوايت من الريف، وربما أتت في زيارة إلى لندن للمرة الأولى. على أية حال، لاحظ هيثرويك ملامحها عن كثب حين مرَّ بجانبها هي وكينثوايت حتى إنه تعرَّف عليها الآن من فوره؛ ورأى أنها تعرَّفت عليه أيضًا. لكنَّ ثمة أمرًا آخر كان أكثر إلحاحًا، وقد تطرَّقت إليه مباشرة.

تساءلت الفتاة قائلة وهي تقترب منهم أكثر وتحوِّل نظرها من مالك الفندق إلى الزائرين: «هل يسأل هذان الرجلان الفاضلان عن جدِّي؟ إنه لم يأتِ ...»

سُرَّ هيثرويك حين عرف أنَّ الرجل المتوفَّى هو جدُّها. تلك درجة قرابة وثيقة بالطبع، لكنها في النهاية أقل مما كان يمكن أن تكون عليه. وأدرك هيثرويك أنَّ المفتش أيضًا كان يشعر بالارتياح تجاه ذلك.

تحدَّث قائلًا: «نحن نسأل عن السيد روبرت هانافورد. أهو جدُّك: مفوَّض الشرطة السابق هانافورد من سيليثوايت؟ في هذه الحال، في الواقع، أنا آسف كثيرًا لأنني أحمل لك أخبارًا سيئة عنه ...»

صمت المفتِّش وراح يراقب الفتاة بدقة، وكأنه أراد أن يحرص على أن تتلقى الفتاة الأخبار في هدوء. وحين اطمأن إلى ذلك، أكمل حديثه على نحوٍ محدَّد:

فقال: «هل ستتفهمين؟ الأمر ... في الواقع، هذه الأخبار هي الأسوأ. الحق أنه ...»

قاطعته الفتاة قائلة: «هل مات جدِّي؟ إن كان هذا هو ما حدث، فأخبرني بذلك من فضلك، لن أفقد وعيي، أو أي شيء من هذا القبيل. لكن ... أريد أن أعرف!»

أجابها ماذرفيلد: «يؤسفني القول إنه قد مات. مات فجأة على متن القطار في محطة تشارينج كروس. المؤكد أنَّ نوبة ما أصابته. أكان بصحةٍ جيدةٍ حين رأيتِه للمرة الأخيرة؟»

التفتت الفتاة إلى مالك الفندق الذي كان يقف في مكانه وقد بدا عليه الذهول.

وصاح قائلًا: «لم أرَ في حياتي رجلًا يبدو أفضل منه حالًا حين خرج من ذلك الباب في تمام الساعة السادسة والنصف! كان في أفضل حالاته الصحية والنفسية!»

قالت الفتاة في هدوء: «كان جدِّي بصحة جيدة إلى حدٍّ بعيد. أنا لا أتذكَّر أنه كان غير ذلك قط: كان رجلًا قويًّا ومفعمًا بالحيوية. هلا تخبرني بتفاصيل الأمر برُمَّته من فضلك؟»

أخبرها ماذرفيلد بجميع التفاصيل، وكان يلتفت بين الحين والآخر إلى هيثرويك طالبًا تأييده. وفي النهاية طرح سؤالًا.

قال: «ذلك الرجل الذي رآه السيد هيثرويك بصحبة جدك. أتعرفين أحدًا يتطابق مع هذه الأوصاف؟»

أجابته الفتاة: «لا! لا أحد. لكن جدي كان يعرف أشخاصًا من لندن لم أكن أعرفهم. كان يذهب إلى هناك كثيرًا منذ أتينا إلى هنا قبل ثلاثة أيام؛ إذ كان يبحث عن منزل.»

علَّق ماذرفيلد قائلًا: «حسنًا، سيتعين علينا أن نجد ذلك الرجل. وبالطبع إذا أدركتِ أنَّ تلك الأوصاف تنطبق على أحدٍ تعرفينه ...»

قالت الفتاة مجدَّدًا: «لا. لا أعرف شخصًا بهذه الأوصاف. لكن الآن، أتريد مني أن آتي بصحبتكم إليه؟»

فأجابها ماذرفيلد: «ليس ذلك ضروريًّا، لم أكن لأفعل ذلك الليلة لو كنت في مكانك. سأحضر هنا مرة أخرى في الصباح. وفي تلك الأثناء، اتركي الأمر لنا نحن والأطباء. أعتقد أنَّ لديكم أصدقاء في لندن، أليس كذلك؟»

قالت الفتاة: «بلى، لدينا أصدقاء، بل أقارب في حقيقة الأمر. لا بد أن أُطلعهم على ما حدث في الحال.»

أومأ لها ماذرفيلد واستدار نحو الباب. لكنَّ هيثرويك تباطأ. كان هو والفتاة ينظران أحدهما إلى الآخر. وفجأة تحدَّث إليها هيثرويك.

فقال: «لقد رأيتكِ ظهر اليوم في «فاونتن كورت»، بصحبة رجل أعرفه معرفة طفيفة، السيد كينثوايت. أيصدف أنه أحد أولئك الأقارب الذين ذكرتِهم الآن؟ لأنه إذا كان كذلك، فإنه يسكن بالقرب مني. يمكنني أن أخبره إذا ما أردتِ ذلك.»

ردَّت عليه الفتاة: «لا، ليس قريبًا لنا. إنما هو من دائرة معارفنا. يمكنك أن تخبره من فضلك، إن لم يكن في ذلك إزعاج لك.»

قال هيثرويك: «ليس في ذلك أيُّ إزعاج مطلقًا. وإذا سمحتِ لي، فهل لي أن آتي في الصباح لأرى إن كان ثمة ما يمكنني فعله من أجلك؟»

رمقته الفتاة بنظرة سريعة تنم عن التجاوب معه.

وقالت: «هذا من لطفك. أجل.»

غادر هيثرويك ومفتِّش الشرطة الفندقَ الصغير وراحا يسيران في الشارع. وبدا أنَّ ماذرفيلد منهمك في التفكير. وفي مكانٍ ما في شارع ستراند وبعد مسافة كبيرة في شارع فلِيت، بدأت أجراس الساعات تدق.

قال ماذرفيلد فجأة: «يبدو لي يا سيد هيثرويك أن هذه جريمة قتل!»

قال هيثرويك: «أتقصد بالسُّم؟»

«على الأرجح! أجل، لا بد أنه السُّم. علينا أن نجد ذلك الرجل! ألا يمكنك أن تضيف إلى أوصافه؟»

«لقد أخبرتك بكلِّ ما أستطيع بالفعل. لديك تفاصيل كاملة ودقيقة. أعتقد أنك لن تجد صعوبة كبيرة في التعرُّف عليه وإيجاده، بناءً على الوصف الذي قدَّمته.»

أطلق ماذرفيلد صوتًا اختلط فيه الضحك بالغمغمة.

وقال: «ليباركك الرب! إنَّ البحث عن شخصٍ ما في لندن هو أمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش! أقصد أنَّ ذلك يحدث في بعض الأحيان بالطبع. الحق أنه يحدث في معظم الأحيان. رجل يُهرع على الدَّرج في محطة «تشارينج كروس»، ثم يختفي؛ أين؟ رجل واحد من بين سبعة ملايين من الرجال والنساء! لكن ...»

افترق الرجلان بعد ذلك، وذهب هيثرويك غارقًا في التفكير إلى شقته ثم خلد إلى الفراش، وظلَّ راقدًا يفكِّر وقتًا طويلًا قبل أن يوافيه النوم. لم يحصل على قسط جيد من

النوم، لكنه وصل إلى شقة كينثوايت بعد أن تجاوزت الساعة الثامنة بقليل. كان كينثوايت يرتدي ملابسه ويتناول الإفطار في الوقت نفسه، وكانت ثمة حقيبة جاهزة بالفعل وجدول مفتوح أوحيا أنه كان على عجلةٍ من أمره ليلحق بقطارٍ ما. غير أنه توقَّف عما كان يفعله؛ إذ وقف يحدِّق بهيثرويك شاغرًا فمه في ذهول من الأخبار التي سمعها منه.

وصاح قائلًا: «هانافورد! مات! يا إلهي! كان الرجل في صحة ممتازة ظُهْر البارحة يا هيثرويك! لقد عرَّج عليَّ هو وحفيدته واصطحبتهما إلى الغداء؛ فأنا من سيليثوايت كما تعرف؛ لذا كنت أعرفهما بالطبع. اضطُر هانافورد إلى الرحيل حالما فرغنا من الغداء، بسبب موعدٍ ما؛ لذا أخذت الفتاة في جولة قصيرة. إنها فتاة لطيفة وذكيَّة. اسمها رونا. جدير بها أن تحظى بالرعاية. ويموت العجوز! يا إلهي!»

علَّق هيثرويك قائلًا: «ليس لديَّ شك في أنَّ وفاته حادثة مدبَّرة.»

قال كينثوايت: «يبدو الأمر مرجَّحًا بصورة استثنائية.» وأردف وهو يكمل أداء مهمتَيه: «يؤسفني في الواقع أنني لن أستطيع مساندة الآنسة هانافورد اليوم؛ إذ يتحتم عليَّ أن أحضر في قضيَّة صعبة في المحكمة الفصليَّة يا صديقي، وليس أمامي سوى وقت قليل وثمين لألحق بالقطار. لكنني سأذهب إليها غدًا، هل يمكنك أن تساعدهم هذا الصباح؟»

أجابه هيثرويك: «أجل، ليس لديَّ شيء أقوم به اليوم. سأذهب إلى هناك بعد برهة. الأمر يثير اهتمامي بصورة طبيعية. فهذه قضية غريبة.»

وافقه كينثوايت: «غريبة! تبدو لي كذلك فعلًا. حسنًا، بلِّغ الآنسة هانافورد تعاطفي وما إلى ذلك، وأخبرها إن كان ثمة شيء أستطيع فعله حين أعود، أنت تعرف ما ستقول.»

علَّق هيثرويك قائلًا: «لقد قالت إنَّ لها معارف هنا في لندن.»

أقرَّ كينثوايت قائلًا: «أبناء عمومة أو عمات — هذا أو ذاك — أظنُّ أنهم على طريق توتنج. الساعة الآن الثامنة والثلث! سيتحتَّم عليَّ أن أسرع الآن يا هيثرويك!»

ابتلع ما تبقَّى من قهوته، وأمسك بالحقيبة وانطلق مسرعًا؛ وعاد هيثرويك إلى شقته وتناول إفطاره على مهل. وطوال فترة جلوسه في شقته، ظل يفكِّر في الحدث الذي وقع الليلة السابقة، لا سيما الاختفاء المفاجئ للرجل ذي الأصابع الملطَّخة. بدا لهيثرويك أن ذلك الاختفاء ينم عن ضلوعه في الأمر. تخيَّل هيثرويك أنَّ الأمر قد سار على النحو التالي: قام الرجل الذي هرب عند محطة تشارينج كروس بتسميم الرجل الآخر بطريقة خفية وحاذقة، وباستخدام شيء يستلزم وقتًا حتى يحدث مفعوله، وحين حانت اللحظة المرتقبة،

سرى مفعول ذلك الشيء بسرعة مذهلة. لقد شهد هيثرويك في أثناء خدمته في الحرب موت الكثير للغاية من الرجال، حتى إنه لا يستطيع أن يتذكَّر عددهم. رأى بعضهم يصاب بطلق ناري في الدماغ، وآخرين يصابون به في صدورهم. غير أنه لم يرَ أيًّا منهم يموت بتلك السرعة المذهلة التي مات بها هانافورد، مع أنَّ بعضهم قد مات بجواره تمامًا. وبناءً على هذا توصَّل هيثرويك إلى استنتاج محدَّد: إذا كان ذو الأصابع الملطَّخة قد سمَّم هانافورد، فإنه يمتلك معرفة نادرة وعميقة بالسموم.

ذهب هيثرويك إلى شارع سُري في الساعة العاشرة. وأخبره مالك الفندق أنَّ الآنسة هانافورد قد ذهبت مع عمتها السيدة كيلي التي أتت في ساعة مبكرة من الصباح لرؤية جثة جدها؛ إذ أتى مسئول من الشرطة لاصطحابهما. لكنَّ الآنسة هانافورد تركت رسالة لأي شخص يسأل عنها تقول بأنها لن تغيب طويلًا. انتظرها هيثرويك في قاعة المشروبات الصغيرة القاتمة؛ إذ كانت لديه أسئلة محدَّدة يريد أن يطرحها على رونا هانافورد، وكان يريد أن يخبرها أيضًا ببعض المعلومات.

علَّق مالك الفندق وهو يحوم حول طاولات الإفطار قائلًا: «هذا شيء مؤسف للغاية يا سيدي. يا لها من نهاية مأساوية لرجل صالح ويتمتع بالقوة كالسيد هانافورد!»

وافقه هيثرويك قائلًا: «مؤسف جدًّا. لقد قلت ليلة أمس — أو بالأحرى صباح اليوم — إنَّ السيد هانافورد كان يتمتع بصحة جيدة ومزاج طيب حين خرج في ساعة مبكرة من المساء؟»

«كان في أفضل أحواله يا سيدي! كان مبتهجًا ولطيفًا، ومولعًا بالمزاح. كان يمزح ويضحك معي حين فتحت له الباب، ولم يخطر ببالي قط يا سيدي أنني لن أراه مرة أخرى على قيد الحياة!»

«ألا تعرف إلى أين كان ذاهبًا؟»

«لا أعرف يا سيدي. وحفيدته — وهي شابة ذكية يا سيدي — لم تكن تعرف أيضًا. كانت قد ذهبت إلى أحد المسارح مع عمتها: تلك السيدة التي أتت في وقت مبكِّر من صباح اليوم. لقد أرسلنا لها برقية تحمل الأخبار السيئة مبكرًا للغاية، وقد أتت من فورها. أما عن الرجل، فكلَّا، لا أعرف المكان الذي ذهب إليه يقضي أمسيته. فقد كان يأتي ويخرج كثيرًا، وكان يقضي معظم الوقت خارج الفندق منذ قدومهما إلى هنا قبل ثلاثة أيام. فهمت أنه كان يبحث عن منزل.»

عادت رونا هانافورد بعد فترة قصيرة بصحبة امرأةٍ تبدو فيها ملامح الأمومة، وقدَّمتها بأنها عمتها السيدة كيلي. تذكَّر هيثرويك أنه لم يقدِّم نفسه، وبتصحيحه لهذا

النسيان، اكتشف أنَّ كينثوايت قد أخبر رونا عنه حين مرَّ بهما ظهيرة اليوم السابق. أبلغ هيثرويك رسالة كينثوايت وعرض مساعدته هو في غيابه.

قالت رونا: «هذا لطف منك. لا أعرف إن كان ثمة شيء نقوم به. يبدو أن الشرطة تقوم بكل شيء، كان المفتش الذي كان موجودًا هنا ليلة أمس عطوفًا جدًّا معي الآن، لكن لا يوجد ما يمكن القيام به إلا بعد التحقيق، مثلما قال.»

قال هيثرويك: «أجل، وهل قال متى سيُعقد؟»

قالت رونا: «صباح الغد. قال أيضًا إنه ينبغي عليَّ الحضور.»

علَّق هيثرويك: «وأنا أيضًا. سيريدون منكِ أقوالًا رسمية فحسب. وسيكون عليَّ أن أقول المزيد. أتمنى لو كان بإمكاني أن أقول أكثر مما سأقول.»

نظرت إليه السيدتانِ مستفسرتينِ عن معنى كلامه.

فأكمل يقول: «أعني أنني أتمنى لو أنني أوقفت الرجل الآخر من مغادرة القطار. أعتقد أنكما لم تسمعا أيَّ شيء من الشرطة عن ذلك الرجل، أليس كذلك؟»

«لا شيء. فهم لم يجدوه أو يسمعوا شيئًا عنه حتى الآن. لكن يمكنك أن تخبرني بشيء أرغب بشدة في معرفته. لقد رأيت ذلك الرجل مع جدي لوقت قصير، أليس كذلك؟»

«من محطة «سانت جايمس بارك» وحتى «تشارينج كروس».»

«هل تناهى إلى سمعك حديثهما، أو أيُّ شيء منه؟»

«سمعت الكثير في البداية. وبعد ذلك، بدأ جَدك يهمس إليه، ولم أسمع أيَّ شيء من همسه. لكنَّ أحد الأسباب التي دعتني للحضور إليكِ هذا الصباح هو أن أخبرك بما سمعت، وثمة سبب آخر وهو أنني أريد أن أسألك بعض الأسئلة التي برزت لي من خلالِ ما سمعت. كان السيد هانافورد يتحدث إلى ذلك الرجل — المفقود الآن — عن رسمة أو صورة. من الجلي أنها كانت لامرأة كان جدك يعرفها قبل عشر سنوات، وكان الرجل الآخر يعرفها أيضًا. قال جدك إنه حين يذهبان إلى الفندق سيُطلع الرجل الآخر على الصورة، والذي أكَّد أنه سيتعرَّف عليها هو أيضًا. والآن، هل أخبرك السيد هانافورد بأيِّ شيء؟ هل تعرفين بشأن إحضاره لصديقٍ له إلى هذا الفندق ليلة أمس؟ وهل تعرفين أيَّ شيء عن صورة أو رسمة كتلك التي أشار إليها؟»

«بشأن إحضار أحد إلى هنا، فلا! لم يخبرني بأي شيء قط عن ذلك. أما عن الصورة، أو بالأحرى عن نسختها، فأجل. أعرف شيئًا عن ذلك.»

سألها هيثرويك في حماسة: «ماذا تعرفين؟»

أجابته قائلة: «حسنًا، سأقص عليك ما أعرف. كان جدي الذي يمكنني القول إنك صرت تعرفه الآن، مفوَّضا للشرطة في سيليثوايت سنوات طويلة، وكان لديه عادة قص الأشياء من الجرائد: بعض الفقرات وقصص محاكمات المجرمين وما إلى ذلك. كانت لديه عدة صناديق ممتلئة بتلك القصاصات. وحين كنا في طريقنا إلى المدينة ذلك اليوم رأيته يقص صورة من جريدة مصوَّرة كان يقرؤها في القطار ووضعها في دفتر جيبه، أو بالأحرى في أحد دفاتر جيبه؛ ذلك أنه كان يمتلك منها اثنين أو ثلاثة. وفي هذا الصباح كنت أنظر في الأشياء المختلفة التي تركها موضوعة على منضدة التزيين الخاصة به في الطابق العلوي، ووجدت الصورة التي قصَّها في القطار موضوعة في أحد دفاتره. لا بد أنها تلك الصورة التي تشير إليه؛ إنها لامرأة جميلة جدًّا وذات ملامح مميزة.»

قال هيثرويك مقترحًا: «لو سمحتِ لي برؤيتها ...»

وفي غضون دقائق كانت القصاصة في يده: قطعة من الورق مقصوصة بعناية عما يحيط بها من الجريدة، وهي نسخة لصورة فوتوغرافية لامرأة يبدو أنها في الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمرها، ومن الجلي أنها تحتل مكانة رفيعة، وكانت جميلة مثلما أشارت رونا هانافورد وذات ملامح مميزة. لكنَّ هيثرويك لم يكن يحملق بعينيه اللتين تملَّك منهما التخمين والتكهُّن في الصورة؛ فبعد أن رمق الصورة بعينه، تركَّز اهتمامه على كلمة مكتوبة بقلم رصاص على هامشها الجانبي:

«... من بين يدي قبل عشر سنوات!»

سأل هيثرويك فجأة: «أهذا خطُّ جدك؟»

أجابته رونا: «أجل، هذا خطُّه. كان معتادًا على التعليق بقلمه الرصاص على قصاصاته بجميع أنواع التعليقات.»

«ألم يذكر لك تلك القصاصة بعينها حين قصَّها؟»

«نعم، لم يقُل شيئًا عنها. لقد رأيته وهو يقصُّها، وسمعته يضحك ضحكةً مكتومة وهو يحتفظ بها، لكنه لم يذكر شيئًا عنها.»

«ولا تعرفين مَن هي تلك السيدة؟»

«لا، أبدًا! فلا يوجد اسم تحتها مثلما ترى. أعتقد أنه كان هناك اسم في الجريدة، لكنه لم يقص شيئًا سوى الصورة وشيء من الهامش. لكن من خلالِ ما كتبه هنا، أستنتج أنها صورة لامرأة كانت في ورطةٍ مع الشرطة في وقت من الأوقات.»

غمغم هيثرويك: «واضح!» وجلس في صمت يفحص الصورة لدقيقة أو اثنتين.

قال فجأة: «اسمعيني من فضلك، أريد منكِ أن تسمحي لي بالمساعدة في محاولة الوصول لحقيقة هذا الأمر؛ فأنت تريدين أن تُرفع الغشاوة عن هذا الأمر بالطبع. وفي البداية، أريد أن تكون هذه القصاصة بحوزتي، ولا تخبري أحدًا في الوقت الراهن أنها معي: أقصد الشرطة أو أيَّ شخص يسألك. أريد أن أتحدث إلى كينثوايت بشأنها. أتفهمين؟ ولمَّا كنتُ حاضرًا في أثناء وفاة جدك، فإنني أريد أن أحلَّ لغز وفاته. اسمحي لي أن أحصل عليها ...»

أجابته رونا: «حسنًا، بالطبع! لكن ... أتظن أن مقتله حادث مدبَّر؟ وأنه لم يَمُت مِيتةً طبيعية؟ أنه لم يُصَب بنوبة قلبية أو ...»

فُتِح باب حجرة المشروبات الصغيرة ودخل ماذرفيلد. فور أن رأى هيثرويك، أشار إليه بالدخول إلى القاعة الرئيسية وأغلق الباب مرة أخرى حين لحِق به المحامي الشاب. أدرك هيثرويك أنه كان يحمل الكثير من الأخبار، وتوجَّهت أفكاره في الحال إلى الرجلِ ذي الأصابع الملطخة.

قال بنبرة تنم عن الحماس: «حسنًا؟ هل وجدتم ذلك الرجل؟»

أجابه ماذرفيلد: «آه، ذلك الرجل؟ لا! لم نسمع عنه أو نجد شيئًا بشأنه حتى الآن! لكن الأطباء انتهوا من الفحص الجنائي. ما من شك بشأن قرارهم. لقد مات مسمومًا!»

خفض ماذرفيلد صوتَه إلى حد الهمس حين نطق بتلك الكلمة الأخيرة. وعلى الرغم من أن هيثرويك كان مستعدًّا لتلقي تلك الأخبار، فقد ذُهِل حين سمعها؛ ذلك أن النبرة الحاسمة التي أتى بها التصريح بدت وكأنها تفتح نافذة على مجال كبير من الغموض والألغاز. ورمق الباب الموجود خلفه.

فقال ماذرفيلد مقاطعًا أفكاره: «سيتحتم إطلاعهم على ذلك بالطبع. لكنَّ الأمر مؤكَّد. لقد شك جرَّاحُنا في الأمر منذ البداية، وقد استدعى متخصصًا من وزارة الداخلية ليساعده في التشريح، يقولون إن الرجل سُمِّم بعقَّارٍ ما أو آخر؛ فأنا لا أفهم الكثير في تلك الأشياء، وإنه تناول ذلك المستحضر قبل ساعتين أو ثلاث من وفاته، وإنَّ مفعول هذا العقَّار كان سريعًا كالبرق حين نشط.»

غمغم هيثرويك وهو غارق في التفكير: «أجل. مفعوله سريع كالبرق: ذلك وصف دقيق. يمكنني أن أشهد أنه كان كذلك.»

وضع ماذرفيلد يده على الباب.

وقال: «حسنًا، من الأفضل أن أخبِر السيدتين. وبعد ذلك، توجد بعض الأمور التي أريد معرفتها من الحفيدة. لقد رأيتها هي وعمتها من قبل في الصباح. وعرفتُ أن هانافورد ربَّى تلك الفتاة وعلَّمها وأنها كانت تعيش معه في سيليثوايت منذ أن تخرجت في المدرسة؛ لذا فإنها ستعرف عنه أكثر مما سيعرف أيُّ شخص آخر. وأنا أريد أن أعرف كل شيء. فلتأتِ معي.»

الفصل الثالث

الثروة المحتملة

تقبلت كلتا المرأتين الصغرى والكبرى ما بلَّغهم به ماذرفيلد في هدوء. لم تعلِّق رونا بشيء. لكنَّ السيدة كيلي تحدثت باندفاع.

فهتفت قائلة: «لم يكن هناك رجل محبوب بقدره، ومن الجميع! فمن عساه يرغب في إنهاء حياته؟»

قال ماذرفيلد: «هذا هو ما علينا أن نكتشفه يا سيدتي. أريد أن أعرف كل شيء بقدر الإمكان، وأعتقد أنَّ الآنسة هانافورد تستطيع إخباري بالكثير. والآن، لنرى ما نعرفه من خلال ما أخبرتماني به هذا الصباح. كان السيد هانافورد مفوَّض الشرطة لسنوات طويلة في سيليثوايت. وقد تقاعد مؤخَّرًا. نوى أن يعيش في لندن، وقد أتى إليها بصحبتك أيتها الآنسة هانافورد ليبحث عن منزل مناسب؛ فوصلتما قبل ثلاثة أيام، وأقمتما في هذا الفندق. أهذا كله صحيح؟ جيد جدًّا، والآن أريد أن أعرف كلَّ شيء عن تحركاته في غضون الأيام الثلاثة المنصرمة. ماذا فعل؟ أين قضى وقته؟»

أجابته رونا: «لا يمكنني أن أخبرك بالكثير. فقد كان يقضي الوقت في الخارج معظم اليوم، وبمفرده في معظم الأحيان. لم أخرج بصحبته سوى مرتين؛ مرة حين خرجنا للتسوُّق، والأخرى حين عرَّجنا على السيد كينثوايت في شقته في حي تيمبل. فهمت أنه كان يبحث عن منزل؛ فكان يلتقي بوكلاء المنازل وما إلى ذلك. كان يقضي وقته في الخارج في الصباح والظهيرة والمساء.»

«ألم يخبركِ بأي شيء عن الأماكن التي كان يذهب إليها أو الأشخاص الذين التقى بهم؟»

«نعم. كان من نوعية الرجال الذين يحتفظون بأمورهم لأنفسهم. ليس لديَّ أدنى فكرة عن الأماكن التي ذهب إليها أو الأشخاص الذين التقى بهم.»

«ألم يذكر أيَّ شيء عن المكان الذي كان ذاهبًا إليه ليلة أمس؟»

«نعم. لم يذكر شيئًا سوى أنه سيخرج، وأنني سأجده هنا حين أعود من المسرح الذي ذهبت إليه بصحبة السيدة كيلي. وقد عُدنا بعد الحادية عشرة بقليل. لكنه لم يكن قد حضر، مثلما تعلمون.»

«ألم تسمعيه من قبل يتحدث عن وجود أعداء له؟»

«لا أعتقد أنه كان له أعداء قط! كان رجلًا طيبًا ومحبوبًا للغاية، حتى مع الأشخاص الذين كان عليه التعامل معهم بصفته مفوَّض الشرطة.»

«وأعتقد أنه لم يكن لديه ما يقلقه على الصعيد المالي، أو أي شيء من هذا القبيل؟ ولا أي مشكلات أخرى، لا شيء يثير قلقه؟»

قالت رونا في ثقة: «لا أظنُّ أن شيئًا كان يثير قلقه أبدًا. كان يتطلَّع إلى الاستقرار في لندن بحماس كبير. أما عن المشاكل المادية، فلم يكن لديه أيٌّ منها. كان الرجل ميسور الحال.»

علَّقت السيدة كيلي قائلة: «كان دائمًا ما يدَّخر المال وكان حذرًا. حسنًا، أجل، كان ميسور الحال إلى حد كبير، فضلًا عن معاش تقاعده.»

نظر مازرفيلد إلى هيثرويك الذي كان يستمع بانتباه كبير إلى كل الأسئلة وإجاباتها. وكان في نظرته شيء يدعوه إلى المشاركة.

قال هيثرويك: «حسنًا، أنا أدرك هذا.» التفت بعد ذلك إلى رونا وقال: «بخلاف مسألة البحث عن منزل، أتعرفين ما إن كان جدك مشاركًا في أي أعمال في لندن، أم لا؟ ما أفكِّر فيه هو أنه من خلال ما رأيت منه في القطار، بدا أن الرجل يتمتع بالنشاط والحيوية، وليس من نوعية الرجال الذين سيجلسون في بطالة تامة لأنه تقاعد. فهل تعرفين بوجود عمل كان يفكِّر في الشروع فيه، أو عمل فكَّر في الانضمام إليه؟»

راحت رونا تفكِّر في هذا السؤال برهة.

وأخيرًا أجابت: «ليس عملًا بمعنى الكلمة. لكن هناك شيء ربما يكون ذا صلة بما اقترحته. كان لجدي هواية. كان يُجري التجارب في وقت فراغه.»

سألها هيثرويك: «في أي مجال؟» ثم تذكَّر فجأة الأصابع الملطخة التي لاحظها في كلا الرجلين في الليلة السابقة. فأضاف على عجلٍ: «أكانت تلك التجارب كيميائية؟»

أجابت بنظرة تنم عن الاندهاش: «أجل، كانت كيميائية. كيف عرفت ذلك؟»

أجاب هيثرويك: «لاحظت أن يديه وأصابعه كانت ملطَّخة. وكذلك كانت يدا الرجل الذي كان معه وأصابعه. حسنًا، هلا تخبرينني بالمزيد؟»

فأكملت رونا تقول: «كان لديه مختبر صغير في حديقتنا في سيليثوايت. وكان يُمضي فيه كل وقت فراغه، وقد استمر ذلك سنوات. ومؤخَّرًا، عرفت أنه كان يحاول اختراع شيء ما أو اكتشافه، لكنني لا أعرف ماهيته بالتحديد. وقبل أن نغادر سيليثوايت مباشرة، أخبرني أنه حلَّ المشكلة، وحين كان يجمع أشياءه ويحزم أوراقه أراني مظروفًا مغلقًا قال إنه يحتوي على تفاصيل اكتشافه، قال إنَّ هناك ثروة محتملة من ورائه وإنه سيموت ثريًّا. وقد رأيته يضع ذلك المظروف في دفتر جيب كان يحمله معه دائمًا.»

قال مازرفيلد: «لا بد أنَّ هذا هو الدفتر الذي فحصته ليلة أمس. لم يكن فيه مظروف مغلق أو أي مظروف فُضَّ خاتمه. لم يكن به شيء سوى خطابات وإيصالات وأوراق غير مهمة.»

صرَّحت رونا قائلة: «وهو ليس في دفاتره الأخرى أيضًا. لقد فتَّشت في أغراضه كلها بنفسي في وقت مبكر من هذا الصباح، فتشت في كل شيء كان هنا. أعرف أنَّ ذلك المظروف كان معه أمس؛ إذ إنه أخرج بعض الأشياء من جيبه حين كنا نتناول الغداء مع السيد كينثوايت في أحد المطاعم في شارع فليت، ورأيت المظروف. كان مظروفًا سميكًا مربَّع الشكل وقد رُسم على مقدِّمته خطَّان عريضان باللون الأحمر، وكان مختومًا بختم شمعي أسود ثقيل في الجهة الخلفية منه.»

سألها مازرفيلد بسرعة: «أتقولين إن ذلك كان أمس؟ ظُهْر أمس؟ هذا صحيح! إذن، بما أنَّ المظروف كان بحوزته ظُهْر البارحة ولم يكن في جيبه ليلة أمس وهو ليس بين أشيائه في هذا الفندق، فمن الواضح أنه كان يحمله معه بالخارج فيما بين الثانية ظهرًا أمس ومنتصف الليل تقريبًا. والآن، إلى مَن ذهب؟ هذا شيء علينا أن نعرفه! لكن، هل أنت واثقة من أنه لم يكن يمزح حين أخبرك أن هذا الاكتشاف أو الاختراع أو أيًّا كان، كان يساوي ثروة؟»

أجابته رونا: «على العكس، كان في غاية الجدية. كان جادًّا بصورة غير معهودة عليه. لم يخبرني عن ماهية ذلك الاكتشاف، ولم يذكر لي أيَّ تفاصيل عنه؛ فكل ما قاله هو أنه حلَّ مشكلةً ما وتوصَّل لاكتشاف كان يعمل عليه سنوات، وأن السرَّ كان في ذلك المظروف وأنه لا يُقدَّر بثمن. وقد سألته عما يعنيه بأنه لا يُقدَّر بثمن فقال: «الحق أنه يساوي مائة ألف جنيه، كاملة».»

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر، وخيَّم الصمت عليهم جميعًا.

وأخيرًا قال مازرفيلد: «حسنًا! سرٌّ يساوي مائة ألف جنيه كاملة. علينا أن ندقِّق النظر في هذا الشأن. ما رأيك يا سيد هيثرويك؟»

أجابه هيثرويك: «أجل. وليس لديكِ أدنى فكرة بالطبع عما إن كان جَدُّك قد فعل أيَّ شيء بخصوص بيع هذا الاكتشاف أو قام بأي ترتيبات حيال بيعه؟ لا! حسنًا، أيمكنكِ أن تخبريني بالآتي: ما هو نوع المنزل الذي كان جَدُّك يرغب في استئجاره هنا في لندن؟ أعني، أتعرفين المبلغ الذي كان على استعداد ليدفعه إيجارًا للمنزل؟»

علَّقت السيدة كيلي قائلة: «يمكنني أنا أن أجيبك عن ذلك. لقد أخبرني أنه يريد منزلًا جيدًا، بل جيدًا للغاية، ويقع في ضاحية مناسبة، وكان على استعداد لدفعِ ما يصل إلى ثلاثمائة جنيه في العام.»

قال هيثرويك: «ثلاثمائة جنيه في العام.» وتبادل نظرات ذات مغزًى مع ماذرفيلد. أردف قائلًا: «يبدو وكأنه كان مطمئنًا إلى وجود دخل مالي كبير، وكأنه باع اكتشافه بالفعل أو كان واثقًا للغاية من حدوث ذلك.»

قال ماذرفيلد موافقًا: «هذا مؤكد. أنا لا أعرف موارده المالية الخاصة بالطبع، لكنني أعرف مقدار معاش تقاعده، والحق أنَّ ثلاثمائة جنيه في العام للإيجار وحده مبلغ كبير! حسنًا، سيتحتم علينا محاولة تتبُّع ذلك المظروف المختوم.»

قال هيثرويك معلِّقًا: «يبدو لي يا ماذرفيلد أن أول شيء علينا القيام به هو تتبُّع تحركات هانافورد ليلة أمس، منذ غادر الفندق حتى وفاته في القطار.»

أجابه ماذرفيلد: «نحن نعمل على ذلك بالفعل. لدينا حشد صغير من الرجال يعملون على ذلك. لكن بما أننا جميعًا نحتاج إلى كل مساعدة يمكننا الحصول عليها، فسأثير حراك رجال الصحافة يا سيد هيثرويك؛ فدائمًا ما يكون للصحافة يا سيدي قيمة كبيرة في هذا النوع من القضايا! وأريد من الآنسة هانافورد أن تعطيني صورة حديثة لجَدِّها إن كان لديها واحدة كي ننشرها في الصحف. ربما يتعرَّف عليه شخصٌ ما: شخص رآه ليلة أمس مع شخص آخر.»

كان لدى رونا صورة حديثة للرجل المتوفَّى كانت قد أُخذت له بزي مدني قبل أن يغادر سيليثوايت، وقدَّمت لماذرفيلد عدة نسخ منها. ظهرت نسخ هذه الصور في صحيفة «ميتيور» وغيرها من الصحف المسائية في تلك الليلة، وكذلك في بعض الصحف الصباحية لليوم التالي. ونتيجة لذلك، تقدَّم رجل إلى مقر التحقيق بعد بضع ساعات وصرَّح بتأكيد إيجابي أنه رأى هانافورد في ساعة مبكرة من مساء يوم وقوع الجريمة. كان ظهور الرجل أمام قاضي التحقيق هو الشيء المثير الوحيد في تلك الإجراءات التمهيدية الضرورية؛ وحتى اللحظة التي تقدَّم فيها الرجل، لم يحدث شيء لم يكن هيثرويك على دراية به بالفعل.

لقد أدلى بشهادته، ومما أثار دهشته بعض الشيء بخصوص ذلك أنَّه لا قاضي التحقيق ولا الشرطة أبدوا اهتمامًا كبيرًا بروايته بشأن حديث الرجلين عن صورة المرأة؛ إذ بدا أنهم ينظرون إلى ملاحظات هانافورد على أنها مجرَّد ثرثرةٍ عن ذكرى له مع أحد المجرمين. وبعد ذلك جاء دور شهادة رونا التي كانت تكرارًا لما أخبرت به مادرفيلد وهيثرويك في فندق مالتر: وكان من الواضح أن الشرطة وقاضي التحقيق ركَّزوا على المظروف المغلق والمفقود وما يحتوي عليه من سر غامض، بصفته عاملًا مهمًّا للغاية في القضية. وجاءت من بعد ذلك شهادة الخبراء من الطبيبين عن سبب الوفاة، والتي اقتصرت على تصريحات مؤكِّدة بأنَّ هانافورد تُوفِّي بفعل إعطائه سمًّا خفيًّا، مع إرجاء ذكر التفاصيل الدقيقة حتى يستطيع الخبيران معرفة المزيد من المعلومات والإدلاء بها في الجلسات المؤجَّلة. كان قاضي التحقيق على وشك أن يؤجل القضية مدة أسبوعين حين دخل رجل إلى الجلسة وتحدث مع المسئولين ودخل مقصورة الشهود ليروي قصَّةً أضافت معلومات وزادت من غموض اللغز في الوقت نفسه.

بدا الرجل وقورًا في مظهره، وكان في منتصف العمر ويُدعى مارتن تشارلز ليدبيتر، وهو مدير مكتب تأمينات في ويستمنستر ويقيم في ساتُن في سُري. قال إن من عادته أن يسافر كل مساء من فيكتوريا إلى ساتُن على متن قطار السابعة والثلث. ودائمًا ما كان يصل إلى فيكتوريا قبل السابعة بقليل ويتناول كوبًا من الشاي في غرفة المرطبات. وقد فعل ذلك في الليلة السابقة لليلة أمس. وبينما كان يتناول الشاي على المنضدة، جاء رجل كبير في السن ووقف بجواره، وكان متأكدًا تمامًا من أنه هو الرجل نفسه الذي رأى صورته في بعض صحف مساء أمس وكذلك في بعض صحف صباح اليوم. لم يكن لديه أدنى شك في ذلك. في البداية لاحظ الرجل أصابع الآخر الملطَّخة بينما كان يرفع كأس الويسكي والصودا التي طلبها، وفي تلك اللحظة فكَّر في التناقض بين تلك الأصابع وبين ملابس الرجل النظيفة ومظهره الأنيق؛ كما أنه لاحظ أيضًا عصاه ذات الرأس الذهبي الذي يتخذ شكل التاج. وقف الرجلان جنبًا إلى جنب بضع دقائق، ثم خرج الرجل. وبعد دقيقة أو اثنتين رآه مرة أخرى، لكن هذه المرة عند كشك الكتب الموجود على الجانب الأيمن من الغرفة، وكان من الواضح أنه كان يبحث حينها عن شخصٍ ما.

في تلك اللحظة، بدأت الإثارة بحق؛ فانتبه الجميع للغاية بينما وجَّه قاضي التحقيق سؤالًا مباشرًا للشاهد.

«يبحث عن شخصٍ ما؟ هل رأيته يلتقي بأحد؟»

«فعلت!»

«خبِّرني بما رأيت.»

«رأيت الآتي. حين توجَّهت نحو كشك الكتب لأشتري صحف المساء، كان الرجل الذي رأيته في غرفة المرطبات يقف بالقرب مني. كان ينظر حوله، لا سيما إلى المداخل المؤدية إلى المساحة الكبيرة الواقعة بين المكاتب والأرصفة. وقد نظر في ساعته مرة أو اثنتين. حينها كانت الساعة السابعة وعشر دقائق وفقًا لساعة المحطة. بدا الرجل نافد الصبر؛ إذ راح يتجوَّل حوله في تململ. مررت بجواره وذهبت إلى كشك الكتب. وحين التفت مرة أخرى كان يقف على بُعد ياردات قليلة مني، ويسلِّم بيده على رجل آخر. ومن الطريقة التي كانا يُسلِّم بها أحدهما على الآخر استنتجت أنهما كانا صديقين مقرَّبين ربما لم يلتقيا منذ فترة طويلة.»

«أكانت تحيتهما لبعضهما حارة؟»

«أقول إنها كانت فياضة.»

«هل يمكنك أن تصف الرجل الآخر؟»

«يمكنني أن أصف انطباعًا عامًّا عن كلا الرجلين. كان الرجل الآخر طويلًا — أطول من هانافورد — لكنه لم يكن عريض الجسم مثله. وكان يرتدي معطفًا طويلًا فضفاضًا له حزام من الخلف؛ وكان لونه إما أزرقَ داكنًا أو أسودَ. وكان يرتدي أيضًا قبعة حريرية جديدة ولامعة. حين رأيته كان انطباعي عنه أنه رجل أنيق الملبس؛ إذ كان يرتدي حذاءً أنيقًا وجوربينِ وما إلى ذلك، وليس هذا سوى انطباع عام من نظرة سريعة. أما عن ملامحه، فلا يمكنني أن أذكر عنها شيئًا.»

سأله قاضي التحقيق: «ولمَ؟»

«في المقام الأول؛ لأن الرجل كان يرتدي نظارة كبيرة للغاية زرقاء اللون حجبت عينيه تمامًا، ثم إنَّ حلقه وذقنه كانا ملفوفين بكوفية بيضاء ثقيلة، وكانت تلك الكوفية تغطي الجزء السفلي من وجهه أيضًا. وبين حافة القبعة وياقة المعطف كان كلُّ ما أراه هو النظارة والكوفية!»

بدت على القاضي خيبةُ الأمل. وبدا أنَّ اهتمامه بالشاهد قد تبخَّر.

فسأله: «هل لاحظت أي شيء آخر؟»

«لم ألاحظ شيئًا سوى أن الوافد الجديد أخذ بذراع هانافورد وأنهما سارا باتجاه رَدهة الدخول الموجودة على الجانب الأيسر، ومن الواضح أنهما كانا يتحادثان محادثة جادة. كان هذا هو آخر عهدي بما رأيت منهما.»

قال قاضي التحقيق: «ثمة سؤال واحد فقط أريد أن أختتم به. أنت تقول بأنك واثق من أن الصورة التي رأيتها في الصحف هي صورة الرجل الذي رأيته في فيكتوريا. والآن، هل رأيت جثة المتوفَّى؟»

«رأيتها. لقد أخذتني الشرطة حين تطوَّعت للإدلاء بشهادتي.»

«وهل وجدت أن الجثة هي للرجل الذي رأيته؟»

«من دون أدنى شك! لا شك لديَّ في ذلك مطلقًا.»

بعد خمس دقائق أُرجئ التحقيق، واجتمع المعنيون بالأمر معًا في القاعة التي بدأت تفرغ ليناقشوا شهادة المتطوع بالشهادة. وقد بدا على ماذرفيلد شيء من التفاؤل والبهجة.

قال وهو يفرك يديه وكأنه على وشك أن يكتشف شيئًا: «هذا أفضل! أفضل بكثير. نحن نعرف الآن أن هانافورد التقى برجلين في تلك الليلة على أي حال. ومن الأسهل أن نبحث عن رجلين بدلًا من رجل واحد!»

بدت رونا، التي كان هيثرويك قد اصطحبها إلى جلسة التحقيق، مندهشة. فسألت قائلة: «كيف يمكن ذلك؟»

أجابها ماذرفيلد وهو يضحك: «السيد هيثرويك يفهمني. سيخبرك هو بذلك.»

لكن هيثرويك لم يقُل شيئًا. كان دائم التفكير في أمرِ تلك المرأة التي يحمل صورتها في جيبه.

الفصل الرابع

القلادة الماسية

في غضون الأيام القليلة التالية، ازدادت لدى هيثرويك قناعةٌ كبيرة بأنَّ قص هانافورد لصورة تلك المرأة الجميلة المميزة والاحتفاظ بها، ينطوي على أكثر مما يبدو من الأمر. راح هيثرويك يتذكَّر كلَّ ما قاله هانافورد عن تلك الصورة في القطار في غضون الدقائق القليلة التي سبقت وفاته المفاجئة. لماذا كان متحمسًا جدًّا لأن يُري تلك الصورة للرجل الآخر؟ أكان يصطحب الرجل الآخر للفندق خِصِّيصَى من أجل أن يُريَه تلك الصورة، وفي تلك الساعة من الليل؟ ولماذا أثارت فيه ذكريات امتلاكه لتلك الصورة الكثير من الاهتمام الواضح، والاستمتاع أيضًا مثلما بدا؟ وما هو تحديدًا معنى تلك الكلمات التي كُتبت بقلم رصاص على هامش الصورة المقصوصة؟ — من خلال يدي قبل عشر سنوات! — ما الظروف التي جمعت بين تلك المرأة وهانافورد؟ ومَن تلك المرأة؟ وكلما أطال هيثرويك التفكير في هذا الأمر، زادت قناعته بأن هذا الأمر يحمل أهمية أكبر من تلك التي توليها الشرطة إياه. لقد أثبتت الشرطة أنها لا تبالي نهائيًّا برواية هيثرويك عن المحادثة التي جرت في القطار؛ إذ قال ماذرفيلد باستعلاء المسئولين إنَّ تلك المحادثة لم تكن أكثر من ذكريات واجترار من جانب المفوَّض السابق، وقال إنَّ كبار السن من الرجال مولعون بالحديث عن أحداث الماضي. وكانت الأهمية الوحيدة التي يراها ماذرفيلد في هذا الأمر أن الرجل الذي اختفى من القطار كان على معرفة بهانافورد قبل عشر سنوات.

وبعد أن مرَّ أسبوع لم تكن الشرطة قد سمعت بأي شيء عن الرجل. ولم يتوصلوا أيضًا إلى أي معلومات بشأن الرجل الآخر الذي أقسم ليدبيتر إنه رآه مع هانافورد في محطة فيكتوريا. كان أفضل الرجال في سكوتلانديارد يعملون بكد وبلا كلل، ولم يتوصلوا إلى أي شيء. شخص واحد فقط كان قد رأى الرجل الأول بعد أن انطلق على دَرج محطة تشارينج كروس وهو يصيح بأنه سيذهب ليُحضِر طبيبًا؛ وكان هذا الشخص هو رجل

شرطة خلال عمله في مقدمة محطة القطار. كان الشرطي قد رأى الرجل وهو يخرج من المحطة جريًا بأقصى سرعته في شارع فيليرز، ولم يظن سوى أنه متأخر ويحاول اللَّحاق بآخر حافلة في شارع ستراند. وفيما عدا ذلك، اختفت جميع أخبار هذا الرجل وتلاشى كل أثر له. أما عن الرجل الذي كان يرتدي نظارة كبيرة وكوفية بيضاء فلم يوجد أيُّ أثر له على الإطلاق، ولا ورد عنه أيُّ خبر سوى ما جاء به ليدبيتر. لكن ليدبيتر كان شاهدًا يُعتدُّ بشهادته كثيرًا، ولم يكن هناك شك أنه رأى هانافورد بصحبة ذلك الرجل. ومِن ثَمَّ فلا شك أنَّ هانافورد التقى برجلين في غضون الساعات القليلة الأخيرة في حياته، وكلاهما مفقود لا يستطيع الوصول إليه أحد. وفي غضون أربع وعشرين ساعة من وفاة هانافورد، تطوَّع عدة رجال ممن تعاملوا مع هانافورد منذ وصوله إلى لندن للإدلاء بشهاداتهم. وثمة حقيقة واحدة واضحة بشأن المعلومات التي كانوا يدلون بها، وهي أن أحدًا منهم لم يعرف شيئًا عن الرجل الطويل الذي رآه ليدبيتر، أو عن الرجل الرثِّ الثياب الذي رآه هيثرويك، أو عن السر الذي كان هانافورد يحمله في الظرف المغلق معه. ذُكِرَت قصة ذلك الظرف المغلق كثيرًا في الصحف، لكن لم يكن أحد ممن أدلوا بشهاداتهم يعرف عنه شيئًا. وبعد مرور أسبوع على دفن جثة المفوَّض السابق، بدا أن لغز مقتله المؤكَّد سيُصبح واحدًا من تلك الألغاز الكثيرة التي لا تُحلَّ أبدًا.

بالرغم من ذلك، كان هيثرويك يزداد انهماكًا في ذلك الأمر الذي انخرط فيه كليًّا بشكل غريب. كان لديه شيء من وقت الفراغ؛ إذ كان ميسور الحال في متاع هذا العالم، ويهتم بالجانب النفسي لمهنته أكثر من اهتمامه برغبته في جني المال من مزاولتها. ومنذ اللحظة التي عرف فيها أن الأطباء وجدوا أن هانافورد مات مسمومًا، شعر هيثرويك بأن هذا لغز جريمة قتل ينبغي عليه أن يصل إلى قراره؛ إذ كان مأخوذًا بهذا اللغز. ومن خلال تخميناته ونظرياته عن الأمر، كان مهووسًا بالصورة الموجودة في حوزته. فمن كانت تلك المرأة؟ وماذا تذكَّر المتوفى بشأنها؟

وفجأة في صباح أحد الأيام، وبعد زيارة من ماذرفيلد الذي مرَّ عليه سريعًا في شقته ليخبره بأن الشرطة لم تتوصَّل إلى أي شيء، ارتدى هيثرويك قبَّعته وتوجَّه إلى شارع سُري. وجد رونا هانافورد مشغولة بالاستعداد للرحيل عن فندق مالتر؛ إذ كانت ستعيش مع السيدة كيلي فترة من الوقت على الأقل. فدخل هيثرويك مباشرةً في صلب الموضوع الذي جاء بشأنه.

قال هيثرويك: «صورة تلك المرأة التي كانت في جيب جدِّك وهي الآن في جيبي. من أي صحيفة قصَّها؟ من الوضح أنها مقصوصة من صحيفة.»

أجابته رونا: «أجل، لكنني لا أعرف أيُّ صحيفة هي. كلُّ ما أعرفه أنها صحيفة وصلت إليه عن طريق البريد في صباح اليوم الذي غادر فيه سيليثوايت. كنا على وشك التوجُّه إلى المحطة حين أتى رجل البريد. وضع جَدي الخطابات والأوراق — وقد كان هناك الكثير منها — في جيب معطفه وراح يفتحها في القطار. وفي مكانٍ ما في طريقنا إلى لندن قصَّ جَدي تلك الصورة. لكنه رمى الصحيفة بعد ذلك مع أشياء أُخرى. كان معتادًا على شراء الكثير من الصحف وقصِّ الفقرات منها.»

غمغم هيثرويك وهو يفكِّر بصوتٍ عالٍ: «حسنًا، أعتقد أن بإمكاننا أن نتتبَّعها.» ألقى بنظره على شواهد رحيل رونا. وقال: «إذن ستذهبين إلى العيش مع عمتكِ؟»

فأجابته: «أجل، لبعض الوقت.»

قال هيثرويك مقترحًا: «هلَّا تسمحين لي بالزيارة؟ فأنا مهتم بهذه المسألة أشدَّ الاهتمام، وربما أتمكَّن من إخبارك بشيء حيالها.»

ردت عليه رونا: «سيكون هذا من دواعي سرورنا. سأعطيك العنوان. لكنني لا أنوي البقاء عاطلة؛ ستجدني على الأرجح إذا زرتنا في المساء.»

سألها هيثرويك: «ما الذي تخططين للقيام به؟»

أجابته رونا: «أفكِّر في الالتحاق بأعمال السكرتارية. لقد تلقيت تدريبًا على ذلك بالفعل في سيليثوايت. يمكنني الكتابة على الآلة الكاتبة والقيام أعمال المراسلات والحسابات، وأتحدَّث الفرنسية والألمانية، أنا مؤهلة جيدًا لهذا العمل.»

فقال هيثرويك فجأة: «أرجو ألا تظنِّي أنني فضولي. لكن آمل أن جدَّك لم يَنسَك في وصيته؛ فقد سمعت بأنه ترك وصية له!»

أجابته رونا: «شكرًا لك، لكنه لم يَنسَني. لقد ترك لي كل شيء. سأحصل على ثلاثمائة جنيه في العام تقريبًا، أو ربما أكثر. لكن هذا ليس سببًا لأن أقعد عن العمل وألا أفعل شيئًا، أليس كذلك؟»

قال هيثرويك: «صحيح! لكن ماذا لو كان بإمكاننا إيجاد ذلك المظروف المختوم؟ فما كان يساوي مائة ألف جنيه لجدِّك سيساوي مائة ألف لوريثته الوحيدة. إنه جدير بالبحث عنه!»

ردَّت عليه رونا: «أتساءل إن كنا سنجد أي شيء؟ الأمر برُمَّته لغز غامض ولم أقترب حتى من حلِّه.»

قال هيثرويك: «الأمر يتطلَّب وقتًا! وصبرًا أيضًا!»

سرعان ما غادر هيثرويك ومشى حتى وصل إلى «بريك كورت»؛ حيث توجد شقة كينثوايت.

وسأله وهو يدخل عليه: «هل تفعل شيئًا؟»

فأجابه كينثوايت: «لا شيء. تفضَّل!»

جلس هيثرويك، وأشعل غليونه.

سأله بعد أن انتهى من إشعال التبغ: «أنت تعرف سيليثوايت، صحيح؟ إنها مدينتك، أليس كذلك؟»

أجابه كينثوايت: «وُلدت وترعرعت هناك، وخطيبتي أيضًا منها. ماذا عن سيليثوايت؟»

سأله هيثرويك: «هل كنت هناك قبل عشر سنوات؟»

«قبل عشر سنوات؟ لا، في أيام العطلات فحسب. كنت في المدرسة قبل عشر سنوات. لماذا؟»

«أتذْكر قضية للشرطة في سيليثوايت في تلك الفترة تتعلَّق بامرأة جميلة — كمدعًى عليها على الأرجح؟»

«لا! لكنني في ذلك الحين كنت مهتمًّا بلعبة الكريكيت أكثر من اهتمامي بعالم الجريمة. هل تفكِّر في المرأة التي تحدَّث عنها هانافورد في القطار إلى ذلك الرجل الذي لا يستطيعون إيجاده؟»

«هذا صحيح! يبدو لي أن هذا الأمر يحمل أكثر مما تعتقد الشرطة.»

«لا عجب في ذلك. لننظر في الأمر: بأي صفة تحدث هانافورد عن تلك المرأة؟»

«قال إن أمرها تمَّ على يده، قبل عشر سنوات.»

«حسنًا، هذا أمر سهل! إن كان أمرها قد تمَّ على يد هانافورد، بصفته مفوَّض الشرطة، قبل عشر سنوات، فسيكون ذلك في سيليثوايت. ستوجد هناك سجلات وتفاصيل وما إلى ذلك في سيليثوايت.»

أومأ هيثرويك، وراح يدخِّن غليونه في صمت لبرهة.

وأخيرًا قال: «أظنُّ أن عليَّ الذهاب إلى هناك.»

فحملق به كينثوايت في تعجُّب.

وصاح قائلًا: «أنت مهتم بالأمر لهذه الدرجة!»

قال هيثرويك: «هذه قضية غريبة! أريد أن أحلَّها.»

علَّق كينثوايت قائلًا: «حسنًا، إنها تبعُد مسافة أربع ساعات من محطة «كينجز كروس». وهي مدينة مثيرة أيضًا. فهي قديمة بعمر التلال فيها، لكنها حديثة أيضًا بمثل

حداثة المدن الجديدة. وبها فندق ممتاز اسمه «وايت بير». أخي المستقبلي أيضًا يعمل محاميًا هناك، واسمه مايكل هوليس. سأعطيك خطاب تقديم له، وسيصحبك هو حول المدينة ويقدِّم لك العون اللازم.»

قال هيثرويك: «شكرًا لك! اكتبه لي!»

جلس كينثوايت وراح يكتب، وقدَّم إليه ما كتب.

سأل كينثوايت بينما كان هيثرويك يشكره ويهم بالرحيل: «ماذا تريد أن تعرف بالتحديد؟»

أجابه هيثرويك: «كلَّ ما يتعلق بتلك المرأة، والسبب الذي دفع هانافورد إلى قصِّ صورتها من الجريدة. حسنًا، أراك حين أعود.»

ذهب إلى شقته، وحزم حقيبته، وذهب بالسيارة إلى محطة كينجز كروس ليلحق بقطار الظهيرة المبكِّر إلى الشمال. وفي تمام الساعة السابعة والنصف وجد هيثرويك نفسه في سيليثوايت: مدينة رمادية هواؤها محمَّل بالدخان وتقع وسط تلال قاتمة وعرة، ويتحدَّث أهلها — قياسًا على موظَّفِي السكة الحديدية فيها — بلهجةٍ بدت لأذن هيثرويك الجنوبية وكأنها لغة بربرية. لكن فندق «وايت بير» الذي سرعان ما نزل فيه بعد وصوله، كان يحتوي على كل وسائل الراحة والرفاهية التي يقدِّمها فندق من الطراز الأول؛ فغرفة الطعام التي توجَّه إليها هيثرويك حالما أتم حجزه للغرفة ضمَّت حشدًا من غير المحليين، وسمع معظم اللغات الأوروبية الرئيسة في حديث الحاضرين هناك، ثم عرف هيثرويك لاحقًا أن النزلاء الآخرين كانوا رجال أعمال أوروبيين ومشترين عازمين على سد النقص في المخزون المستنفد من المستودعات والمصانع الكبرى لسيليثوايت. كان ذلك كله مثيرًا للاهتمام، لكنه لم يكن ينوي أن يقضي بقية المساء في تأمُّل ذلك من ركن منعزل؛ ذلك أنه لم يكد ينتهي من تناول طعام العشاء حتى أتاه حمَّال من الفندق ليخبره أن السيد هوليس يسأل عنه.

أسرع هيثرويك إلى قاعة الانتظار ووجد رجلًا ودودَ الوجه متقدَ العينين في الأربعين من عمره تقريبًا، يمد يده ليسلِّم عليه.

وقال: «أرسل لي كينثوايت برقيةً ظُهْر اليوم يخبرني فيها بأنك قادم، وطلب مني أن آتيك هنا. كنت لأطلب منك أن تتناول طعام العشاء معي لكنني ظللت في مكتبي حتى الآن، كما أنني أعيش في مكانٍ يبعد عن المدينة عدة أميال. لكن مساء الغد …»

أجابه هيثرويك: «هذا كرم بالغ منك. لم يكن لديَّ أدنى فكرة أن كينثوايت أرسل برقيَّة إليك. لقد أعطاني خطاب تقديم لأقدِّمه لك، لكنني أعتقد أنه ظنَّ أنني لا أريد

تضييع أي وقت. والحق أني لا أريد ذلك بالفعل، وأنا أعتقد أنك تستطيع أن تخبرني بشيء عن موضوع زيارتي؛ فلنجد ركنًا لندخِّن فيه.»

جلس الرجلان في ركن بحجرة التدخين الكبيرة، وراح هوليس يقرأ خطاب كينثوايت.

وسأله: «ما الذي تبحث عنه؟ يذكر كينثوايت أن معرفتي بسيليثوايت أكبر من معرفته بها، وهذا طبيعي إذ إنني أكبر منه ببضع سنوات.»

أجاب هيثرويك: «حسنًا، سأقص عليك الأمر باقتضاب. أنت تعرف بالطبع ما حدث في لندن لمفوَّض الشرطة الراحل؛ أعني وفاته المفاجئة؟»

فأجاب هوليس مؤكِّدًا: «أجل، أجل؛ قرأت كل الصحف على أي حال. أنت الرجل الذي كان موجودًا في القطار، أليس كذلك؟»

«بلى. وهذا هو سبب حرصي على حل هذا اللغز. ليس هناك أدنى شك في أن هانافورد مات مسمومًا، وأنها قضية قتل عمد. والآن، ثمة جانب من القصة لا يبدو أنَّ الشرطة توليه أيَّ اهتمام. أما أنا فأوليه اهتمامًا كبيرًا. إنها مسألة المرأة التي أشار إليها هانافورد حين كان يتحدث — في حضوري — إلى الرجل الذي اختفى بطريقة غامضة للغاية. ذكر هانافورد عن تلك المرأة أنها كانت بين يديه قبل عشر سنوات. قد يكون ذلك أمرًا حدث له هنا، في هذه المدينة. فهل تعرف أيَّ شيء عنها؟ هل تذكِّرك بأي شيء؟»

كان هوليس يدخِّن السيجار، ونقر به على حافة فنجان القهوة لينفض رماده، بينما هو غارق في التفكير. وفجأة لمعت عيناه.

وقال: «تلك قضية ويتينجهام على الأرجح. كانت قبل عشر سنوات.»

فسأل هيثرويك: «وما قضية ويتينجهام؟ أهي قضية بشأن امرأة؟»

أجاب هوليس: «هي عن امرأة من الجلي أنها مغامِرة أتت إلى سيليثوايت قبل عشر سنوات، وظلَّت بها بعض الوقت، في هذ الفندق بالتحديد. ومن الغريب في الأمر أنني لم أرَها قط! لكن صيتها ذاع كثيرًا في نهاية المطاف. أتت تلك المرأة هنا، إلى فندق «وايت بير»، وحيدة وكان معها الكثير من الأمتعة والأموال. أعرف أنها كانت امرأة بارعة الجمال، تبلغ الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمرها، وكان الجميع يرى أنها ذات شأن ومكانة. أعتقد أنها كانت تقدِّم نفسها بلقب معالي السيدة ويتينجهام. كانت تدفع فواتيرها هنا في موعدها من دون أدنى تأخير في صباح كل يوم سبت. وقد أنفقت مبلغًا كبيرًا من المال بين كبار التجار في المدينة، وكانت دائمًا ما تدفع الأموال نقدًا. موجز الأمر أنَّ تلك المرأة رسَّخت لحظوتها وشأنها بصورة ناجحة للغاية. ولم يكن هناك أحد يتمتع بنفس

الشأن الذي تتمتع هي به سوى الصائغ الوحيد هنا، واسمه مالاديل. ابتاعت تلك المرأة من مالاديل مجوهرات كثيرة، لكنها كانت تدفع له دائمًا بالشيكات. وفي النهاية وقعت في مشكلة بسبب صفقة عقدتها معه.»

فقال هيثرويك مقترحًا: «ثم في يد هانافورد!»

قال هوليس موافقًا: «ثم في يد هانافورد بكل تأكيد. لقد سرى الأمر بهذه الطريقة. كما أخبرتك الآن، كانت المرأة قد اشترت الكثير من مالاديل الذي يمكن القول إنه كان يتمتَّع بتجارة رائجة بين أقطاب التجَّار الأثرياء في هذه الأرجاء. لم تكن تعاملاتها معه في البداية تتخطى مبلغ مائة جنيه أو مائتين. لكن الأمر كان يسير بينهما على ما يُرام. وكانت قد اعتادت أن تدفع له بشيكات من بنك في مانشستر، التي لا تبعد عن هنا، كما تعلم، سوى خمسة وثلاثين ميلًا. ولما كانت شيكاتها الأولى مستوفاة على الدوام، فإن مالاديل لم يعبأ بأن يستفسر عن استقرار حالتها المادية؛ إذ كان شديد الإعجاب بها مثل الجميع. وفي نهاية المطاف، عقدت المرأة مع مالاديل صفقة كبيرة؛ إذ كانت لديه قلادة ماسية رائعة يعدُّها للبيع. وقد تناقشا بشأن حصولها عليها، ووفقًا لروايته فقد خاضا نقاشًا دقيقًا حول شروط البيع. وتوصَّلا في النهاية إلى اتفاق مفادُه أن تحصل المرأة على القلادة مقابل ثلاثة آلاف وتسعمائة جنيه. وقد أعطته شيكًا بذلك المبلغ في وقتها، وباع لها مالاديل القلادة.»

قال هيثرويك متعجبًا: «حسنًا!»

أقرَّ هوليس قائلًا: «هذا صحيح! لقد فعل. لكن، لسبب أو لآخر، قام مالاديل بتخليص ذلك الشيك خِصِّصَى. كانت المرأة قد سلَّمته الشيك ظهرًا في أحد أيام الإثنين، وكان أول ما وجد في صباح يوم الأربعاء هو أن ذلك الشيك قد رُدَّ مع عبارة منقوشة على سطحه تفيد بإحالته المشئومة إلى الساحب! أسرع مالاديل بالطبع إلى فندق «وايت بير» لكن معالي السيدة ويتينجهام كانت قد اختفت. دفعت حسابها، وأخذت مقتنياتها وغادرت الفندق والمدينة في وقتٍ متأخر من مساء يوم الإثنين، وكلُّ ما عُرف عنها في المحطة أنها سافرت على متن القطار الأخير إلى ليدز، حيث توجد بالطبع عدة خطوط قطار كبيرة ورئيسية تؤدي إلى كل أجزاء إنجلترا. لم تترك السيدة أي عنوان، لكنها أخبرت الناس هنا أن غيابها لن يطول، كما أخبرتهم بأن يحتفظوا بأي خطاب يصلها حتى عودتها. لذا، ذهب مالاديل بعدها إلى الشرطة، وتولَّى هانافورد الأمر.»

أشار هيثرويك قائلًا: «أفهم من ذلك أنه تتبَّعها؟»

فراح هوليس يضحك بطريقة ساخرة.

وأجابه: «لقد تتبَّعها هانافورد، ووصل إليها. بالرغم من ذلك، يجدر به أن يستخدم ذلك المصطلح الذي ذكرته لتوك. لقد انسلَّت بالفعل من بين يديه، مثلما ينسل ثعبان البحر الزلق، وهربت منه.»

الفصل الخامس

عودة الشرطة

بدأ هيثرويك يصل الآن إلى شيءٍ هو أشبه بإدراك للأمر الذي أثار حيرته حتى الآن ومنذ أن سمع الحديث الذي دار بين هانافورد ورفيقه في القطار. لاحظ هيثرويك حينها أن الأمرَ الذي كان يقصُّه هانافورد أيًّا كان هو، فإنه كان يقصُّه كرجل يُخبِر بقصة ليست في صالحه؛ إذ كانت توجد إشارات على الكدر والخيبة في أسلوبه. وقد أدرك هيثرويك الآن سبب ذلك.

فقال متعجبًا: «آه! كانت المرأة تفوقه براعة ودهاءً. ثم ماذا بعد؟»

ضحك هوليس وقال: «تفوقه في ذلك بكثير! لقد تغلَّبت عليه تمامًا. كان يسعى بجِدٍّ من أجل أن يجدها، وقد أدَّى الكثير من الأعمال الروتينية والشاقة بنفسه. وأخيرًا عثر عليها في فندقٍ فاخر في لندن. كان معه رجل من سكوتلاند يارد ومحقِّق من مكتب الشرطة هنا، وهو رجل يُدعى جاندام ولا يزال يعمل في الشرطة، سأقدِّمك إليه غدًا. ولما وجد هانافورد أن السيدة ويتينجهام تقطن في جناح من ذلك الفندق، وهو مكان كبير وفخم في الطرف الغربي من المدينة، ترك الرجلين اللذين كانا معه في الأسفل أو في الخارج وصعد ليلقاها وحدَه. وطبقًا لروايته هو، كانت المرأة غاضبة جدًّا من أي شكٍّ يحوم حولها، والأكثر من ذلك أنها احتدت عليه وهي في أشد حالات الحَنَق حين أخبرها أن معه مذكِّرة للقبض عليها، وأن عليها أن تذهب معه. وخلال فترة قصيرة من تجاذب الحديث صرَّحت المرأة بأن المصرفيين في مانشستر إذا كانوا قد ردُّوا الشيك الخاص بها من دون استحقاقه فإن ذلك يعود ولا بد إلى أنهم لم يعرفوا بالضمانات القيِّمة التي أرسلتها لهم، وأنَّ مالاديل لو قدَّم الشيك بعد بضعة أيام فإن الأمور كانت لتسير على ما يُرام. كان كل ذلك هراءً! فقد تواصل هانافورد مع الرجال المصرفيين بالطبع، وكلُّ ما كانوا يعرفونه عن السيدة أنها فتحت حسابًا معهم فيما كانت تمكث في أحد الفنادق في مانشستر،

وأنها سحبت كل رصيدها عدا بضعة جنيهات، وذلك في اليوم نفسه الذي حصلت فيه على القلادة من مالاديل وهربت بها من سيليثوايت. لم يخبرها هانافورد شيئًا من ذلك بطبيعة الحال، ولم يكن منه سوى أن كرَّر طلبه بأن عليها أن تذهب معه. ووافقت هي على الفور، ولم تشترط سوى ألا تكون هناك جلبة، وأنها ستخرج معه من الفندق ويمكنه هو وأتباعه أن يعودوا ويفتِّشوا مقتنياتها كما يحلو لهم. بعد ذلك قام هانافورد — الذي كان بيني وبينك يا هيثرويك، يُعجَب بالسيدات الجميلات — بارتكاب غلطته. كانت غرفة نومها تُفتَح على غرفة الجلوس التي التقى بها فيها؛ وكان مغفَّلًا بما يكفي لأن يدعها تدخل غرفةَ نومها وحدها كي تستعد للذَّهاب معه. دخلت المرأة الغرفة، وكان ذلك آخر عهد هانافورد بها!»

علَّق هيثرويك قائلًا: «هربت مسرعة، أليس كذلك؟»

أكَّد هوليس: «لا بد أنها اختفت في الحال. كان هناك باب يُفتح من الحجرة ويؤدي إلى ممرٍّ؛ فلا بد أنها أخذت معطفها وقبعتها وخرجت بسرعة تاركةً خلفها كل شيء لها هناك. على أي حال، حين سئم هانافورد الانتظارَ وطرق على باب الحجرة ونظر فيها، طار عقله. تلى ذلك بالطبع شنٌّ حملة رسمية لمطاردتها، مع ما يلزم لذلك من الإشهار. لكنها كانت قد ابتعدت على الأرجح من خلال باب جانبي أو ما شابه، وعلى الرغم من أن هانافورد راح يمشِّط لندن بحثًا عنها — وذلك طبقًا لروايته — فإنه لم يعثر عليها قط. لقد اختفت!»

سأله هيثرويك: «وماذا عن القلادة؟»

أجابه هوليس: «اختفت تلك أيضًا. راحوا يبحثون في أمتعتها وأشيائها، لكنهم لم يجدوا شيئًا سوى الملابس. حملت معها كلَّ ما كان في طريقها من مال وأشياء ثمينة. وهكذا عاد هانافورد إلى البلدة مكتئبًا بصورة كبيرة، وكان عليه أن يتحمَّل الكثير من المزاح. وإذا كان قد وجد صورة تلك المرأة في جريدة حديثة؛ فلا عجب أنه قصَّها! أعتقد أنه كان سيطلق سكوتلاند يارد في إثرها! ذلك أنه لا توجد مهلة زمنية للملاحقات الجنائية.»

علَّق هيثرويك قائلًا وهو يُخرِج الصورة من جيبه: «هذه هي الصورة التي قصَّها. لكنك تقول إنك لم ترَها من قبلُ على الإطلاق؟»

أكَّد هوليس قائلًا وهو يتفحَّص الصورة في فضول واهتمام: «لا، لم أرَها قط.» ثم أضاف: «لذا لا يمكنني أن أتعرَّف عليها بالطبع. امرأة جميلة! لكن قابِلْني في مكتبي غدًا في العاشرة صباحًا وسأصحبك إلى قسم الشرطة. سيعرف جاندام بخصوص هذا الأمر!»

راح جاندام، وهو رجل متقدِّم في العمر يبدو عليه الغموض ويتمتَّع بعينين يقظتين، يضحك متهكِّمًا حين شرح هوليس سبب زيارة هيثرويك. وضحك مرة أخرى حين أراه هيثرويك الصورة.

وقال: «آه، أجل، هذه هي المرأة! وهي لم تتغيَّر كثيرًا أيضًا! يا للعجب، كانت امرأة ذكيَّة يا سيد هوليس! كثيرًا ما أضحك حين أتذكَّر ما فعلته بهانافورد! لكنَّ الحق أنَّ هانافورد كان رجلًا رقيق القلب. وفي مثل تلك الأمور الصغيرة، كان دائمًا ما يفضِّل الحفاظ على مشاعر الآخرين. وكل ذلك لا بأس به، لكنه دفع ضريبة محاولته الحفاظ على مشاعرها! أجل، تلك هي المرأة! ثم إنَّ لدينا صورة لها هنا.»

قال هيثرويك متعجِّبًا: «حقًّا؟ أرغب في رؤيتها من فضلك.»

ردَّ عليه المحقِّق: «لك ذلك بكل سرور يا سيدي. أطِل النظر فيها كيفما شئت.» والتفت إلى مكتبٍ بالجوار وأخرج منه دفترًا كبيرًا للصور وتحت كل صورة فيه ملاحظات مكتوبة. وأردف قائلًا: «إنها ليست خاصة بالشرطة بالمعنى الدقيق للعبارة. فنحن لم نلتقط تلك الصورة بأنفسنا كما تعلم؛ إذ لم يتسنَّ لنا ذلك قط! كلا! لكن حين كانت تلك السيدة تمكث في فندق «وايت بير» التقط المصوِّر وينترينج الموجود في شارع سيلفر ستريت صورة لها، وكان وينترينج راضيًا للغاية عنها حتى إنه وضعها على نافذته. لذا حين اختفت ومعها قلادة مالاديل، حصلنا على واحدة من تلك الصور وأضفناها إلى مجموعتنا الصغيرة. ها هي ذي! ولن تلاحظ اختلافًا كبيرًا بينها وبين الصورة التي في يدك يا سيدي.»

كان الاختلاف بين الصورتين طفيفًا للغاية بالفعل، وأقرَّ هيثرويك بذلك. بعد ذلك بفترة قصيرة غادر قسم الشرطة وهو يفكِّر أكثرَ من ذي قبل في تلك المرأة التي كان مشغولًا بشأن مغامراتها في الماضي.

علَّق هوليس وهما يسيران: «ربما يمكننا أيضًا أن نسبر أغوار الأمر أكثر ونحن هنا. لِنذهب لرؤية مالاديل؛ فمتجره عند تلك الزاوية. غير أنه لا يستطيع إخبارك بأكثر مما أخبرتك به بالفعل.»

لكن مالاديل أثبت أن بإمكانه أن يخبرَ بالمزيد. كان مالاديل رجلًا عجوزًا رزينًا يمتلك منشأةً ذُهِل هيثرويك من أن يجد مثلها خارج لندن؛ إذ لم يكن معتادًا ثراءَ المدن الإقليمية القائمة على التصنيع، وأرشد الرجل زوَّاره إلى حجرة خاصة واستمع إلى أسباب زيارتهم له. وبعد تفحيص وتدقيق بالغ في الصورة التي قدَّمها له هيثرويك، أعادها الرجل بإيماءة تنم عن الثقة.

وقال: «ليس هناك أدنى شك بالنسبة إليَّ أن تلك النسخة لصورة المرأة التي عرفتها باسم معالي السيدة ويتينجهام. وإذا كانت قد أُخِذت لها حديثًا، فهي لم تتغير إلا قليلًا على مدى تلك السنوات العشر التي انقضت منذ كانت هنا في هذه المدينة.»

ضحك هوليس قائلًا: «ألن تُسرَّ لرؤيتها مرة أخرى بلحمها ودمها يا سيد مالاديل؟»

هزَّ الصائغ رأسه نافيًا.

وأجاب: «لا أظنُّ ذلك. لا، لا أعتقد ذلك يا سيد هوليس. تلك واقعة أخرجتها من تفكيري، حتى ذكَّرتماني بها.»

قال هوليس مقترحًا: «لكن، ماذا عن خسارتك؟ إنها تقترب من أربعة آلاف جنيه، أليس كذلك؟»

رفع مالاديل إحدى يديه البيضاوين إلى لحيته الرمادية وسعل. كان سعالًا ينم عن التكتُّم والموثوقية والسريَّة. ضحك من خلف شاربه، وبدت عيناه تطرفان من خلف النظارة.

ثم قال: «أعتقد أن بإمكاني أن أفشي سرًّا صغيرًا في حضرة اثنين من الرجال العالِمين بالقانون. أظنُّ أنني سأكشف عن سرٍّ صغير إلى وكيل قضائي أعرفه معرفة جيدة وإلى محامٍ قدَّمه لي ذلك الوكيل، على أن يظل هذا السر فيما بيننا دون أن يخرج عن ذلك. حقيقة هذا الأمر أيها السيدان أنني لم أكن خاسرًا!»

صاح هوليس متعجبًا: «ماذا؟ لم تكن خاسرًا؟»

أجابه الصائغ: «في نهاية المطاف. في نهاية المطاف! ولكي أخبركم بالحقيقة واضحة، لقد حصلت على ربح لي، وربما يزيد.»

بدت أمارات الدهشة والذهول على هوليس.

وسأل قائلًا: «أتعني أنك حصلت على أموالك في نهاية المطاف؟»

قال مالاديل: «بالضبط! في نهاية المطاف، بعد فترة زمنية كبيرة، حصلت على أموالي. سأخبركم بالملابسات. أعتقد أن الجميع يعرف أنني بعت القلادة الماسية للسيدة ويتينجهام بمبلغ ثلاثة آلاف وتسعمائة جنيه، وأن الشيك الذي أعطتني إياه قد رُفِض وأنها هربت بالقلادة ولم يُعرف عنها شيء بعد هروبها من هانافورد. حسنًا، قبل عامين؛ أي بعد ثماني سنوات من اختفائها، تلقيت ذات يوم خطابًا يحمل ختم بريد نيويورك. كان يحتوي على ورقة مكتوبٍ عليها بضع كلمات وبضعة أرقام. هذه الورقة لديَّ هنا، وسأريكما إياها.»

توجَّه إلى خزنة في زاوية من الحجرة، وبعد شيء من البحث، أخرج الصائغ ورقةً ووضعها أمام زائريه. راح هيثرويك يتفحَّصها في فضول. لم يكن عليها اسم ولا عنوان ولا تاريخ؛ كلُّ ما كان عليها — كما قال مالاديل — هو بضع كلمات وبضعة أرقام مطبوعة:

المبلغ الأساسي	٣,٩٠٠ جنيه إسترليني
فائدة ثماني سنوات مضروبة في ٥٪	١,٥٦٠
	٥,٤٦٠ جنيهًا إسترلينيًّا

مرفق طيه حوالة مصرفية بقيمة ٥,٤٦٠ جنيهًا إسترلينيًّا،
يُرجى الإفادة بالتسلُّم بتوقيت لندن.

وأكمل مالاديل يقول: «وكان مرفق طيِّه — كما هو مذكور — حوالة على مصرف في لندن بالمبلغ المحدَّد، ٥,٤٦٠ جنيهًا إسترلينيًّا! ربما تصدِّق بسهولة أنني لم أفهم ذلك في البداية؛ فلم أكن أعرف أحدًا في نيويورك يَدين لي بالمال. لكن المبلغ الأول: ٣,٩٠٠ جنيه إسترليني، سلَّط الضوء على الأمر، وفجأة تذكَّرت السيدة ويتينجهام وقلادتي المفقودة. بعد ذلك فهمت الأمر على حقيقته: من الواضح أن السيدة ويتينجهام أصبحت ميسورة الحال وثرية، وكانت أمينة بما يكفي لكي تكفِّر عن خطئها؛ إذ وجدت المبلغ الأساسي مضافًا إليه فائدة ثماني سنوات. غير أنني شعرت بالريبة تجاه أخذ المال؛ إذ لم أكن أعرف ما إن كنت أتواطأ على جريمة؟ لا شك أنكما أيها السيدان ستقدِّرانِ حيرتي الصغيرة، أليس كذلك؟»

علَّق هوليستر بنبرة محايدة: «هممم! الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو: ماذا فعلت؟» وأضاف مبتسمًا: «رغم أنني أعتقد أننا نعرف بالفعل.»

فأجابه الصائغ: «حسنًا، ذهبت لرؤية هانافورد وأخبرته بالخطاب الذي تلقيته. وأخبرني هانافورد بما توقَّعت أنه سيخبرني به تحديدًا. إذ قال: «خُذ المال يا مالاديل ولا تذكر شيئًا عن الأمر!» وكان ذلك هو ما فعلت!»

علَّق هوليس قائلًا: «كان كلاكما موقنًا بأن السيدة ويتينجهام لن تظهر في سيليثوايت مرة أخرى أبدًا. يا له من أمر مثير يا سيد مالاديل. لكنني أرى أنه سواء أجاءت إلى سيليثوايت مرة أخرى أم لن تأتي أبدًا، فإن السيدة ويتينجهام — أو أيًّا كان اسمها الآن — موجودة في إنجلترا الآن.»

سأله الصائغ: «أتظنُّ ذلك؟»

قال هوليس: «لقد ظهرت صورتها مؤخَّرًا في جريدة إنجليزية على أي حال.»

فقال مالاديل: «لكن صور السيدات الأمريكيات المشهورات تظهر في الصحف الإنجليزية. وأنا أذكر من ذلك عدة سيدات. أظن الآن أن السيدة ويتينجهام التي كانت امرأة في غاية الجمال والجاذبية، عبرت المحيط الأطلنطي في نهاية المطاف وتزوجت من مليونير أمريكي! هذا هو ما ظننته. وكثيرًا ما كنت أتساءل عما قد تكون الآن.»

قال هيثرويك: «هذا هو ما أريد أن أعرفه بالتحديد. ثمة أمرٌ واحد أكيد، وهو أن هانافورد كان يعلم! لو كان حيًّا لأخبرنا. لأن الجريدة التي ظهرت فيها تلك الصورة أيًّا كانت، كانت تحتوي على خبرٍ عنها، وهذا الخبر يحوي اسمها وسبب ظهورها في الجريدة.»

فعلَّق هوليس: «يمكنك تتبُّع ذلك.»

قال هيثرويك موافقًا: «هذا صحيح، يجدر بي أيضًا أن أعود إلى المدينة وأبدأ في العمل.» وأضاف ملتفتًا إلى الصائغ: «لكنني أظن أن المرأة هنا في إنجلترا كما يظن السيد هوليس، وأظن أنَّ هانافورد ربما كان يعرف مكانها أيضًا. ولا أعتقد أنه من المستحيل أن يكون قد تواصل معها في الفترة بين قصِّه لصورتها من الجريدة ووفاته المفاجئة.»

فسأله السيد مالاديل: «أتظن أنه قد يكون لها علاقة بمقتله بطريقةٍ ما؛ أعني إن كان قد قُتِل؟»

أجابه هيثرويك: «أعتقد أنَّ ذلك ممكن. فثمة جوانب غريبة في هذه القضية. وأحد أغربها هو الآتي. ما السبب في أنَّ هانافورد حين قصَّ تلك الصورة لغرضٍ شخصي دون نية في أن يريها لأحد آخر كما هو واضح، قد قصَّها من دون الاسم والخبر الذي كان تحت الصورة وفوقها؟»

قال هوليس: «هذا أمرٌ غريب بالطبع! لكنك تستطيع التأكد من ذلك الاسم قريبًا. كلُّ ما عليك فعله هو الحصول على نسخة أخرى من الجريدة.»

فرد هيثرويك: «من سوء الحظ أنَّ حفيدة هانافورد لا تعرف أيَّ جريدة كانت على وجه التحديد. فكلُّ ما تتذكره عنها أنها كانت جريدة محلية أُرسلت إلى هانافورد عن طريق البريد، في صباح اليوم الذي غادر فيه إلى لندن.»

قال هوليس: «لكن لا يزال بالإمكان تتبُّعها. فقد كانت الصورة في إحدى الجرائد وستوجد نسخ أخرى منها.»

بعد ذلك غادر هوليس وهيثرويك متجر الصائغ. وفي الخارج، سار هوليس برفيقه عبر الشارع واستدار فدلف إلى زقاق ضيِّق.

وقال ضاحكًا: «سأريك رجلًا سيتذكَّر السيدة ويتينجهام أفضل من أيِّ شخص في سيليثوايت. أفضل من مالاديل حتى. ألم أخبرك أنها كانت تمكث في فندق «وايت بير» بينما كانت هنا؟ لقد تغيَّر طاقم العاملين في ذلك النُّزل المرموق، من المدير وحتى الخدم، ولا أظن أن هناك أحدًا أيًّا كان رجلًا أو امرأة ممَّن كانوا في الفندق قبل عشر سنوات. لكن ثمة رجل في نهاية هذا الزقاق كان يعمل فيما مضى حارسًا للقاعة في فندق «وايت بير» ويُدعى آمبليت هادسون، وهو يدير الآن حانة صغيرة لطيفة في هذه الأرجاء، وسوف نذهب إليه. إنه شخص مثير للاهتمام، وإنه لجدير بالإنصات إليه إذا تكلم.»

الفصل السادس

عيناتٌ من الحبر

تقدَّم هوليس الطريق على طول الزقاق، بين جدرانٍ عالية مصمتة لا نوافذ فيها، واستدار فجأة نحو فناء صغير، ثم توقَّف أمام باب غائر في أحد جوانب منزل قديم ذي هيكل خشبي.

أدار رأسه قليلًا وقال: «يا له من مكانٍ غريب! لكن كأس نبيذ البورت أو الشيري التي ستحصل عليها هنا، تضاهي في جودتها ما يمكن أن تحصل عليه في أي مكان آخر في إنجلترا؛ فذلك الرجل يفهم زبائنه! هيا لندخل.»

وتقدَّم إلى مكان لم يرَ هيثرويك مثيلًا له من قبل؛ إذ كانت الحجرة دافئة وتبعث على الراحة ومكسوة بألواح وعوارض من خشب البلوط العتيق، وبها نار وهَّاجة تستعر في مدفأة مفتوحة بينما يتراقص وميض ألسنة لهبها على النحاس العتيق والقصدير الذي كان يُزيِّن حوائطها. وعند أحد جوانب الحجرة كانت توجد مِنضدة مشرب يقف خلفَها رجلٌ متقد العينين يرتدي قميصًا بكمَّين وقد برز سيجار من زاوية شفتيه الحليقتين الرطبتين، بينما كان منهمكًا في تلميع كئوس النبيذ.

وقال بنبرة ودودة: «صباح الخير أيها السيدان! إنه صباح لطيف يا سيد هوليس بالنسبة إلى هذا الوقت من العام. ماذا يمكنني أن أقدِّم لك ولصديقك يا سيدي؟»

جال هوليس بعينه حول الحجرة، التي كانت خاوية إلا منهم. وسحب كرسيًّا طويلًا إلى جوار المشرب وطلب من هيثرويك أن يتبعه في فعل ذلك.

ثم أجاب قائلًا: «أظن أننا سنتناول شراب الشيري الجاف والرائع لديك يا هادسون. هذا إن كان لا يزال بنفس الجودة التي تذوقته بها آخر مرة.»

فأجاب ساقي الحانة: «دائمًا ما سيكون على المستوى اللائق يا سيد هوليس، دائمًا ما سيكون على المستوى اللائق يا سيدي! ليس لديَّ هنا مشروبات بمواصفات أقلَّ، ولا

بدائل؛ فأنا لا أستغل سمعة الماضي في هذا المكان أيها السادة! إن كأس الشيري الجاف هنا يا سيدي سيكون بنفس الجودة التي ستحصل عليه بها في منشئه، وأعتقد أنك لا تستطيع قول ذلك عن معظم الأماكن في إنجلترا. كل شيء هنا من أفضل الأنواع يا سيد هوليس، كما تعلم!»

ردَّ عليه هوليس بابتسامة خفيفة مازحة، ثم مال عليه فجأة من فوق المشرب.

وقال سرًّا: «يا هادسون! صديقي هنا لديه شيء يريد أن يريك إياه.» وأكمل بينما كان هيثرويك يُخرِج الصورة من جيبه استجابةً لحديثه: «والآن، هذه الصورة، هل تتعرَّف على مَن فيها؟»

وضع ساقي الحانة النظارة وأدار الصورة نحو الضوء وراح يتحقَّق منها عن كثب. أطبق شفتيه بعضهما على بعض، ثم أرخاهما في ابتسامة ساخرة.

وقال بشيء من اللامبالاة: «أجل! إنها تلك المرأة التي خدعت مالاديل في قلادته الماسية. بالطبع! السيدة ويتينجهام!»

سأله هوليس: «أكنت لتتعرف عليها مرة أخرى لو التقيت بها، أعني الآن؟»

أمسك ساقي الحانة بإحدى الكئوس وراح يلمِّعها بنشاط.

وقال في اقتضاب: «أجل! وسأعرفها بشيء آخر غير وجهها!»

حينها دخل رجلان، فذهب هادسون ليلبي لهما طلبهما. وسرعان ما حمل الرجلان كأسَيهما وتوجَّها نحو زاوية دافئة بجوار النار، ثم عاد هادسون مرة أخرى إلى هوليس وهيثرويك.

قال بثقة: «أجل! إن كان هناك حاجة لذلك، فيمكنني أن أتعرَّف على تلك السيدة من خلال شيء آخر غير وجهها، على الرغم من مدى جماله! كنت أقول لهانافورد حين كان مشغولًا بالبحث عنها إن بإمكاني أن أتعرَّف عليها إن لم يستطِع أحد آخر التعرُّف عليها ووجد هو صعوبة في التيقن من هويتها. فقد رأيت الكثير منها حين كانت تمكث في فندق «وايت بير». ثم إنني أعرف شيئًا لا أحد غيري يعرفه.»

سأله هيثرويك: «وما ذاك؟»

مال هادسون مقتربًا منهما من فوق المشرب وأخفض صوته.

وأكمل يقول: «كانت السيدة ويتينجهام تلك امرأة جميلة ممتلئة الجسد. كانت مبهرجة وتحب ارتداء الملابس الأنيقة؛ فكانت مولعة بالملابس الرائعة والمصوغات، وما إلى ذلك؛ إنها كما تعرفون من نوعية النساء اللائي يجذبن الانتباه إليهن في أي مكان. ومن

الجلي أيضًا أنها كانت من السيدات اللائي اعتدن تلقي جميع أشكال الخدمة والرعاية؛ يسعني القول إنها استفادت من فندق «وايت بير» بمقدارِ ما دفعته من مال! لقد خدمتُها بطرق عدة، وأنا أشهد لها بأنها كانت سخية في المال. وإذا أرادت أن يفعل لها المرء شيئًا، فإنها تبقيه منشغلًا به حتى يتمَّه، لكنها كانت تلقي بعملات الخمسة الشلنات أو النصف الجنيه وكأنها لا شيء! كانت لترسلك من أجل توصيل برقية قيمتها ستة بنسات وتعطيك على ذلك شلنين. لقد عرفتها من جوانب عدة مثلما أخبرتكما؛ إذ كنت أحضر لها سيارات الأجرة وآخذ لها الأشياء لحجرتها، وأفعل لها هذا وذاك. وذات يوم صعدت فجأة إلى غرفتها ببرقية أتتها للتو، واكتشفت شيئًا بشأنها؛ شيئًا كنت لأميزها به كما أقول، حتى ولو غيَّرت من شكل وجهها وارتدت شعرًا مستعارًا!»

سأله هوليس: «حسنًا، وما ذلك الشيء؟»

أجاب هادسون بنظرة تنم عن المعرفة وقال: «هذا! ربما أنني رجل دقيق الملاحظة، على أي حال، كان هناك شيء دائمًا ما كنت ألاحظه بشأن السيدة ويتينجهام. فأيًّا ما ذهبت، وأيًّا ما كانت الملابس التي ترتديها، سواء أكانت ثيابَ خروج أو ثيابَ تناول العشاء الأنيقة، كانت دائمًا ما ترتدي شريطًا من المخمل الأسود حول ساعدها الأيمن، فوق رسغها تمامًا، حيث ترتدي النساء الأساور. الحق أنَّ ذلك الشريط كان شبيهًا بالسوار، شريط من المخمل الأسود عرضه بوصتان تقريبًا ومزيَّن في المقدمة بحلية من حجر كريم منقوش بحجم الشلن، وكان الحجر أبيض اللون تقريبًا ومنقوشًا عليه أحد الأشكال الوثنية. ثمة أشخاص آخرون في المكان لاحظوا ذلك الشريط المخملي الأسود هم أيضًا؛ إذ لم تكن تُرى من دونه كما أخبركما؛ وقد قالت الخادمات المسئولات عن غرف النوم إنها كانت تنام وهي ترتديه. لكن في تلك الواقعة التي أخبركم بشأنها، وحين صعدت إلى حجرتها ومعي البرقية، لاحظت أنها لم تكن ترتديه. فتحت السيدة الباب لترى مَن الطارق، كانت حينها ترتدي روبًا استعدادًا لتغيير ملابسها من أجل تناول العشاء على ما أظن، وقد مدَّت يدها اليُمنى لتأخذ ما أحضرتُ إليها. ولم يكن الشريط المخملي الأسود على يدها، ولثانية واحدة تسنَّت لي رؤيةُ ما كان على ذراعها!»

قال هوليس: «ماذا؟ أهو شيء بارز؟»

أجاب هادسون بضحكة خبيثة: «بالنسبة إلى سيدة، أجل! كان هناك وشم على ذراعها! ففي المكان الذي كانت ترتدي عليه الشريط المخملي الأسود دائمًا، كان هناك ثعبان، ألوانه الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق وذيله في فمه! كان الوشم بديعًا؛ وأقول إن مَن رسمه لم يكن مبتدئًا! لقد رأيته فقط بالطبع، وليس أكثر من ذلك، لكن كان هناك

مصباح كهربائي قوي بالقرب مني، فرأيته واضحًا جليًّا. وهذا شيء لا يمكن لتلك المرأة، أيًّا كانت هي وأيًّا كان المكان الذي ذهبت إليه، أن تكشطه أو تمسحه! ستظل تحمل ذلك الوشم حتى وفاتها.»

راح السامعان ينظران أحدهما إلى الآخر.

وعلَّق هوليس قائلًا: «عجيب!»

التفت هيثرويك إلى ساقي الحانة.

وسأله: «هل لاحظت هي أنك رأيت الوشم المرسوم على ذراعها؟»

فأجاب هادسون: «لا، لا أظنُّ أنها لاحظت. لقد مرَّ الأمر في ثانية خاطفة بالطبع. ولم أُبدِ أنا أيَّ إشارة أنني رأيت شيئًا معينًا، ولم تذكر هي شيئًا. لكنني رأيته!»

هنا دخل زبائنُ آخرون إلى الحانة، والتفت ساقي الحانة إليهم لكي يحضر لهم ما يريدون. وانتقل هوليس وهيثرويك من منضدة المشرب إلى الزوايا الدافئة في الطرف الآخر من الحجرة.

وعلَّق هوليس قائلًا: «أيًّا كانت هي وأيًّا كان المكان الذي ذهبت إليه كما قال هادسون لتوه، وإن كان لتلك المرأة يدٌ في الظروف الغامضة المحيطة بمقتل هانافورد، فلن يكون من الصعب إيجادها. امرأة تحمل علامة بارزة كهذه على ذراعها، وظهرت صورتها مؤخَّرًا في الصحف، سيكون تتبُّعها سهلًا.»

قال هيثرويك موافقًا: «أظنُّ أنني سأصل إليها من خلال الصورة. يبدو أن الصورة التي ظهرت في الجريدة أُخذت من صورة فوتوغرافية لها يبدو من وضوحها وإتقانها أنها من إنتاج شركة من الطِّراز الأول في لندن. سأزور مثل تلك الشركات حالما أعود. وربما يكون لها يدٌ في مقتل هانافورد بأي شكل من الأشكال بالطبع، لكنَّه لا يزال طريقًا ينبغي عليَّ أن أتتبَّعه حتى النهاية إذ بدأت فيه بالفعل. حسنًا! يبدو أن تلك هي نهاية عملي هنا فيما يتعلَّق بأمر تلك المرأة. لكن يتبقى أمرٌ آخر؛ فقد أخبرتك أن هانافورد حين وصل إلى المدينة كان معه ظرف مختوم يحتوي على سرٍّ بشأن اختراعٍ ما أو اكتشاف، وأن ذلك الظرف مفقود بصورة غريبة لا مبرِّر لها. تقول حفيدته إنه وجد حلًّا لذلك الأمر — أيًّا كان هو — في معملٍ كان في حديقته. والآن وقبل أن أذهب، أريد أن ألقي نظرة على ذلك المعمل. أعتقد أن الأشياء لا تزال على حالها كما تركها في منزله القديم؛ إذ لم يترك المكان إلا حديثًا. فأين كان يعيش؟»

أجاب هوليس: «في ضواحي المدينة. كان يعيش في منزلٍ قديم الطِّراز كان قد اشتراه قبل عدة أعوام، وأنا أعرفه من شكله بما يكفي، رغم أنني لم أدخله قط. ولا أظنُّ أنه قد استُؤجر بعد، لكنني أعرف أنه أُعلِن عنه في الصحف المحلية. لنتناول طعام الغداء في فندق «وايت بير»، ثم نقود السيارة إلى هناك ونرى ما يمكننا فعله. أتود أن تكوِّن فكرة عما كان هانافورد يخترعه؟»

قال هيثرويك موافقًا: «أجل، بالفعل. إذا كان السر يساوي ما أخبر به حفيدته فعلًا، فربما لقي حتفه على يد شخص أراد أن يحصل على ذلك السر. إنه خيط آخر على أية حال، وعلينا أن نعمل عليه.»

علَّق هوليس قائلًا: «لم أسمع قط أن هانافورد كان مخترعًا أو يُجرِي التجارِب. لكنني لم أكن أعرف عنه سوى القليل، إلا فيما يتعلَّق بصفته الرسمية؛ إذ كان هو وحفيدته وامرأة عجوز كانت تعيش معهما بصفتها ربة منزل، من نوعية الأشخاص الهادئين. كنت أعرف أنه ربَّى حفيدته منذ طفولتها، وأنه جعلها تتلقى تعليمًا جيدًا في مدرسة الفتيات الثانوية، لكن فيما عدا ذلك، لا أعرف عن أمورهم الخاصة سوى القليل. أفهم من هذا أنه كان يسلِّي نفسه في وقت فراغه في المعمل الذي تتحدَّث عنه؟»

قال هيثرويك: «فهمت أنه كان يهوى الكيمياء. وإذا ما لم يُزَل المعمل، فقد نجد فيه شيئًا يعطينا إشارةً ما.»

بدا هوليس غارقًا في التفكير لدقيقة أو اثنتين.

ثم قال فجأة: «لديَّ فكرة! هناك رجل يتناول غداءه في فندق «وايت بير» كلَّ يوم: رجلٌ يُدعى كوليسون؛ وهو يعمل محللًا كيميائيًّا لشركة كبيرة في مجال الصباغة في المدينة. كنت أراه يتحدَّث مع هانافورد بين الحين والآخر. ربما يمكنه أن يخبرنا بشيء عن هذا الأمر. هيا! هذا هو الوقت الذي يتناول فيه الغداء.»

بعد بضع دقائق، وفي غرفة المشروبات في الفندق، سار هوليس أمام هيثرويك متوجهًا نحو رجلٍ ملتحٍ ويرتدي نظارة، كان الرجل قد جلس لتوه ليتناول الغداء، فقام هوليس بتقديم هيثرويك إليه وشرح له بإيجاز سببَ زيارته إلى سيليثوايت. أومأ كوليسون بالإيجاب وابتسم.

وقال بينما جلسا إلى طاولته: «أعرف أن هانافورد كان يمارس الكيمياء بعض الشيء على سبيل الهواية. أما أن يتمكَّن من اختراع شيء كهذا؛ فهذا احتمال بعيد! ومع ذلك، كان الرجل عبقريًّا بالنسبة إلى كونه هاويًا، وربما توصَّل إلى شيء ذي قيمة كبيرة فعلًا.»

قال هيثرويك متسائلًا: «ألا تملك أدنى فكرة عمَّا كان يسعى إليه؟»

فأجاب كوليسون: «في الآونة الأخيرة، لا! لكنه كان قبل ذلك شديد الاهتمام بأصباغ الأنيلين. لقد اعتاد الحديثَ معي بشأنها. فهذا أمرٌ مهم للغاية في هذا الحي. والحق أنه يجدر بي القول إنَّ الألمان تقدَّموا علينا بشوط كبير فيما يتعلَّق بالأصباغ الأنيلينية، ونحن نحصل على معظم المواد التي نستخدمها من ألمانيا، إن لم يكن كلها. وشغل هانافورد نفسه بأسباب عدم تمكُّننا من صناعة الأصباغ الأنيلينية الخاصة بنا، وأظنُّ أنه جرَّب فِعْل ذلك. لكن بالنظر إلى موارده وباعتباره هاويًا، فإن ذلك كان أمرًا ميئوسًا منه بالطبع.»

علَّق هوليس قائلًا: «لقد رأيته يحدِّثك في بعض الأحيان. أليس لديك أدنى فكرة عمَّا كان يسعى إليه في الآونة الأخيرة؟»

فردَّ كوليسون: «لا. كان معتادًا طرحَ الأسئلة التقنية عليَّ. وكنت أعدُّه رجلًا يتمتع برغبة فطرية في تجربة الأشياء. كان من الواضح أنَّ تلك هوايته. وقد اعتدت المزاحَ معه بشأن ذلك. ومع ذلك، كان الرجل ذا عزيمة، ومن خلال القراءة والتجريب اكتسب معرفةً كبيرة.»

فتساءل هيثرويك: «أتعتقد أنَّ توصُّله إلى شيء ذي قيمة فعلية ربما يكون ممكنًا؟»

وافقه كوليسون: «حسنًا، هذا ممكن إلى حدٍّ كبير! وربما توصَّل إلى شيء بالفعل. أعرف الكثير من الهواة الذين توصَّلوا إلى بعض الاكتشافات فجأة. وحينها، يكون السؤال هو: هل يعرفون ما يكفي لأن يمكِّنهم من تحويل اكتشافهم إلى شيء له غرض واستعمال عملي؟»

قال هيثرويك: «بناءً على ما أخبر به حفيدته، من الواضح أنَّ هانافورد كان يعتقد أنه يعرف ما يكفي. وما أريد أن أكتشفه من خلال زيارة إلى معمله هو ماذا يكون ذلك الشيء الذي اكتشفه؟»

علَّق هوليس قائلًا وهو يضحك: «وحيث إنك لست بكيميائي، ولست حتى هاويًا للكيمياء فلن يكون هذا سهلًا! من الأفضل لو أتيت معنا بعد الغداء يا كوليسون.»

قال كوليسون موافقًا: «يمكنني أن أذهب معكما بضع ساعات. فالفضول يعتريني بالفعل، لا سيما إن كان ما سنأتي عليه من اكتشاف سيسلِّط الضوء على لغز وفاة هانافورد.» ثم أضاف وهو ينظر إلى هيثرويك: «من المؤسف أن الشرطة لم تتمكَّن من القبض على الرجل الذي كان معه. أعتقد أنك تستطيع التعرُّف عليه؟»

فأجابه هيثرويك: «أجل، قطعًا، إلا أن يكون شديد البراعة في التنكُّر! فقد كان لافتًا للنظر.»

بعد مرور ساعة قاد الرجال الثلاثة السيارةَ إلى منزلٍ يقع بعيدًا عن المدينة بعض الشيء، على حافة أراضي المستنقعات التي تمتد إلى التلال العظيمة في الغرب. كان المنزل العتيق الطِّراز المنعزل خاويًا، إلا من حارس يقطن الغرفة الخلفية ليحافظ على تهويته وليعرضه على المستأجرين المحتملين. أما المختبر الذي كان يقع عند طرف الحديقة، وهو سقيفة جدرانها من الحجارة وسقفها من الخشب، فلم يُفتح قط منذ أغلقه السيد هانافورد وتركه، بحسب ما قاله الحارس. لكنه سرعان ما أحضر المفتاح ودلف الزوار الثلاثة إليه وراحوا ينظرون في الأرجاء، كلٌّ بتقدير مختلف لما يرى.

كان المكان كلُّه عبارة عن غابة من القمامة والفوضى. كان كل شيء يمتلكه هانافورد في المختبر من الأدوات والأجهزة قد أُزيل، ولم يَعُد به الآن سوى القمامة: زجاج سليم ومكسور، وورق وصناديق وأقفاص مهملة ونثريات صغيرة محطَّمة. لكن الكيميائي التحليلي نظر حوله بعين العارف، فراح يفحص الزجاجات والصناديق، ويلاحظ شيئًا هنا وآخر هناك، ولم يمرَّ وقتٌ طويل حتى التفت إلى رفاقه وأخذ يضحك بينما هو يشير إلى طاولةٍ في زاوية موضوعٍ عليها آنية يكسوها الغبار.

وقال: «من السهل جدًّا رؤيةُ ما كان يسعى إليه هانافورد! كان يحاول ابتكار حبر جديد!»

صاح هوليس متعجبًا في ارتياب: «حبر! أليس هناك الكثير من الأحبار في الأسواق؟»

وافقه كوليسون بضحكة أخرى: «لا حصر لها!» وأشار مرة أخرى إلى الطاولة. وأردف: «هذه عينات من جميع الأنواع الجيدة، وهي إنجليزية بالطبع، فما من أحبار جيدة تُصنع في أيِّ مكان آخر. لكن حتى أفضل الأحبار لا تزال حتى هذه اللحظة غير مثالية. ولمَّا كان هانافورد هاويًا، فربما ظن أنه يستطيع صنْع حبرٍ أفضل من أفضل الأنواع المعروفة. الحبر! هذا هو ما كان يسعى إليه. حبر كتابة ممتاز مثالي السيولة، نافذ وثابت وغير قابل للتآكل: كان هذا هو تصوُّره، ذلك حُلم بعيد المنال! ألاحظ وجود الكثير من المواد الخام التي استخدمها.»

أراهما الكثيرَ من الأشياء المختلفة، وشرح لهما خصائصها وأضاف بضعة تعليقات على تاريخ تصنيع حبر الكتابة في غضون الأعوام المائة المنصرمة.

واختتم كلامه قائلًا: «بالنظر إلى كل ذلك، وعلى الرغم من إعلانات المصنِّعين ورضاهم عما يصنعون، فلا يوجد حبر كتابة ممتاز ومثالي في الأسواق، على حد علمي على أي حال.

وإن كان هانافورد يظنُّ أن باستطاعته صناعةَ حبر بهذا الشكل ونجح في ذلك، فسأكون مسرورًا في الواقع إن حصلت على صيغته وتركيبته! سأشتري ذلك بالمال!»

سأله هيثرويك: «إلى حد دفع مائة ألف جنيه؟ إلى ذلك الحد؟» ذلك أنه تذكَّر ما أخبرته به رونا.

ضحك كوليسون وقال: «حسنًا! ينبغي أن تتذكَّر أن المخترعين متفائلون دائمًا؛ فهم يميلون دائمًا إلى رؤية كل شيء بلون ورديٍّ، وهم عرضة باستمرار إلى المبالغة بشأن مزايا ابتكاراتهم. بالرغم من ذلك، إذا كان هانافورد قد توصَّل بالتجربة إلى تركيبة مثالية لصناعة حبر كتابة يمتاز عن كل نظرائه في جميع الصفات اللازمة، فأجل، سيجني بذلك مالًا كثيرًا. لا شك في ذلك!»

تساءل هيثرويك: «أعتقد أنه كان سيتحتم عليه أن يستخرج براءة اختراع على ابتكاره، أليس كذلك؟»

أقرَّ كوليسون قائلًا: «بلى، دون أدنى شك! وأظنُّ أن هذا كان أحد أسباب ذهابه إلى لندن: ليسعى إلى ذلك.» راح ينظر حوله مرة أخرى وأخذ يضحك. وقال: «حسنًا، أظنُّ أنكم تعرفون الآن، ويمكن لكم أن تثقوا في ذلك استنادًا إلى ما رأيتُ هنا؛ ذلك هو ما كان يسعى إليه هانافورد! الحبر، الحبر فحسب!»

قبِل هيثرويك بهذا الحكم، وحين غادر سيليثوايت في وقت لاحق من ظهر ذلك اليوم في رحلة عودته إلى لندن، راح يوجز النتائج التي عرفها. لقد توصَّل إلى نتيجتين. الأولى، أنه اكتشف أن المرأة التي تحدَّث هانافورد عنها في القطار كانت تُسمَّى قبل عشر سنوات بالسيدة ويتينجهام، وأنها كانت امرأة مغامرة تقوم بأعمال مشبوهة من نوعٍ ما، وعلى الرغم من أنها عوَّضت الصائغ الذي سرقته، كانت لا تزال عرضة للقبض عليها وإدانتها ومعاقبتها، إذا كان من الممكن إيجادها. والثانية أنه وجد أن الاختراع الثمين الذي تحدَّث عنه هانافورد وأسرَّ به في حماس إلى حفيدته، والذي اختفت تفاصيله بصورة غامضة، يتعلَّق بصناعة حبر كتابة جديد يمكن بالفعل أن تصبح له قيمة تجارية كبيرة. الوضع جيد حتى الآن؛ إذ كانت تتضح له بعض الأمور. وحين كان يتناول عشاءه في عربة تناوُلِ الطعام راح يفكِّر في خطواته التالية. لكن ذلك لم يكن في حاجة إلا إلى قليل من التفكير ليقرِّر بشأنها. ينبغي عليه أن يعرف كلَّ ما يمكنه عن المرأة التي قبعت صورتها في جيبه: الاسم الذي تطلقه على نفسها الآن، والمكان الذي تقطنه، وما أدَّى إلى ظهور صورتها في الجريدة مجددًا، وأخيرًا لكن ليس آخرًا بالمرة، عليه معرفة ما إن كان هانافورد قد تواصل

معها أو قدَّم معلومات عنها بعد رؤية صوتها في الجريدة. أجل، كان هانافورد قد ذكر إلى الرجل الذي كان معه في القطار أنه لم يفصح بأي شيء عنها حتى ذلك المساء، لكن أكان ذلك الرجل هو الوحيد الذي تحدَّث إليه هانافورد؟ سيتطلب هذا جهدًا كبيرًا، والشيء التالي الذي ينبغي عليه اكتشافه بطريقةٍ ما، هو ما حدث إلى الظرف المختوم والمغلق الذي كان هانافورد يحمله بالتأكيد حين خرج من فندق مالتر ليلة موته.

الفصل السابع

المخمل الأسود

في صباح اليوم التالي، وقبل أن يعرِّج هيثرويك على أيٍّ من كينثوايت أو رونا هانافورد، انطلق في جولة على المصوِّرين البارزين بحي ويست إند في لندن. فلم يكن هناك الكثير منهم على أية حال، لا سيما المشاهير للغاية منهم. صنع هيثرويك قائمة بهم وبدأ يعمل بطريقة منهجية. لم تفضِ محاولاته القليلة الأولى إلى أي شيء، لكنه قبيل حلول الظهيرة، وبينما كان هيثرويك يفكِّر في التوقف عن العمل من أجل تناول الغداء، قد أيقظ الفطنة بداخله. ففي إحدى مؤسسات التصوير الفخمة في شارع بوند أبدى الشخص الذي كان يحدِّثه وأخرج له الصورة ابتسامةً تنم عن التعرُّف على المرأة.

قال الرجل: «أتريد أن تعرف مَن هي صاحبة الصورة الأصلية؟ سأجيبك بكل تأكيد! الليدي ريفرسريد، صاحبة قصر ريفرسريد الذي يقع بالقرب من دوركينج.»

لم يكن هيثرويك يتمتع بمعرفة وثيقة لا بديبريت ولا ببيرك، ولا حتى بقائمة الأقران والبارونات والفرسان المذكورين في الكتب المرجعية العادية، وبالنسبة إليه كان اسم الليدي ريفرسريد غير معروف بالمرة؛ فهو لم يسمع بها من قبل. أما الرجل الذي أراه النسخة، والذي كان يمسكها الآن في يده، فقد بدا أنه يَعُدُّ الليدي ريفرسريد شخصيةً معروفة، أو ينبغي أن تكون معروفة للجميع مثلما هي معروفة لديه كما يبدو.

قال الرجل وهو يلتفت نحو طاولة جانبية في غرفة الاستقبال التي كانا يقفان فيها: «هذه النسخة مأخوذة من إحدى صورنا التي التقطناها لليدي ريفرسريد.» أخذ بعد ذلك صورة شخصية مؤطرة، وأردف: «وها هي ذي الصورة الأصلية التي أُخِذت منها.»

سأله هيثرويك: «إذن فأنت تعرف على الأرجح أي صحيفة هي التي ظهرت فيها هذه النسخة؟ هذا هو ما أرغب في معرفته في الواقع.»

فأجابه المصوِّر: «حسنًا، لقد ظهرت في العديد من الصحف. كان ذلك منذ عهد قريب. ذلك أنها ظهرت في الوقت الذي افتتحت فيه الليدي ريفرسريد دارًا أو مؤسَّسة، قد نسيت اسمها الآن. أوردت الصحف خبرًا عنها، ومن الطبيعي أن تُنسخ صورتها مع الخبر.»

قدَّم هيثرويك على فضوله عذرًا منطقيًّا كان قد رتَّب له مسبقًا، وغادر. الليدي ريفرسريد! لا شك أنها امرأة تتمتع بمنزلة رفيعة أو بالموارد المالية أو بمكانة بارزة. لكن أهي نفسها السيدة ويتينجهام التي عُرِفت قبل عشر سنوات: السيدة ويتينجهام التي أخذت من صائغ سيليثوايت قلادة تساوي قيمتها ما يقرب من أربعة آلاف جنيه وهربت بمهارة من محاولة القبض عليها على يد هانافور؟ وإن كان الأمر كذلك …

لكنَّ هذه الفكرة كانت تؤدي إلى آفاق غير محدودة، كان الأهم حينها هو اكتشاف كلِّ ما يمكن اكتشافه عن الليدي ريفرسريد صاحبة ريفرسريد الواقع بالقرب من دوركينج. لا شك أن هيثرويك كان بإمكانه الحصول على الكثير من المعلومات من المصوِّر البارز، لكنه أحجم بعناية عن إظهار الكثير من الفضول. علاوة على ذلك، كان هيثرويك يعرف رجلًا يُدعى بوكسلي هو زميل له في عضوية النادي، وهو مطَّلع دائمًا وتمامًا على كل الأحداث التي تدور في العالم الاجتماعي والمرموق، وكان يستطيع أيضًا — إذا أراد — أن يخبره بكل شيء عن الليدي ريفرسريد، هذا إن كان هناك أي شيء يمكن ذكره عنها. كان بوكسلي أحد أولئك الرجال العزَّاب الذين يطوفون المدينة ويعرفون الجميع ويبقون أنفسهم مطَّلعين دومًا على كل شيء؛ كان من عادة الرجل أن يتناول غداءه في ذلك النادي بعينه؛ نادي جونيور ميجاثيريم، وقد توجَّه هيثرويك إلى هناك عازمًا على إيجاده.

وكان من حسن حظِّه أنه وجد بوكسلي فور دخوله من أبواب النادي المكرسَّة لأعضائه وتقتصر عليهم. كان بوكسلي يتناول غداءه ولم يكن هناك أحد آخر على الطاولة. انضمَّ إليه هيثرويك وبدأ الحديث البسيط المعتاد الذي لا يدور عن شيء على وجه الخصوص. لكنه سرعان ما تطرَّق إلى موضوعه.

بعد فاصل زمني مناسب، قال هيثرويك: «اسمع! أريد أن أسألك بخصوص شيءٍ ما. أنت تعرف كل شيء وكل شخص. مَن هي الليدي ريفرسريد، تلك التي افتتحت مؤخَّرًا دارًا أو مؤسسةً ما، أو مستشفًى أو شيئًا من هذا القبيل؟»

أجابه بوكسلي بسرعة: «إنها واحدة من أغنى السيدات في إنجلترا! تبلغ قيمة ثروتها مليونين أو أكثر. تلك هويتها الآن، أما ماضيها فلا أعرف عنه شيئًا. ولا أعتقد أن هناك مَن يعرف ذلك أيضًا. ليس في هذه البلاد على أي حال.»

سأله هيثرويك: «ماذا، أهي أجنبية إذن؟ لقد رأيت صورتها في الصحف؛ ولهذا سألت عن هويتها. لكنها لا تبدو أجنبية على ما أعتقد.»

قال بوكسلي: «يمكنني أن أخبرك بكلِّ ما هو معروف عنها، لكنَّ ذلك ليس بالكثير. إنها أرملة السير جون ريفرسريد الراحل، المتعهِّد الشهير، الرجل الذي جنى الكثير من المال من إنشاء السكك الحديدية والسدود عبر الأنهار الكبرى وما إلى ذلك، وحصل على لقب الفروسية لقاء ذلك. بنى الرجل لنفسه أيضًا مكانًا مذهلًا بالقرب من دوركينج، وأطلق عليه قصر ريفرسريد، وهو بالتحديد من نوعية الأماكن التي يبنيها أصحاب الملايين الجدد. والآن، كان السير جون الراحل عازبًا طَوال حياته إلى أن تخطَّى سن الستين؛ إذ لم يكن لديه أيُّ وقت لأي شيء سوى تعاقداته كما تفهم. لكن قرابة بلوغه الخامسة والستين، وكان ذلك قبل ست سنوات مضت أو سبع تقريبًا، ذهب إلى الولايات المتحدة ومكث هناك طويلًا. وحين عاد أحضر معه زوجة؛ وهي الليدي التي تسأل بشأنها.»

سأله هيثرويك: «هي أمريكية إذن؟»

قال بوكسلي: «في الواقع، لقد تزوجها هناك. لكنني أقول إنها ليست أمريكية.»

«هل التقيت بها شخصيًّا؟»

«من بعيد فحسب. صادفتها مرة أو اثنتين في شئون مختلفة، وقُدِّمت إليها عرَضًا. لا، لا أظنُّ أنها أمريكية. لو أردت تصنيفها، لقلت إنها عالمية.»

«امرأة محنكة في شئون العالم، أليس كذلك؟»

«بلى، بالتحديد. إنها جميلة، ومتزنة، وواثقة بنفسها، وهي ذكية وماهرة. أعتقد أنها ستعرف كيف تعتني بالمال الذي تركه لها زوجها.»

«أَتَرَكَ لها كل شيء؟»

«كل بنس! إلا من شيء يسير للمؤسسات الخيرية. لقد قيل في ذلك الوقت، حين كانت قد مرت سنتان على وفاة العجوز، إنها تمتلك أكثر من مليونين.»

«وماذا عن هذه المؤسسة، أو أيًّا ما كانت؟»

«تلك! كانت تلك في الصحف قبل وقت ليس بطويل.»

«لست قارئًا نهِمًا للجرائد. ماذا عنها؟»

«حسنًا، لقد أنشأت دارًا للضباط الجرحى بالقرب من قصر ريفرسريد. كان يوجد منزل ريفي كبير وخاوٍ بالقرب من هناك، ولم يكن بالإمكان بيعه أو تأجيره. اشترته هي وأعادت تجديده وتصميمه وأحضرت طاقمًا من الخدم والممرضات، وقد باركته وزارة الحربية. أظنُّ أنه مكان رائع، وهي مَن تدفع التكاليف كلها.»

«إذن فهي تقوم بالعمل الخيري؟»

«يبدو ذلك. يغدو الأمر سهلًا حين تمتلك مليونين في جَعبتك. لكنه مفيد على أي حال.»

غادر بوكسلي بعد ذلك بوقت قصير، وذهب هيثرويك إلى غرفة التدخين متفكرًا فيما عرفه وقد أصبح فضوليًّا على نحوٍ لا حدَّ له بشأن هوية الليدي ريفرسريد والسيدة ويتينجهام، ثم أمسك بنسخة من صحيفة التايمز، وكان ذلك على سبيل العادة بأكثر مما هو رغبة فعلية في الاطلاع عليها. وكان أولُ ما وقعت عليه عينه، هو ذلك الاسم الذي كان يفكِّر فيه لتوِّه؛ إذ كان الاسم مكتوبًا أمامه بأحرف كبيرة على رأس إعلان.

> دار الليدي ريفرسريد للضباط الجرحى، سُري. مطلوب على الفور سكرتيرة مقيمة، تتمتَّع بأهلية تامة للقيام بالحسابات والمراسلات ومدرَّبة تدريبًا شاملًا على الكتابة بالاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة؛ سيكون من المستحسن كثيرًا أن تتمتع بمعرفة للغتين الفرنسية والألمانية. يتم تقديم الطلبات شخصيًّا بين الساعة العاشرة صباحًا والثانية عشرة ظهرًا والساعة الثالثة عصرًا والخامسة مساءً إلى الليدي ريفرسريد، بقصر ريفرسريد في دوركينج.

ألقى هيثرويك بالصحيفة جانبًا وغادر النادي واشترى نسخة أخرى من الصحيفة عند أول بائع للجرائد يمر عليه. قفز هيثرويك إلى إحدى سيارات الأجرة والصحيفة في يده وانطلق إلى شارع سُري وهو يفكِّر إن كان سيجد رونا هانافورد لا تزال في فندق مالتر أم لا. حالفه الحظ في ذلك؛ إذ لم تكن قد غادرت بعدُ، وفي غضون بضع دقائق كان يقدِّم لها سردًا مفصَّلًا وكاملًا لما قام به منذ آخر لقائه بها. استمعت هي إلى قصته عن سيليثوايت وعما اكتشفه ذلك الصباح وبدا عليها التحير بعض الشيء.

سألته فجأة وبسرعة: «لماذا تتحمل كلَّ هذا العناء؟ أنت تفعل أكثرَ مما تفعل الشرطة وتتعمَّق في الأمر أكثرَ مما يتعمَّقون. كان ماذرفيلد هنا هذا الصباح ليخبرني كيف أنهم يحرزون تقدُّمًا. وهم لا يحرزون أيَّ تقدُّم على الإطلاق! لم يُقدِموا حتى على اكتشاف واحد فقط: لم يسمعوا شيئًا، ولم يعرفوا أيَّ شيء عن الرجل الذي كان في القطار أو الرجل الذي كان في فيكتوريا، إنهم لا يزالون في مكانهم تمامًا. أما أنت، فقد اكتشفت الكثير من الأمور! لماذا أنت متحمس للأمر إلى هذا الحد؟»

أجابها هيثرويك مبتسمًا: «فلترجعي الأمر إلى الفضول المهني إذا أردتِ. أنا مهتم بالأمر. مهتم به بصورة هائلة! أنت تعرفين أنني أيضًا كنت في القطار، مثل ذلك الرجل الذي لم يجدوه. والآن، والآن بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة، أريد منك المساعدة.»

تعجَّبت رونا قائلة: «أنا؟ كيف ذلك؟»

أخرج هيثرويك صحيفة «التايمز» وأشار إلى الإعلان.

وقال: «أريد منكِ أن تذهبي غدًا إلى دوركينج وتقابلي الليدي ريفرسريد شخصيًّا، بناءً على هذا الإعلان. أنتِ تتمتعين بكل المؤهلات المذكورة؛ لذا لديك تبريرٌ ممتاز لزيارتها. أما عن رغبتك في الالتحاق بالوظيفة من عدمها؛ فذلك أمرٌ آخر؛ ما أريده هو أن تريَها في سياقٍ يمكِّنك من ملاحظتها عن كثب.»

سألته رونا: «لماذا؟»

أجاب هيثرويك: «أريد منك أن تنظري ما إن كانت ترتدي ذلك الشريط الذي أخبرني به هادسون أنا وهوليس. إنَّ عينين ثاقبتين كعينيكِ ستلاحظان ذلك سريعًا. إذا كانت ترتدي ذلك الشريط، فهي السيدة ويتينجهام! وفي تلك الحال، قد أطلب منكِ القيام بأكثر من ذلك، أكثر من ذلك بكثير.»

سألته قائلة: «ماذا ستطلب مثلًا؟»

فأجابها: «حسنًا، أن تقومي بأفضل ما لديكِ لتحصلي على تلك الوظيفة. أعتقد أنكِ تستطيعين الحصول عليها بكلِّ ما تتمتعين به من مؤهلات.»

فسألته: «وما غايتك من ذلك؟»

أجابها على الفور: «أن أراقب الليدي ريفرسريد باستمرار. إن كانت السيدة ويتينجهام التي عاشت في سيليثوايت قبل عشر سنوات هي نفسها الليدي ريفرسريد التي تعيش اليوم في قصر ريفرسريد — وفي ظل مقتل جَدك — فإنني أريد منكِ أن تعرفي المزيد والمزيد عنها! إن وجودك هناك سيكون مصدر مساعدة كبيرة لي.»

فسألت قائلة: «إذن سأكون جاسوسة من نوعٍ ما؟»

قال هيثرويك مؤكِّدًا: «بل محقِّقة، إن كنتِ ترغبين في ذلك. لمَ لا؟»

علَّقت هي قائلة: «لقد نسيتَ شيئًا. إن كانت تلك الليدي ريفرسريد هي السيدة ويتينجهام من عشر سنوات مضت، فستتذكَّر اسمي: هانافورد! فليس من المرجَّح أن تنسى أمرَ المفوَّض هانافورد من سيليثوايت!»

أجابها هيثرويك: «هذا صحيح تمامًا، لكنني فكَّرت في هذه المسألة الصغيرة. أطلقي على نفسكِ اسمًا آخر. اسم والدتكِ على سبيل المثال.»

قالت رونا: «كان اسمها فيذرستون.»

«فليكن كذلك! اذهبي باسم الآنسة فيذرستون. أما عن عنوانك، فأعطيها عنوان عمَّتك في توتينج.» أضاف هيثرويك وهو يضحك: «الأمر سهل، سهل جدًّا كما ترين. كلُّ ما يلزم هو البدء على النحو الملائم فحسب.»

قالت رونا معترضة: «لكن هناك شيئًا آخر. المَراجع! ستكون في حاجة إلى مَراجع.»

فأجابها هيثرويك: «هذا سهل أيضًا. قدِّميني مَرْجعًا وكينثوايت هو المَرْجع الآخر. سأتحدَّث إليه بهذا الشأن. اثنان من المحامين من أعضاء جمعية «ميدل تيمبل»! هذا ممتاز! هيا! كلُّ ما عليك فعله هو أن تضعي الخطة كاملة وأن تنفِّذيها بثقة، وأنت لا تعرفين ما قد نكتشفه من ذلك.»

راحت رونا تفكِّر في الأمر بعض الوقت، وهي ترمقه بنظرات ثابتة.

ثم سألته فجأة: «هل تظنُّ أنَّ تلك المرأة قد تكون متورطةً على نحوٍ ما في اللغز المحيط بمقتل جَدي؟»

فأجابها: «أظنُّ أنَّ ذلك أحد الاحتمالات.»

فقالت: «لا بأس. سأذهب. غدًا صباحًا، أليس كذلك؟»

قال هيثرويك موافقًا: «كلما أبكرتِ كان ذلك أفضل. سوف أذهب معكِ أيضًا. سنذهب في قطار العاشرة وعشر دقائق من محطة فيكتوريا، وسنأخذ السيارة إلى ذلك المكان، وسأنتظر في الخارج بينما تقومين بالمقابلة. بعد ذلك سنتناول الغداء في دوركينج بينما تقصين عليَّ ما حدث.»

حلَّ صباح اليوم التالي وكان هيثرويك يسير جَيئة وذهابًا على الرصيف في محطة فيكتوريا ويبحث عن رفيقته. جاءته قبل موعد مغادرة القطار بوقت قليل، ولاحظ هو في الحال أنها خلعت ثياب العزاء التي وجدها ترتديها في ظهيرة اليوم السابق؛ إذ ارتدت تنورة ومعطفًا أنيقًا مصنوعًا بالطلب، وبدت ملائمة للدور الذي أرادها أن تضطلع به: فتاة أعمال يافعة قادرة وتعتمد على ذاتها.

قال هيثرويك في استحسانٍ بينما كانا يبحثان عن مقعدَيهما: «رائع! لا شيء يضاهي ارتداء الملابس المناسبة. هل استعددتِ لدورك؟ أقصد، هل حددتِ ما ستقولين وما ستفعلين؟»

أجابته ضاحكة: «اترك لي هذا، لن أنسى السبب الرئيسي على أي حال. لكنني كنت أفكِّر بشأنِ ما سيحدث إذا توصلنا إلى خاتمةٍ مفادُها أن الليدي ريفرسريد هي السيدة ويتينجهام التي ظهرت قبل عشر سنوات؟ ماذا سنفعل حينها؟»

قال هيثرويك معترفًا: «الحق أنَّ أفكاري عن هذه النقطة مبهمة بعض الشيء في الوقت الراهن. لكنَّ ما علينا فعْله أولًا هو التأكد من الهوية. لا تنسي أن المهمة الرئيسية في قصر ريفرسريد هي النظر بتمعُّن في معصم الليدي ريفرسريد الأيمن، وأن تري ما عليه!»

كان قصر ريفرسريد يبعُد مسافةً ليست بالهينة عن دوركينج، في حي ليث هيل؛ أشار هيثرويك إلى سيارة أجرة وأعطى رفيقته التعليمات النهائية وهما يسيران بالسيارة. وبعد الجري بالسيارة نصف ساعة وصلا أمام المنزل، وكان منزلًا كبيرًا فخمًا يحاكي الطراز الإليزابيثي، يقع على التل بين أيكة من أشجار التنوب والصنوبر، وبه متنزَّه يمتد بين حدائقه وشرفاته والطريق السريع. وعند بوابة المنزل، طلب هيثرويك من السائق أن يتوقف ونزل من السيارة.

وقال لرونا: «سأنتظرك هنا. اذهبي أنتِ بالسيارة إلى المنزل، ثم عودي إلى هنا حين تنتهين. والآن كوني يقظة لأي شيء.»

أومأت رونا مطمئنةً إياه وانطلقت، وأشعل هيثرويك غليونه وراح يسير في الأرجاء متأملًا المنظر الجميل. غير أنَّ عقله كان مع رونا؛ فراح يفكِّر في المغامرات التي تقوم بها في ذلك القصر الكبير الذي بناه المقاول الراحل بين الأشجار. وقد أبقته رونا متفكرًا بعض الوقت؛ إذ مرت ساعة قبل عودة سيارة الأجرة. التفت هيثرويك إلى السائق وهو يضع يده على باب السيارة:

وقال: «انطلق بنا إلى فندق «وايت هورس» الآن. سنتناول الغداء هناك، وبعدها يمكنك أن تأخذنا إلى المحطة.» وأكمل يقول بينما دلف إلى السيارة وجلس بجوار رونا: «حسنًا؟ كيف كان حظك؟»

أجابته رونا: «يسعني القول إنه كان جيدًا. إنها ترتدي شريطة مخملية سوداء عريضة على معصمها الأيمن، وتوجد عليه حلية صغيرة منقوشة. ما رأيك في هذا؟»

قال هيثرويك متعجبًا: «بالتحديد! إنَّ ذلك يتطابق تمامًا مع وصف الساقي الذي التقيته في سيليثوايت. ترتديه علنًا، ولا تحاول أن تخفي شيئًا تحت كمِّها، أليس كذلك؟»

أجابته رونا: «لا. كانت ترتدي سترة أنيقة وعصرية ذات كم قصير. وعلى معصمها الآخر كانت ترتدي سوارًا ماسيًّا رائعًا للغاية.»

سألها هيثرويك: «وهي نفسها، أيُّ نوع من النساء هي؟»

ردَّت رونا: «تلك الصورة التي قصَّها جدي من الجريدة كانت جيدة للغاية. جيدة للغاية بالفعل! تعرَّفت عليها على الفور. إنها امرأة طويلة وجميلة ورقيقة وتحتفظ بجمالها بقدْر كبير، ربما تبلغ من العمر الأربعين أو ربما أقل. أسلوبها سهل ومألوف؛

يسعني الاعتقاد بأنها امرأة خبيرة بشئون الحياة. وهي على استعداد كبير لأن تتحدث عن نفسها وعن أعمالها؛ فقد أخبرتني بتاريخ تلك الدار التي أنشأتها كاملًا وأخذتني لأراها: منزل قديم جيد، وهو جذاب أكثر من القصر، ويقع على التل بعد مسافة ليست بالبعيدة. أخبرتني أيضًا أن تلك الدار هي أكبر هواياتها، وأنها تكرِّس كلَّ وقتها إليها. أعتقد أنها مهتمة بصدق بشئون تلك الدار، بصدق شديد!»

تساءل هيثرويك: «هل أثارت إعجابك؟»

«أظنُّ مما رأيت وسمعت، أنها امرأة ودودة وربما كانت طيبة القلب. كانت تتحدث عن المرضى في تلك الدار وكأنها تشعر بهم كثيرًا، على أي حال.»

«ماذا عن الوظيفة: وظيفة السكرتارية؟»

«يمكنني الحصول عليها إذا ما أردت، بالطبع أخبرتها أنني أريدها. لقد اختبرتني بدقةٍ فيما يتعلق بمؤهلاتي، ثم إنها هي نفسها تتحدث الفرنسية والألمانية وكأنها من أبناء اللغتين، وقد ذكرتُك أنت والسيد كينثوايت بصفتكما مَرْجعَين. سترسل لكلٍّ منكما خطابًا اليوم. لذا؛ فالقرار يعود لكما.»

«أعتقد أن القرار يعود لكِ أنتِ في الواقع!»

«لا! أنا مستعدة، بل أتوق لفعل أيِّ شيء من شأنه أن يحلَّ لغز وفاة جَدي. لكني لا أظن أن تلك المرأة لها أيُّ علاقة بذلك. ففي رأيي — وأظنُّ أنني أتمتَّع بشيء من الحَدْس الأنثوي — أنها صادقة وصريحة بما يكفي.»

قال هيثرويك ضاحكًا: «لكنها تبدو وكأنها السيدة ويتينجهام بكل تأكيد والتي سرقت الصائغ في سيليثوايت في مبلغ أربعة آلاف جنيه! لم يكن ذلك من الصدق أو الصراحة في شيء!»

قالت رونا: «كنت أفكِّر في ذلك. ربما كانت تظن أنَّ الشيك سيُدفَع في نهاية المطاف، وقد أرسلت للرجل نقوده على أي حال، رغم مرور وقت طويل بعدها. ومرة أخرى، وهذا أمر مهم! ربما لا تكون الليدي ريفرسريد هي السيدة ويتينجهام على الإطلاق. فهناك سيدات كُثر يرتدين عصابة معصم مخملية.»

صاح هيثرويك: «لكن، الصورة! تأكيد الهوية!»

أجابت رونا: «حسنًا، أنا على استعداد للذهاب هناك ومحاولة اكتشاف المزيد. لكني بصراحة، أعتقد أن الليدي ريفرسريد لا غبار عليها! وذلك من الانطباع الأول على أي حال!»

توقَّفت السيارة الأجرة أمام «وايت هورس» وتقدَّم هيثرويك رونا إلى غرفة تناول القهوة. لكنهما لم يكادا يستقران في مجلسهما حتى أتى مدير المكان.

وتساءل قائلًا: «هل يصدف أن اسمك هيثرويك يا سيدي؟ تمامًا، شكرًا لك. لقد اتصل بك السيد مابرلي مرتين في غضون الساعة المنصرمة، وهو على الهاتف مرة أخرى الآن، إن كنت تريد الحديث إليه.»

قال هيثرويك: «سآتي.» همس إلى رونا وهو ينهض: «هذا موظف لديَّ. أخبرته أن يتصل بي هنا بين الثانية عشرة والثالثة إن كانت هناك ضرورة لذلك. سأعود في غضون دقيقة.»

لكنه غاب عدة دقائق، وحين عاد إليها مرة أخرى، كان وجهه متجهمًا. انحنى عبر الطاولة وهمس لها: «إليكِ تطوُّر جديد! لقد وجدت الشرطة الرجل الذي كان مع جَدك في القطار! يريد ماذرفيلد مني أن أتعرَّف عليه. وستفهمين من ذلك أنهم وجدوه ميتًا! ينبغي أن نتناول غداءنا سريعًا لنلحق بقطار الثانية وأربع وعشرين دقيقة.»

الفصل الثامن

شقق فليجوود المستأجَرة

عاد هيثرويك إلى هاتف الفندق مرة أخرى قبل أن ينتهي من غدائه، ونتج عن ذلك أنَّ مازرفيلد كان ينتظر على رصيف محطة فيكتوريا حين دخلها قطار الثانية وأربع وعشرين دقيقة. ولم يبدِ أيَّ دهشة لدى رؤيته لهيثرويك ورونا معًا؛ إذ كان جلُّ اهتمامه منصبًّا على أخذ هيثرويك واصطحابه بعيدًا عن المحطة. وحين رأى هيثرويك ذلك، ودَّع رونا وهمس لها أنه سيأتي إلى فندق مالتر قبل حلول المساء؛ وبعد بضع دقائق كان هو ومازرفيلد في سيارة أجرة تسرع بهما على طريق قصر باكينجهام.

تساءل هيثرويك قائلًا: «حسنًا؟ ذلك الرجل؟»

أجابه مازرفيلد: «لا أظن أن هناك أيَّ شك بأنه هو الرجل الذي رأيته مع هانافورد. إنه ينطبق على الأوصاف التي ذكرتها على أي حال. لكنني سأخبرك كيف عثرنا عليه. جاءني مساء أمس رجلٌ يُدعى آبليارد، وهو يملك متجرًا كيميائيًّا في طريق هورسفيري بويستمنستر: رجل في منتصف العمر من النوع الهادئ، وقد استهل حديثه بأن قال إنه نادرًا ما يمتلك الوقت لقراءة الجريدة ولولا ذلك لجاءنا من قبل. لكن تصادف أمس أنه أتى على نسخةٍ من جريدة تعود ليوم الأحد الماضي، وقرأ خبرًا عن قضية هانافورد. وبعد ذلك، تذكَّر شيئًا بدا أنه ربما يتعلَّق بالقضية. ذلك أنه كان قد نَشر قبل وقتٍ قليل إعلانًا يطلب فيه مساعدًا له؛ مساعدًا مؤهَّلًا. وقد أتاه اثنان من المتقدمين أو ثلاثة لكنهم لم يُرضوه بالشكل الكافي. وذات مساء لم يستطِع أن يقدِّم تاريخًا محدَّدًا له، لكني استنتجت من خلال أشياء كثيرة قالها أنَّ ذلك حدث في المساء نفسه الذي لقيَ فيه هانافورد حتفه، أتاه رجل وقدَّم طلبًا شخصيًّا. وقد وصفه آبليارد بأنه رجل متوسط الحجم هزيل البنية شاحب البشرة ذو وجه نحيل ولحية كثَّة وعينين واسعتين كبيرتين ويتمتع بذكاء كبير وأسلوب راقٍ ويرتدي ثيابًا رثة، ومن الجلي أنه في حاجة إلى المال ...»

صاح هيثرويك: «هذا هو الرجل، أُقْسم على ذلك! هل أعطى الرجل ذلك الكيميائي اسمه؟»

أجابه ماذرفيلد: «لقد فعل، أعطاه اسمه وعنوانه. قال بأن اسمه جايمس جرانيت، وعنوانه هو رقم ٨ في زقاق «فليجوودز رينتس» طريق جراي إن، من ناحية هولبورن. أخبر آبليارد بأنه كيميائي كفء، وقدَّم براهينه على ذلك وبعض المراجع. وقال أيضًا إنه لم يمتلك عملًا خاصًّا به قط، لكنه كان موظَّفًا من قبل لدى شركات إقليمية كبرى في وقت من الأوقات، وهو ما اتضح من المراجع بالفعل. ومؤخَّرًا كان يعمل موظفًا لدى شركة لتصنيع الكيماويات في إيست هام، وقد انهارت أعمالهم لسببٍ أو لآخر واضطروا إلى تقليل العاملين لديهم، وكان هو من بين مَن فقدوا عملهم، وزاد سوء حظه إذ أُصيب بمرض عضال. قال الرجل إنَّ ذلك استنفد موارده المالية الصغيرة، وإنه متلهف للحصول على وظيفة أخرى؛ كان متلهفًا جدًّا حتى إنه أتى لآبليارد بشروط منخفضة للغاية. أخبره آبليارد بأنه سيتقصى المَراجع وسيكتب له في غضون يوم أو اثنين. وقد تقصَّى بالفعل، ووجد أن المَراجع مُرضية إلى حدٍّ كبير، وكتب إلى جرانيت يطلب منه أن يعمل لديه. لكن جرانيت لم يظهر بعد ذلك أبدًا، ولم يسمع به آبليارد حتى قرأ جريدة يوم الأحد هذا. وحينها شعر بأن جرانيت هو بالتأكيد ذلك الرجل، فأتى إليَّ.»

علَّق هيثرويك قائلًا: «لا أظنُّ أن هناك أيَّ شك في هذا الأمر. لكن وقبل أن نقوم بأي خطوة أخرى، أريد أن أطرح سؤالًا. هل ذكر آبليارد الوقت الذي أتاه فيه هذا الرجل في ذلك المساء؟»

«لقد فعل. كان ذلك في الوقت الذي يغلق فيه متجره؛ أي التاسعة. وقد توقَّف جرانيت للحديث معه مدة نصف ساعة تقريبًا. الحق أنَّ آبليارد أخبرني بالمزيد. بعد أن انتهيا من حديثهما، أغلق آبليارد المتجر لأنه لا يعيش فيه، ودعا جرانيت لعبور الشارع معه وتناول مشروب قبل أن يذهب إلى المنزل. وقد تناولا مشروبًا معًا في حانة مجاورة، وراحا يتحدثان بعض الوقت هناك؛ وطبقًا لما ذكره آبليارد، فإن الساعة كانت قد شارفت على العاشرة حين غادره جرانيت. وتذكَّر آبليارد أن جرانيت استدار في اتجاه شارع فيكتوريا حين غادر، وكان في طريقه بلا أدنى شك إلى القطار النفقي.»

غمغم هيثرويك: «ودون شك أيضًا، قابل هانافورد في شارع فيكتوريا. وماذا عن بقية الأمر إذن؟»

أجابه ماذرفيلد: «حسنًا، فور أن علمت بكل هذا، عزمت على الذهاب بنفسي إلى فليجوودز رينتس بالطبع. كان أول شيء فعلته هذا الصباح هو أن ذهبت إلى هناك. إن

فليجوودز رينتس شارع عشوائي فقير، لا يحاول استئجار غرفة فيه سوى رجل يحتل مكانة هابطة للغاية في هذا العالم. وهو يشبه زقاقًا أو شارعًا قصيرًا يقع على الجانب الأيمن من طريق جراي إن، ويرتفع إلى الأعلى حيث توجد نصف دزينة من المنازل القذرة على كل جانب من جانبيه، وكلٌّ منها مقسم إلى شقق. كان المنزل رقم ٨ قذرًا للغاية بالفعل؛ إذ وجدت على بابه نساء قذرات وأطفالًا مزعجين، وكانت القذارة ورثاثة الهيئة تحيطان بالمكان من جميع النواحي. ولم تعرف أيٌّ من النساء الموجودات في المكان اسم جرانيت، لكن بعد أن وصفت لهنَّ الرجل الذي أبحث عنه، قلن إنه لا بد ذلك الرجل الذي يقطن الحجرة العلوية الخلفية، وأضفن أنهن لم يرينه منذ بضعة أيام. صعدت على سُلَّم قذر إلى الغرفة التي أشرن إليها؛ كان الباب موصدًا ولم أجد لطرقاتي المتكررة من مجيب. لهذا انطلقت بعدها لأعرف مالك المكان، وفي نهاية المطاف عثرت على رجلٍ تفوح منه رائحة الجِعَة في حانة مجاورة وضيعة. عرفت منه أن لديه مستأجِرًا يُدعى جرانيت كان يدفع له ستة شلنات في الأسبوع لقاء استئجار الغرفة الخلفية العليا، وتذكَّر الرجل فجأة أن جرانيت لم يدفع له إيجار الأسبوع الماضي. كان تأثير ذلك عليه أكبر من أي شيء قلته، وذهب الرجل معي إلى المنزل. ولكي أختصر عليك، كسرنا الباب ووجدنا الرجل ميتًا في سريره!»

قال هيثرويك متعجبًا: «ميت! تقول، ميت؟»

ردَّ عليه مازرفيلد في تجهُّم: «أجل، أقول وجدناه ميتًا، وكان ميتًا منذ عدة أيام، طبقًا لما قاله الأطباء. كان ميتًا من مدة طويلة! كانت الحجرة رديئة وضيعة لكنها كانت نظيفة؛ إذ يُرى من خلال الكثير من التفاصيل الصغيرة أنَّ الرجل كان معتادًا معيشةً أفضل من تلك. أما فيما يتعلَّق بالرجل نفسه، فمن الواضح أنه خلد إلى الفراش بالطريقة المعتادة. كانت ملابسه مطوية بعناية ومرتَّبة، وبجوار السرير كان ثمة كرسي عليه شمعة مشتعلة حتى نصفها وجريدة مسائية.»

أشار هيثرويك قائلًا: «من شأن هذا أن يحدِّد تاريخ الوفاة.»

أجاب مازرفيلد: «بالطبع؛ وكان هو التاريخ نفسه الذي مات فيه هانافورد. لقد دوَّنت ملحوظة دقيقة بشأن هذه الملابسات! بدا كل شيء وكأن الرجل خلد إلى فراشه بطريقته المعتادة تمامًا؛ إذ قرأ الجريدة لبعض الوقت، ثم أطفأ شمعته، وخلد إلى النوم ومات أثناء نومه.»

قال هيثرويك متعجبًا: «أجل! لكنني أتساءل ما سببُ موته؟»

قال مازرفيلد: «واتتني الفكرة نفسها تحديدًا، وذلك لمعرفتي بما أعرفه عن هانافورد. لكن الأطباء سيخبروننا بالمزيد بخصوص ذلك. ولكي أختتم الأمر، كان معي أحد رجالي فتركته مسئولًا عن الموقع، وذهبت للحصول على المزيد من المساعدة، وبعثت في طلب آبليارد. تعرَّف آبليارد على الرجل فورًا باعتباره الرجلَ الذي رآه. وقد وجدنا خطاب آبليارد بالفعل حين فتحنا الباب وكان بجواره خطاب أو اثنان آخران في الغرفة. هذا هو كل شيء إذن، عدا أنني أريد الآن معرفةَ ما إن كنت تستطيع تأكيد أنه هو ذلك الرجل الذي رأيته مع هانافورد، وأريد أن أفتح صندوقًا مغلقًا وجدناه في الغرفة؛ إذ ربما يحتوي على شيء قد يمدُّنا بمزيد من المعلومات. على كل حال، فتلك خطوة للأمام.»

أقرَّ هيثرويك قائلًا: «أجل، هذه خطوة. لكن لا يزال أمامنا عمل كثير علينا القيام به يا مازرفيلد. أعتقد أنه لا سبيل الآن إلى الشك في أن جرانيت التقى بهانافورد بعد أن انصرف من عند آبليارد؛ مما يشير إلى أن جرانيت وهانافورد كانا على معرفة سابقة أحدهما بالآخر. لكن بافتراض أنهما التقيا في العاشرة مساء أو بعدها بقليل؛ فإلى أين ذهبا، وأين أمضيا وقتهما من تلك الساعة إلى حين دخلا عربة القطار التي كنت أستقلها في محطة «سانت جايمس بارك»؟»

سأله مازرفيلد: «كم كانت الساعة حينها؟»

قال هيثرويك: «كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل؛ إذ كان القطار الذي أستقله هو آخر قطار يتجه شرقًا. وأنا لم ألحق به إلا في ميدان سلون. لكن يمكننا التحقُّق من الوقت حينها بالتحديد، بالدقيقة. ومع ذلك، وبعد أن التقى هذان الرجلان مصادفةً — مثلما أستنتج — فلا بد أنهما كانا معًا لساعتين أو ثلاث. فأين كانا؟ لا سيما في تلك الساعة من الليل. لا بد أن هناك طريقةً لمعرفة ذلك! رجلان، كلٌّ منهما لافت للانتباه بصورة كبيرة؛ لا بد أن أحدهم رآهما معًا في مكانٍ ما! محال ألَّا يكون أحدٌ قد رآهما.»

علَّق مازرفيلد: «أجل، لكن من خلال خبرتي يا سيد هيثرويك، فإن المحال هو ما يحدث! وفي مكانٍ مزدحم كهذا، حيث يكون كل رجل منشغلًا بأموره الخاصة، فإن تسعة وتسعين رجلًا من أصل مائة لا يلحظون أيَّ شيء إلا إن كان تحت أعينهم مباشرة. من المؤكد أننا إذا استطعنا معرفةَ ما إن كان جرانيت وهانافورد معًا في تلك الليلة أم لا، والمكان الذي كانا فيه، والمكان الذي ذهب إليه جرانيت بعد أن هرب في تشارينج كروس، فإن ذلك سيسهِّل الأمور كثيرًا. لكن كيف سنعرف ذلك؟ لقد حظيت تلك القضية بدعاية هائلة في الصحف كما تعلم يا سيد هيثرويك؛ فظهرت صور هانافورد وذُكرت تفاصيل

عن القضية برمَّتها وما إلى ذلك، لكننا وبشكل مثير للدهشة، لم نحصل إلا على القليل من المساعدة والمعلومات. سأخبرك بما علينا فعْله يا سيدي؛ إن ما نريده هو ذلك الرجل الطويل ذو المعطف والذي التقى بهانافورد في فيكتوريا! فمَن ذلك الرجل؟»

قال هيثرويك موافقًا: «بالفعل! لقد اختفى ذلك الرجل! من دون أي أثر له.»

قال ماذرفيلد بابتهاج: «حسنًا! لا يعرف المرء أبدًا متى سيعثر على الأثر. وها نحن أولاء هنا الآن في حي فليجوودز رينتس الكريه.»

توقَّفت سيارة الأجرة عند زقاق مظلم عالي الجدران ومرصوف بالحجارة، وقد بدا في تلك اللحظة ممتلئًا بالنساء والأطفال، وكذلك كانت النوافذ على كلا جانبيه أيضًا. كان المكان كله كئيبًا وله رائحة خبيثة، وشعر هيثرويك بالأسى تجاه الرجل البائس الذي كان حظه سيئًا بما يكفي لأن يجلبه إلى مكان كهذا.

قال ماذرفيلد وهما يشقَّان طريقهما عبر ذلك الحشد الرث الثياب الكريه الرائحة: «إن جريمة قتل أو انتحار أو وفاة مفاجئة لهي نفحة عطرة بالنسبة لهؤلاء الناس! إنه حدث في حيواتٍ تخلو من أيِّ أحداث.» وأضاف حين وصلا إلى بابٍ وقف عنده رجل شرطة يحرسه: «هذا هو المكان. وتلك هي الدَّرج؛ فلتحذر لكي لا تنزلق عليها؛ ذلك أن الخشب مكسور وعواميد الدرابزين مهشَّمة.»

تبِع هيثرويك مرشده إلى أعلى المنزل. وعلى باب آخرَ كان هناك ضابط شرطة آخر، وقد ساعدهما حين رأياه عند النظر من نافذة الدَّرج المغبَّشة بالأوساخ. وقد ابتهج وجهه بعد ضجرٍ حين رأى ماذرفيلد؛ فخطا خطوةً للخلف وفتح الباب الذي كان بجواره في هدوء. دلف الوافدان الجديدان إلى الغرفة على أطراف أصابعهما صامتين مراعاةً للمهمة التي تنتظرهما.

كان المكان مثلما وصفه ماذرفيلد، رديئًا لكنه نظيف ومرتب، ومن الواضح أنَّ ساكنه حاول أن يجعله قابلًا للسكن ومريحًا قدْر ما سمحت له الوسائل المتاحة. كانت هناك صورة أو اثنتان على الطاولة، ونصف دزينة من الكتب على خزانة الأدراج العتيقة، وبضع أزهار ذابلة وميتة في إناء متصدِّع على رف الموقد. رمق هيثرويك كل ذلك بنظرة سريعة، ثم التفت إلى ماذرفيلد الذي سحب الملاءة في صمت من فوق رأس الجثة الجامدة على السرير وأكتافها ونظر إلى رفيقه متسائلًا. فحص هيثرويك وجه الرجل المتوفَّى بدقة وعناية ثم أومأ بالإيجاب.

وقال: «أجل! هذا هو الرجل!»

سأله ماذرفيلد: «من دون شك؟»

قال هيثرويك مؤكِّدًا: «من دون أدنى شك. هذا هو الرجل الذي كان مع هانافورد في القطار. لقد تعرَّفت عليه في الحال.»

أعاد ماذرفيلد الملاءة والتفت نحو طاولة صغيرة كانت تحت النافذة. وقبع فوقها صندوق مربَّع الشكل عتيق الطراز مغلقًا بإحكام عند الزوايا.

وعلَّق قائلًا: «يبدو أن هذا هو الغرض الوحيد الخصوصي الذي كان يمتلكه. إنه مغلق بإحكام، لكن معي هنا أداة ستفتحه. أريد أن أعرف ما بداخله؛ فقد يوجد به شيء يمدُّنا بتلميحٍ ما.»

وقف هيثرويك بينما فتح ماذرفيلد القفل عنوة بأداة أخرجها من جيبه، وراح يفحص محتويات الصندوق. بدا أولًا أنه لا يوجد سوى أشياء قليلة من المرجَّح أن تكشف عن أيِّ معلومات. كانت هناك بذلة كاملة وزيٌّ مصنوع من كتان جيد؛ بدا وكأن جرانيت احتفظ بتلك الملابس بعناية أملًا في أن يشهد أيامًا أفضل. كان هناك المزيد من الكتب، وكلها ذات طبيعة تقنية تتعلق بالكيمياء؛ وكان هناك حقيبة صغيرة تحتوي على جهاز كيميائي، وحقيبة أخرى بها زوج من الموازين؛ وفي حقيبة ثالثة وجدوا مجهرًا.

غمغم ماذرفيلد قائلًا: «لم يكن قد استنفد جميع موارده، وإلا لرهن تلك الأشياء. تبدو جميعها من نوعية جيدة، وخاصة المجهر. لكنَّ هذا هو ما أريده بدرجة أكبر: الخطابات!»

سحب ماذرفيلد حزمتين من الخطابات، كانتا مرتَّبتين بعناية ومربوطتين بشريط. وبعد أن فكَّ الأربطة ونثر المظاريف بسرعة على الطاولة، وضع إصبعه فجأة على أحد العناوين.

وصاح قائلًا: «هاك يا سيد هيثرويك. هذا هو ما توقَّعت أن أجد، رغم أنني بكل تأكيد لم أعتقد أننا سنكتشف بهذه السرعة أنَّ الرجل كان يعيش في سيليثوايت قبل ذلك. انظر إلى هذا العنوان: السيد جايمس جرانيت، رقم ٧ فيكتوريا تيراس، سيليثوايت، يوركشاير. بالطبع! بهذه الطريقة عرف هانافورد وكان معه. كانا على معرفة سابقة. انظر، يوجد العديد من الخطابات.»

أخذ هيثرويك اثنين من المظاريف أو ثلاثة في يده وراح ينظر فيها بإمعان. ولاحظ في الحال ما لم يلحظه ماذرفيلد.

وقال: «صحيح! لكن الأكثر أهمية هو التاريخ. انظر إلى هذا، أترى؟ هذا يوضِّح أن جرانيت كان يعيش في سيليثوايت قبل عشر سنوات، وكان هانافورد يحدِّثه عن تلك الفترة في القطار.»

قال ماذرفيلد مُصدِّقًا: «حسن إذن، ها نحن أولاء نتوصَّل إلى شيءٍ ما! والآن سنعيد كل شيء إلى مكانه، وسآخذ الصندوق وأفحصه بعناية أكثر في وقت لاحق.» أعاد وضع الأشياء المختلفة في مكانها ولفَّ حبلًا حول الصندوق وعقده، ثم التفت نحو ملابس الرجل المتوفَّى والتي كانت موضوعة على كرسي مجاور ومطوية بعناية. ثم أردف يقول: «لم أُلقِ نظرة على جيوب هذه الملابس، سألقي نظرة سريعة؛ فالمرء لا يعرف أبدًا ما قد يجد.»

راح هيثرويك يراقب في صمت مرة أخرى. ولم يكن هناك الكثير مما يثير الاهتمام حتى سحب ماذرفيلد فجأة، ورقة مطوية من أحد جيوب المعطف. وبعد أن قام بفردها أطلق صيحة تعجُّب حادة.

وقال: «جيد! أترى هذا؟ ورقة جديدة من فئة خمسة جنيهات! أراهن أنَّه لم يمتلك هذه الجنيهات الخمسة إلا مؤخرًا! لقد حصل عليها في تلك الليلة بلا أدنى شك. ممَّن يا تُرى؟»

قال هيثرويك: «أقول إن هانافورد أعطاه إياها.»

لكن ماذرفيلد هزَّ رأسه نافيًا ووضع الورقة النقدية في جيبه.

وقال مؤكِّدًا: «هذا دليل دامغ. يمكنني تتبُّع ذلك.»

الفصل التاسع

زجاجة الدواء

ابتعد هيثرويك عن أجواء فليجوودز رينتس القذرة، وراح يفكِّر أكثرَ من أيِّ وقت مضى في هذا التطوُّر الجديد، واستمر هذا التفكير والتخمين على مدى ما تبقَّى من ذلك اليوم، ومعظم اليوم الذي يليه. بدت له وفاة جرانيت المفاجئة والتي تلت وفاة هانافورد كأنها دليل دامغ على أن هناك خلفَ هذا اللغز أكثر مما يتصوَّره أيُّ أحد حتى الآن. وعلى الصعيد الشخصي، لم يكن لدى هيثرويك أدنى شك أن أيًّا كان الذي سمَّم هانافورد قد سمَّم جرانيت أيضًا. ولم يفاجَأ على الإطلاق حين دلف ماذرفيلد إلى شقته في وقتٍ لاحق من ظهر اليوم التالي لزيارته لدوركينج، وبدا على وجهه أنه يحمل الكثير من الأخبار.

قال هيثرويك وهو يومئ إلى زائره بأن يجلس على أحد الكراسي الوثيرة: «أعرف ما ستخبرني به يا ماذرفيلد. لقد أجرى الأطباء فحصَ ما بعد الوفاة على جرانيت، ووجدوا أنه مات مسمومًا.»

بُهت ماذرفيلد؛ إذ سُلِبت منه فرصة القيام بعرض درامي.

وأجاب: «الحق أنَّ هذا تحديدًا هو ما كنت سأخبرك به. هذا ما يقولون بالفعل. وهم الأطباء أنفسهم الذين أجروا فحصَ ما بعد الوفاة على هانافورد. ألا يفاجئك ذلك؟»

أجاب هيثرويك: «كلا على الإطلاق. لقد توقَّعت ذلك. هل الأطباء واثقون من ذلك؟»

«واثقون تمامًا! بالرغم من ذلك، فمثلما كان الحال في قضية هانافورد، هم غير متيقنين من نوع السُّم المستخدَم بالتحديد. لكنهم اتبعوا الإجراء الذي اتخذوه في قضية هانافورد أيضًا، وأحالوا القضية برمَّتها إلى اثنين من أكبر الأطباء في هذا المجال؛ أحدهما هو الرجل الذي تستعين به دائمًا وزارة الداخلية في هذه الأمور، والآخر هو متخصِّص شهير في مستشفى «سانت مارثا» نسيتُ اسمه الآن. سيشرعون في العمل؛ إذ إنهم يعملون

على حالة هانافورد الآن. أفهم أن هذه المهمة صعبة؛ فهذا سمٌّ غامض للغاية، والأرجح أنه غير معروف إلا على نطاق ضيق للغاية. لكنني أظنُّ أن لدينا تلميحًا عنه.»

قال هيثرويك متعجبًا: «تلميح! عن السُّم؟ ما ذلك التلميح؟»

أجابه مازرفيلد: «حسنًا، الأمر كما يلي. بعد أن غادرت فليجوودز رينتس ظهر الأمس، وبينما كنتُ أقوم بالترتيبات من أجل رفع جثة ذلك الرجل المسكين ألقيت على الغرفة نظرة أخرى متأنية. والآن، إن كنت قد لاحظت الأشياء بدقة كما كانت، فربما انتبهت إلى أن جزءًا من سرير جرانيت، وبالتحديد مقدمة السرير، كان يقع فيما يشبه الكوَّة. وفي زاوية تلك الكوَّة أو التجويف، وجدت زجاجة وكأسًا حيث كان يمكن لجرانيت أن يضعهما إذا ما مدَّ يده من السرير. كانت الزجاجة هي زجاجة دواء عادية، لكنها لم تكن كبيرة للغاية. كانت السِّدَادة الفلينية موجودة فيها، وكان بها من السائل بوصة تقريبًا، وبعد أن أزلت الفلينة وجدت أن السائل هو الويسكي، ومن خلال رائحته يتسنى لي القول إنه كان من نوعية فاخرة للغاية. لكنني لاحظت أن هناك أثرًا طفيفًا للغاية لراسبٍ ما في قعر الزجاجة. وكان هناك أثر لراسب مشابه في قعر الكأس أيضًا. وحينها بالطبع، وضعت تلك الأشياء بعناية في علبة وأغلقتها وسلَّمتها إلى الأطباء. كان واضحًا تمامًا لي، من خلال إعادة بناء الأحداث كما تعلم، أنَّ جرانيت صنع لنفسه من تلك الزجاجة مشروبًا أو لنقل كأسًا مسائية، وذلك حين خلد إلى فراشه، ثم وضع الزجاجة والكأس من يده بجوار مقدمة السرير في الركن. ومثلما أنوي تتبُّع تلك الورقة النقدية من فئة الجنيهات الخمسة، فإنني أنوي تتبُّع تلك الزجاجة!»

سأله هيثرويك باهتمام كبير: «كيف ذلك؟ إلى ماذا ستتتبَّعها أو لمن؟»

أجابه مازرفيلد: «إلى الكيميائي الذي أتت من عنده. لقد أتت من عند أحدهم، وسأجده!»

قال هيثرويك: «هناك مئات من الكيميائيين في لندن، إنها مسألة عويصة.»

قال مازرفيلد مؤكِّدًا: «ستتم هذه المهمة على أي حال. وقد لا تكون عويصة بقدْرِ ما تبدو عليه من الوهلة الأولى. انظر! كان يوجد على تلك الزجاجة ملصقان، صحيح أن كليهما ممزَّق ومشوَّه، لكن لا يزال لدينا ما يكفي لتضييق نطاق البحث. لقد طلبت تصوير وجه الزجاجة، وإليك نسخة من الصورة.»

أخرج نسخة من صورة فوتوغرافية حديثة الطباعة قد وُضعت على بطاقة، وسلَّمها إلى هيثرويك الذي أخذها ورفعها في الضوء وراح يفحصها بعناية. كانت الصورة لواجهة

زجاجة الشراب، وعليها ملصق في أعلاها وآخر في أسفلها. كان كلا الملصقين ممزَّقين، وكأنَّ الهدف من ذلك هو طمس الأسماء والعناوين، لكن كان لا يزال يوجد الكثير من الأحرف المتبقية.

سي. إيه
المحترم،
المزيج كالسابق
برقم إيه.١١٥٢
احذر. رُكِّب هذا الشراب على يد كيميائي مؤهَّل تمامًا مع ... إلى الأدوية المحتملة ... مضمون ... أمنيات ... بريس ...

إم. بي. إس.
إس تي. دبليو. سي.

علَّق مازرفيلد قائلًا: «ذلك الملصق السفلي هو المفتاح يا سيد هيثرويك. سأملأ تلك المسافة باسم الكيميائي وعنوانه، وسرعان ما سأكتشف مَن يكون سي. إيه المحترم هذا! يوجد محل ذلك الكيميائي في حي ويست سنترال، وهو أحد أعضاء جمعية الصيادلة، سيوجد في سجلاته شخص يكون الحرفان الأولان من اسمه: «سي» و«إيه»، وسيتعرف على الرقم: «إيه ١١٥٢» الموضوع على الوصفة الطبية. هذا دليل ثابت؛ وحتى إن كان هناك عشرات الكيميائيين في حي ويست سنترال، كما هو الحال بلا أدنى شك، فسوف أتعقَّب ذلك الملصق حتى النهاية!»

أعاد هيثرويك الصورة وبدأ يذرع أرضية الحجرة جَيئة وذهابًا. وفجأة التفت إلى زائره وكان قد قرَّر أن يخبره بما كان يقوم به هو نفسه.

فقال وهو يهوي على الكرسي مرة أخرى وينتقي نبرةً تنم عن الثقة: «مازرفيلد، ماذا تفهم من كل هذا؟ أقصد، ما نظريتك؟ أمنْ رأيك أن وفاة هذين الرجلين متسقة إن جاز التعبير؟»

أجابه مازرفيلد بإيماءة مؤكِّدة: «هذا هو رأيي! صرت متأكدًا من ذلك بقدرِ ما أنا متأكد من أنني أراك الآن يا سيد هيثرويك. حالتا الوفاة متسقتان بكل تأكيد! ومَن سمَّم هانافورد سمَّم جرانيت أيضًا! سأخبرك كيف أدركت ذلك حيث إن الأطباء لم يخبروني

برأيهم عن حالة جرانيت إلا قبل ساعتين فقط. بهذه الطريقة: كان كلٌّ من هانافورد وجرانيت على معرفة أحدهما بالآخر في سيليثوايت قبل عشر سنوات. وتلك الليلة التي ترك فيها جرانيت آبليارد على طريق هورسفيري ودلف إلى شارع فيكتوريا، قابل هانافورد بمحض الصدفة.»

سأله هيثرويك: «لماذا بمحض الصدفة؟»

قال مازرفيلد: «حسنًا هذا ما أظن. لقد فكَّرت في الأمر بهذه الطريقة. وربما التقيا وفقًا لموعد بالطبع. لكنهما التقيا على أي حال، ونحن نعرف هذا. والآن، أين قضيا الوقت بين ساعة لقائهما وساعة ركوبهما عربةَ القطار في «سانت جايمس بارك»؟ لا نعرف. لكن هنا يدخل عامل غير معروف؛ ماذا عن ذلك الرجل الغريب في فيكتوريا؛ ذلك الرجل المغطَّى حتى عينيه؟ ثمة أمران أفكِّر فيهما يا سيد هيثرويك. هل كان هانافورد هو مَن اصطحب جرانيت لمقابلة ذلك الرجل، أم التقى هانافورد وجرانيت لدى ذلك الرجل؟ ذلك أنني أرى أن ذلك الرجل — أيًّا مَن كان — هو المسئول عن كل شيء.»

سأله هيثرويك: «ولمَ التقيا لدى ذلك الرجل؟»

فأجابه مازرفيلد: «في الواقع، أظنُّ أن السر الخاص بهانافورد له علاقة بهذا الأمر. كان معه المظروف المغلق حين غادر فندق مالتر، وكان المظروف قد اختفى حين فتَّشنا ملابسه بعد وفاته. تقول الحفيدة إن الأمر له علاقة بمواد كيميائية. فماذا لو كان ذلك الرجل الطويل الموشَّح أحد الأشخاص الذين أراد هانافورد رأيهم العلمي، وأنهما التقيا في فيكتوريا وذهبا إلى شقته في مكانٍ ما في ذلك الحي؟ وماذا لو أن جرانيت، وهو أيضًا يعمل في مجال الكيمياء، أتى إلى هناك وهو يعرف كلاهما؟ وماذا لو أن الرجل الموشَّح سمَّمهما كليهما ليحتفظ بالسر بنفسه؟ أترى ما أرنو إليه؟ جيد جدًّا! أنت تفهمني الآن. يكمن السر في تتبُّع ذلك الرجل، أيًّا كان هو. أتمنى لو كنت أعرف سرَّ هانافورد ذلك، أو طبيعته بالتحديد.»

قال هيثرويك: «سأخبرك يا مازرفيلد! لقد كنت صريحًا معي للغاية، وسأبادلك هذه الصراحة بشرط أن نعمل معًا من هذه النقطة. الواقع أنني كنت أعمل أيضًا. أنا مهتم للغاية بهذه القضية. منذ اللحظة التي رأيت فيها هانافورد يموت في القطار وبتلك الطريقة المريعة الغريبة، فقد أثار الأمر اهتمامي، وسأعمل حتى أصل إلى حل هذه القضية. والآن سأخبرك بكلِّ ما كنت أقوم به وما أتيت على اكتشافه. فاستمع إليَّ بعناية.»

وأكمل يقول لزائره تفاصيل زيارته كلها إلى سيليثوايت، وعن نتائج تحقيقاته هناك، وعما ستفعله رونا وعن ملاحظتها في قصر ريفرسريد. وراح ماذرفيلد يستمع في صمت وانهماك.

ثم تساءل فجأة بعد انتهاء هيثرويك من حديثه: «هل ستحصل الآنسة هانافورد على تلك الوظيفة إذن؟ أحُسِم ذلك الأمر؟»

أجابه هيثرويك: «من الناحية العملية، أجل. لقد وصلني خطاب من الليدي ريفرسريد هذا الصباح، ووصل السيد كينثوايت خطاب أيضًا. وقد أعطينا الآنسة هانافورد، والمعروفة لدى الليدي ريفرسريد باسم الآنسة فيذرستون، توصيات جيدة للغاية من أجل الحصول على الوظيفة، وأتوقَّع أنها ستتصل تليفونيًّا بالآنسة هانافورد فور أن تصلها خطاباتنا وتخبرها بأن عليها المجيء في الحال. وحينها ستذهب.»

سأل ماذرفيلد: «لتعمل ... جاسوسة؟»

قال هيثرويك موافقًا إياه: «أجل، إن أردت أن تطلق عليها ذلك. بالرغم من ذلك، فقد كوَّنت الآنسة هانافورد رأيًا إيجابيًّا عن الليدي ريفرسريد بناءً على ما رأته منها بالأمس. غير أنني واثق تمامًا بأنها مرتبطة بهذه المسألة بطريقة أو بأخرى، وربما كان ارتباطها بريئًا، لكن علينا ألَّا نضيِّع أيَّ فرصة.»

سأله ماذرفيلد: «وهل ستمدك الآنسة هانافورد بالتقارير؟»

«بالضبط! إن عمل الآنسة هانافورد لا يشتمل على القيام بالأعمال أيام الأحد؛ لذا فستأتي هي إلى المدينة في أيام الآحاد، وستخبرني بأي شيء يستحق الذكر. إنها فتاة ذكية وماهرة يا ماذرفيلد، وستبقى حذرة ومنتبهة.»

أومأ ماذرفيلد وجلس صامتًا لحظة، وبدا جليًّا أنه كان غارقًا في أفكاره.

ثم قال فجأة: «حسنًا، إنها فتاة ماهرة، هذا صحيح بالطبع! أممم! أتساءل الآن مَن تكون تلك السيدة ريفرسريد حقًّا؟»

قال هيثرويك ضاحكًا: «تلك الليدي ريفرسريد! إنها امرأة من صاحبات الملايين!»

«حقًّا، هكذا إذن؛ لكن مَن كانت قبل زواجها؟ إن كانت هي المرأة المعروفة باسم السيدة ويتينجهام ...»

«أفي ذلك شك بعد ما توصلت إليه؟»

«المرء لا يعرف أبدًا يا سيد هيثرويك! باركك الرب! إنهم يتحدثون عن طائلة الصدف. عجبًا، لقد عرفت في أثناء خدمتي بأشياء تجعلني أشعر بأنه لا يوجد شيء

مثير للدهشة حتى في أكثر الصدف إثارة للدهشة! لكن، إذا كانت الليدي ريفرسريد هي السيدة ويتينجهام قبل ذلك، فسأرغب في أن أعرف كل شيء حدث للسيدة ويتينجهام حتى أصبحت الليدي ريفرسريد، ومَن كانت قبل أن تكون السيدة ويتينجهام، إن كانت هي السيدة ويتينجهام في الأساس!»

قال هيثرويك: «هذه مهمة عويصة يا ماذرفيلد. أعتقد أننا سيكون لدينا من العمل ما يكفي بمراقبة الليدي ريفرسريد.»

سأله ماذرفيلد: «أتتوقَّع شيئًا هناك؟»

فأجابه هيثرويك: «أظنُّ أن شيئًا قد يكشف عن نفسه.»

هنا نهض ماذرفيلد واقفًا.

وقال: «حسنًا، أعلمني بالمستجدات، وسأعلمك أنا أيضًا بالمستجدات. فلدينا دليل نتَّبعه، والرب وحده يعلم ما سنتوصَّل إليه من ذلك!»

وسأله هيثرويك: «هل تبذل قصارى جهدك في تتبُّع ذلك الرجل الطويل؟»

صاح ماذرفيلد بامتعاض: «قصارى جهدي! لقد بذلنا قصارى جهدنا ثم بذلنا المزيد! لقد وضعت عملاء سريين في كل مكان في حي فيكتوريا، وأظن أن كل رجل طويل في تلك المنطقة كان تحت المراقبة. وأظن أن السيد ليدبيتر كان عازمًا على إيجاده حتى إنه كان يُمضي وقت فراغه كلَّه في التجول في الحي وفي زيارة المطاعم والبارات بحثًا عن الرجل الذي رآه، لكن من دون أي نتيجة بالطبع!»

قال هيثرويك: «الأمر سيان! ذلك الرجل يقبع في مكانٍ ما!»

غادر ماذرفيلد، ولم يرَه هيثرويك مرة أخرى لعدة أيامٍ، إلا في أثناء التحقيق الخاص بجرانيت والذي لم يسفِر عن شيء لم يكن معروفًا بالفعل. ولم يحرز هيثرويك أيَّ تقدُّم في تحقيقاته التي يقوم بها خلال تلك الفترة. كانت رونا هانافورد قد ذهبت إلى قصر ريفرسريد باعتبارها سكرتيرة الدار التي افتتحتها سيدة القصر، ولم يسمع هيثرويك عنها شيئًا حتى يوم الأحد الذي تبِع يوم رحيله. بعد ذلك، أتت رونا إلى المدينة صبيحة يوم الأحد، ووفقًا لترتيبهما السابق، قابلها هيثرويك في فيكتوريا، واصطحبها لتناول الغداء في فندق مجاور.

سألها هيثرويك حين استقرَّا وأخذا يتناولان الحساء: «هل هناك شيء تخبرينني به؟ هل حدث أي شيء؟»

أجابته رونا: «لا شيء! كل شيء يبدو طبيعيًّا للغاية، والأمور تسير بمهنية وانتظام. وتبدو لي الليدي ريفرسريد قدوة من نوعٍ ما؛ فتفانيها لتلك الدار ونزلائها بارز ورائع! لا أظن أن شيئًا سيحدث، أو أنه سيكون لديَّ ما أنقله لك.»

قال هيثرويك: «حسنًا، سيكون لذلك إيجابياته. سيترك لنا وقتًا أطول لأنفسنا، أليس كذلك؟»

نظر إليها واستجابت رونا لنظرته بخجلٍ لكن بطريقةٍ لا لبس فيها؛ إذ كانت تعرف مثلما يعرف هو، أنهما مولعان أحدهما بصحبة الآخر. وظلا يلتقيان أيام الآحاد، ومر ثلاثة أسابيع أو أربعة دون أن يكون لديها أي معلومة ذات صلة بلغز هانافورد وجرانيت.

انقضت أسابيع ثلاثة قبل أن يكون لدى ماذرفيلد أيُّ أخبار هو أيضًا. وذات صباح دلف إلى شقة هيثرويك وقد بدا وجهه أنه يحمل أخبارًا.

فقال: «تتبعتها! كنت أعرف أنَّ عليَّ فعلَ ذلك! تلك الورقة النقدية فئة الخمسة الجنيهات، التي كانت جديدة تمامًا. لم تكن إلا مسألة وقت بالطبع.»

سأله هيثرويك: «وهل من أخبار؟»

أكمل ماذرفيلد يقول: «كانت واحدة من بين خمسة وعشرين جنيهًا دفعها الصرَّاف في بنك «لندن آند كانتري» في بيكاديلي إلى سكرتير «فيفيان». وكان ذلك بتاريخ اليوم السابق لمقتل هانافورد. اسمح لي أن أخبرك بأن «فيفيان» نادٍ ليلي مرموق. فكيف وصلت تلك الورقة النقدية إلى يد جرانيت؟ ستكون مهمة معرفة ذلك عويصة!»

قال هيثرويك بشيء من الدعابة: «عويصة لدرجةِ أنه يؤسفني إخبارك ألا تطلب مني الاشتراك فيها. ينبغي عليَّ أن ألتزم بخطتي، حين تأتي الفرصة.»

وحانت الفرصة في يوم الأحد التالي، حين قابل رونا وفقًا للعادة التي ترسَّخت بينهما. رمقت رونا هيثرويك بنظرة مميزة فور أن خرجت من القطار.

قالت وهما ينصرفان عن الرصيف: «لديَّ أخبار، أخيرًا! لقد حدث أمرٌ ما، لكنني لا أعرف ما يعنيه ذلك.»

الفصل العاشر

الزائر الغامض

صار النادل الرئيس في المطعم الذي يرتاده هيثرويك ورونا كلَّ يوم أحد عقب وصول رونا مباشرةً، يعرفهما الآن جيدًا بالنظر، ولمَّا كان قد شكَّل استنتاجاته الخاصة عنهما، كان يحجز لهما على الدوام طاولة في زاوية منعزلة وهادئة. وهناك كانا يكملان حديثهما، وما إن استقرَّا في مكانهما المعتاد حتى راحت رونا تقص قصتها.

قالت: «أعتقد أنك الآن تريد أن تعرف كلَّ شيء؛ لذا فلن أجعلك تنتظر كثيرًا. حدث الأمر يوم الجمعة صباحًا وفكَّرت أن أبعث إليك خطابًا بخصوص الأمر في مساء ذلك اليوم. غير أنني عدلت عن ذلك؛ إذ وجدت أنه سيكون من الأفضل أن أخبرك بصورة شخصية اليوم، ثم إنَّ الخطاب كان سيطول للغاية. ثمة أشياء تستوجب الشرح؛ فمن الأفضل أن أشرحها أولًا. ترتيباتنا هناك في قصر ريفرسريد على سبيل المثال. إنها كالآتي: دائمًا ما نفطر أنا والليدي ريفرسريد معًا في القصر في حدود الساعة التاسعة. وفي العاشرة نذهب إلى الدار. لدينا هناك ما يشبه مكتبًا رسميًّا يتكوَّن من غرفتين؛ أولاهما لي وهي تفتح على الرَّدهة، والثانية تؤدي إلى الخروج من الرَّدهة وهي خاصة بالليدي ريفرسريد. وفي الرَّدهة نفسها لدينا رجل كان يعمل في الجيش سابقًا، واسمه ميتشيل، وهو يعمل حارسًا في الرَّدهة وينتبه إلى الباب وما إلى ذلك. نقضي الصباح بأكمله في انشغال بالخطابات والحسابات وتقارير العاملين وما إلى ذلك من أعمال. نتناول الغداء في الدار، وعادة ما نظل في انشغالنا حتى الساعة الرابعة أو الخامسة. هل فهمت كل ذلك؟»

أجابها هيثرويك: «كل تفصيلة! واضح تمامًا.»

أكملت رونا تقول: «جيد للغاية. تبقى تفصيلة أخرى مع ذلك. وهي أنَّ الكثير من الأشخاص يأتون لزيارة الدار، وغالبًا ما يكونون من المجال الطبي وأولئك المهتمين بالمستشفيات ودُور الرعاية، وهم يرغبون في التعرُّف على المكان، والذي يسعني أن أقول

لك استطرادًا إنه يكلِّف الليدي ريفرسريد مبلغًا كبيرًا جدًّا من المال! وتقتضي تعليمات ميتشيل لكل الزائرين أن يُحضِروا بطاقاتهم إليَّ إذ أقوم أنا بلقائهم أولًا، وأتعامل معهم إن كان بإمكاني ذلك؛ أو آخذهم إلى الليدي ريفرسريد إن رأيت أن ذلك ضروري أو مستحسَن. ذلك أنه ينبغي علينا فرزهم؛ فأنا واثقة من أن بعضهم يأتينا لا لشيء إلا إرضاء فضولهم، والحق أننا لا نرغب إلا في لقاء العاملين في المجال الطبي المهتمين بالمكان بصدق وبإمكانهم أن يفعلوا شيئًا من أجله، أو الأشخاص الوثيقي الصلة بنزلاء الدار. والآن، وفي يوم الجمعة الماضي قرابة انتهاء الصباح إذ كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة إلا الربع، وبينما كنت مشغولة بخطابات كانت معي سمعت سيارة تقترب ثم دخل ميتشيل إلى غرفتي ومعه بطاقة تحمل اسم الدكتور سيبريان باسيفيري. لم تكن البطاقة من النوع المنقوش وفقًا لجميع المعايير المعترَف بها، بل كانت مطبوعة؛ وكان ذلك أول شيء لاحظته.»

علَّق هيثرويك معبِّرًا عن إعجابه: «قدراتك على الملاحظة ممتازة، وستفيدنا كثيرًا بلا شك.»

ردَّت عليه رونا ضاحكة: «أشكرك على المجاملة! لكن ذلك لم يكن في حاجةٍ لدقة الملاحظة.» وأردفت تقول: «كان الأمر جليًّا. لكنني سألت ميتشيل عما كان يريده الدكتور باسيفيري، وأجاب ميتشيل بأن الرجل يرغب في لقاء الليدي ريفرسريد. ونحن لا نرد الأطباء أبدًا كما ذكرت من قبل؛ لذا طلبت من ميتشيل أن يحضر الدكتور باسيفيري إليَّ. وبعد دقيقة دخل الدكتور باسيفيري. أريد أن أصفه لك على وجه الدقة وأريد منك أن تستمع إليَّ بإمعان. تخيَّل رجلًا متوسط الطول، لا هو ببدين ولا هو بنحيل، لكنه ممتلئ الجسم على نحوٍ جيد، ويبدو في الخامسة والأربعين من عمره، ويرتدي ثيابًا أنيقة ورائعة تتمثل في معطف صباحي أسود وسترة تحتية، وبنطال بخطوط داكنة، وفيما يتعلَّق بقماش ملابسه ورابطة عنقه فقد كان نظيفًا للغاية، كما كان يلبس قبعة حريرية جديدة وزوج قفازات بلون رمادي فاتح، ويحمل مظلة بلون ذهبي ملفوفة بعناية. وبالتبعية، كان الرجل يرتدي سلسلة ساعة رفيعة بلون ذهبي وطاقمًا أبيضَ وحذاءً ملمَّعًا بعناية. هل استوعبت ذلك؟»

قال هيثرويك موافقًا: «يمكنني تصوُّره؛ أقصد ملبَسه وشكله. يبدو من ممارسي الطب المتأنقين بلا شك! لكن كيف يبدو الرجل نفسه؟»

أكملت رونا تقول: «والآن أصفُ لك وجهه. تخيَّل رجلًا لا يُرى الدم في محياه أبدًا؛ وجه بلون العاج القديم تنيره عينان ثاقبتان للغاية وسوداوان كالبرقوق البري، ويزداد

شحوب وجهه بروزًا بفعل شارب ثقيل بلون أسود وشعر بالسواد نفسه ومجعَّد قليلًا، كان شعره كثيفًا بما يكفي فوق أذنيه لكنه يصبح متناثرًا وخفيفًا عند هامته. تخيَّل أيضًا شفتين حمراوين ممتلئتين فوق ذقن مستدير لكنه محدَّد الملامح وأنف معقوف بشكل واضح، وبهذا يكون أمامك الرجل الذي أصفه!»

قال هيثرويك وهو غارق في التفكير: «أممم! أظن أنه عبري، من خلال ما قدَّمتِ من وصف.»

وافقته رونا قائلة: «هذا هو ما ظننته أيضًا. قلت لنفسي في الحال: «أيًّا ما تكون يا صديقي فإنك يهودي!» لكن تصرفات الرجل وحديثه كانا يوحيان بأنه إنجليزي بما يكفي، بل إنجليزي للغاية. كان الرجل يتمتع بسيماء الممارس الطبي الذي يتمتع بالخبرة في مجاله، والمحنَّك في الحياة أيضًا، ورأيت في الحال أن أيَّ شخص سيحاول مبارزته ستنتهي به الحال في المرتبة الثانية. كان تفسير الرجل لحضوره منطقيًّا ومألوفًا بما يكفي؛ وهو أنه كان شديد الاهتمام بنوعية الحالات التي تتلقى الرعاية في الدار، وأنه يرغب في الاطلاع على الطرق والترتيبات التي نتَّبعها وما إلى ذلك. وقد استخدم عدة مصطلحات وجمل تقنية تتخطى حدود قدراتي المتواضعة، فحملت البطاقة الخاصة به إلى الليدي ريفرسريد. وهي مستعدة لإجراء المقابلة على الدوام حين يتعلَّق الأمر بطبيب، وفي غضون دقيقتين كان الدكتور باسيفيري يجلس معها على انفراد.»

قال هيثرويك: «هذه هي نهاية الفصل الأول، أليس كذلك؟ مثير للغاية! نهاية موفَّقة! ماذا عن الفصل التالي؟»

أجابته رونا: «دارت أحداث الفصل الثاني في حجرة الليدي ريفرسريد، ولا يمكنني حتى أن أخمِّن طبيعة تلك الأحداث. لا يمكنني أن أخبرك إلا بالأشياء التي أعرفها. لكنني أعرف الكثير. في البداية، وعلى الرغم من أن الدكتور باسيفيري أخبرني أنه يرغب في رؤية الدار، وهو ما يعني في الحالة المعتادة أن تأخذه الليدي ريفرسريد في جولة أو أن يتجوَّل مع الطبيب المقيم في الدار، فإنه لم يذهب في جولة لرؤية الدار. لم يغادر تلك الغرفة قط منذ دخلها وحتى اللحظة التي غادر فيها. وقد ظلَّ فيها مدة ساعة كاملة!»

«مع الليدي ريفرسريد؟»

«مع الليدي ريفرسريد! هي أيضًا لم تغادر الغرفة قط. وأنا لم أدخلها؛ فهي تكره أن أدخل عليها إن كان معها أحد في أي وقت. لا! كان الاثنان هناك معًا، منذ الثانية عشرة إلا عشر دقائق وحتى الواحدة إلا خمس دقائق. لكن الرجل قال إنه كان يرغب في القيام بجولة في الدار!»

سألها هيثرويك: «هل هناك طريقة أخرى يمكن لهما بها أن يغادرا الغرفة؟ باب آخر أو نوافذ خلفية؟»

«ليس هناك أي شيء من هذا القبيل. الباب الذي يؤدي إلى غرفتي هو الوسيلة الوحيدة لدخول حجرة الليدي ريفرسريد أو الخروج منها. لا، كانا في الغرفة طوال الوقت.»

«هل سمعتِ أيَّ شيء؟»

«لا شيء! إن المنزل الذي أنشأت فيه الليدي ريفرسريد هذه الدار عتيقٌ وراسخ ومؤسَّس بإحكام؛ فهو ليس كالمنازل الحديثة السيئة الصنع؛ بل إنه أفضل كثيرًا من القصر وبضخامته نفسها. وكل الأبواب والنوافذ تُغلق بإحكام؛ فلم يحدث قط أن سمعت أيَّ صوت من داخل الغرفة.»

سألها هيثرويك بعد تفكير طويل: «حسنًا، وماذا حدث بعد مرور الساعة؟»

«بعد مرور ساعة فُتِح الباب فجأةً وخرج منه الدكتور باسيفيري وفي يده القبعة والقفاز والمظلَّة. واستدار نصف دورة بينما كان يخرج وقال بضع كلمات لليدي ريفرسريد. وقد سمعت تلك الكلمات. قال لها: «حسنٌ إذن، يوم الجمعة القادم في الموعد نفسه؟» ثم أومأ ودلف إلى حجرتي وأغلق الباب خلفه، وانحنى لي انحناءة دمثة للغاية وهو يبتسم بينما كان يمر من أمام مكتبي، ثم خرج. وبعد لحظة انطلق في سيارة كانت تنتظره عند المدخل طوال هذا الوقت.»

سألها هيثرويك: «أعتقد أن هذه هي نهاية الفصل الثاني، هل هناك المزيد؟»

أجابت رونا: «أجل، تتبقى بعض الأمور. في أثناء الساعة التي قضاها الدكتور باسيفيري مع الليدي ريفرسريد كنت أنا مشغولة في كتابة الخطابات على الآلة الكاتبة. وحين غادر أخذتها إلى غرفتها كي توقِّع عليها. أعتقد أنني كنت فضولية بعض الشيء حيالَ ما حدث للتو، وربما كنت أكثر انتباهًا من المعتاد؛ على أي حال، شعرت بأنني واثقة من أن زيارة ذلك الرجل، أيًّا كان هو، تسبَّبت في انزعاج كبير لليدي ريفرسريد. فقد بدا ذلك واضحًا عليها.»

سألها هيثرويك: «كيف بالتحديد؟»

«في الواقع، لا يمكنني أن أصفَ ذلك بالتحديد. ربما لم يكن لأي رجل أن يلاحظ انزعاجها. لكني لاحظته لأنني امرأة. كانت مضطربة، وكأنها تشعر بالانزعاج، أو الكرب أو الدهشة أو شيء كهذا. لقد رأيت هذه العلامات على امرأة، ولا يمكنني أن أخطئ تأويلها لأنني أنا أيضًا امرأة. كانت زيارة ذلك الرجل مزعجةً ومثيرة للقلق. أنا واثقة من ذلك كما أنا واثقة الآن أن هذا لحم ضأن مشويٌّ.»

«هل قالت أيَّ شيء؟»

«لم تنطق ولو بكلمة واحدة. كانت صامتة على غير العادة، بل واجمة في الواقع. أخذت الخطابات في صمت، ووضعت إمضاءها في صمت. لا، بعد التفكير، لم تتحدث الليدي ريفرسريد بأي كلمة قط حين كنتُ في الغرفة. أخذت منها الخطابات وبدأت أضعها في مظاريفها. وبعد ذلك ببرهة قصيرة خرجت الليدي ريفرسريد عبر غرفتي وغادرت، ورأيتها تسير نحو القصر. ولم تظهر الليدي ريفرسريد في وقت الغداء المعتاد في الدار، ولم أرَها مرة أخرى في تلك الظهيرة. الحق أنني لم أرَها مرة أخرى طوال ذلك اليوم؛ فحين عُدت إلى القصر في الخامسة مساءً، أخبرتني خادمة الليدي ريفرسريد أن سيدتها ذهبت إلى المدينة ولن تعود إلا في وقت متأخر من المساء. وقد خلدت إلى الفراش قبل عودتها.»

سألها هيثرويك: «ماذا عن صباح اليوم التالي؟»

«في صباح اليوم التالي كانت كالمعتاد منها، وسارت الأمور بالشكل المعتاد لها.»

قال هيثرويك سائلًا: «هل تحدَّثت لك عن ذلك الرجل وعن زيارته؟»

«لا، لم تتحدَّث عنه بكلمة. لكنني اكتشفت بنفسي شيئًا عنه في ظهر يوم الجمعة.»

«ماذا وجدتِ؟ أهو شيء ذو صلة؟»

«قد يكون ذا صلة بشيءٍ ما. كنت أفكِّر فيه، وفي بطاقته المطبوعة. رأيت أنه من الغريب لرجلٍ مثله بهذه الأناقة ويعمل في المجال الطبي أن يقدِّم نفسه ببطاقة كهذه: غير جيدة الطباعة، بل من نوع رخيص! إضافةً إلى ذلك، لم يكن عليها عنوان. ورحت أتساءل — ربما من قبيل الفضول البحت — عن أصل ذلك الرجل. وتحتوي تلك الدار على الكثير من الأدلة الإرشادية المعتادة، ومن بينها دليل إرشادي طبي حديث من الطراز الأول. لذا بحثت عن اسم الدكتور سيبريان باسيفيري. أقول إني بحثت عنه، لكنني لم أرَه؛ لأنه لم يكن موجودًا! لم يكن الرجل طبيبًا إنجليزيًّا ولا اسكتلنديًّا ولا حتى أيرلنديًّا.»

قال هيثرويك: «هو أجنبي إذن، ربما فرنسي، أو أمريكي.»

علَّقت رونا قائلة: «ربما كان مصريًّا، أو فارسيًّا، أو أوروبيًّا آسيويًّا؛ فما أعرفه أنه لا يرِد في ذلك الدليل، رغم أنك قد تظن من حديثه وأسلوبه أنه كان يزاول الطب في حي ويست إند طوال حياته! تلك هي القصة على أي حال. هل فيها أي شيء؟»

أمسك هيثرويك بكأس نبيذ الكلاريت من جذعها وراح ينظر بإمعان في محتوياتها.

وأخيرًا قال: «الشيء المهم هو مدى انزعاج الليدي ريفرسريد وطبيعته أو فزعها أو اضطرابها الذي تسبَّبت فيه زيارة الرجل. إذا كانت منزعجة بدرجة كبيرة ...»

علَّقت رونا قائلة: «إذا كنت تريد رأيي الصادق بصفتي شاهدة عيان وامرأة فإن الليدي ريفرسريد كانت في غاية الانزعاج. لقد أعطتني انطباعًا بأنها تلقَّت أخبارًا سيئة للغاية ومزعجة ومسببة للقلق. وبعد رؤيتها وملاحظتها وهي تضع توقيعها على الخطابات لم يكن لديَّ أدنى شك في أن الرجل كذب عليَّ عمدًا حين قال إنه يريد رؤية الدار وعملها بينما ما كان يريده حقًّا هو الوصول إلى الليدي ريفرسريد.»

صاح هيثرويك فجأة: «مهلًا! هل كنتِ حاضرة حين دخل ذلك الرجل إلى حجرة الليدي ريفرسريد؟»

«حاضرة؟ بالطبع كنت حاضرة! لقد أدخلته بنفسي.»

«أرأيتهما يلتقيان؟»

«بكل تأكيد!»

«حسنٌ إذن، أنتِ تعرفين! هل كانا غريبين أحدهما عن الآخر؟ هل تعرَّفت عليه؟ هل أظهرت أيَّ إشارة تدل على تمييزه بأي شكل حين وقعت عينها عليه؟»

«لا، مطلقًا! أنا واثقة تمامًا أنها لم ترَ الرجل من قبل في حياتها! رأيت أن الرجل كان غريبًا تمامًا عليها.»

«وماذا عنها هي بالنسبة إليه؟»

«لا، لا أعرف ذلك! ربما رآها ألف مرة. لكنني واثقة أنها لم ترَه من قبل قط.»

وضع هيثرويك سكينه وشوكته في إشارة منه إلى أنه انتهى.

وقال لها: «سأكتشف مَن يكون ذلك الرجل. ينبغي عليَّ ذلك!»

سألته رونا: «هل تظنُّ أن لزيارته علاقة بهذا؟»

«ربما، أجل. على أي حال، لن أفوِّت أيَّ فرصة. هناك ما يكفي من الغموض فيما تقولين لي بشأن الرجل مما يجعل من الجدير تتبُّعه. لا بد من تتبُّعه.»

«كيف ستفعل ذلك؟»

«أنتِ تقولين إنه سيذهب إلى هناك مرة أخرى يوم الجمعة التالي في الوقت نفسه؟ حسنٌ إذن، ما سأفعله هو مراقبته وتتبُّعه حين يغادر.»

«يؤسفني أنني لن أفيد في هذا! سيعرفني الرجل.»

قال هيثرويك ضاحكًا: «ولا أنا! فأنا بارز للغاية. لو كنت أقصر بقليل، لكنت ذا فائدة. لكن لديَّ الرجل المناسب؛ موظفي، مابرلي. إنه النوع المناسب ليتتبَّع أيَّ شخص من دون أن يراه أحد. وكما ستقولين حين تحظين بسرور رؤيته، فإن مابرلي أحد أكثر الرجال

العاديين المألوفين الذين سترينهم يومًا؛ فبإمكانه أن يمر بأي حشد في لندن من دون أن يلاحظه أحد. لكنه أريب للغاية، فهو يخفي تحت ملامحه غير البارزة على الإطلاق فطنة ودهاءً. وما سأفعله هو أنني سأعطي مابرلي وصفًا تفصيليًّا للدكتور سيبريان باسيفيري؛ إذ حفظت وصفك إياه بالفعل، وسيحفظ مابرلي وصفي إياه أيضًا. ومن المرجَّح أن يذهب باسيفيري ذلك، أيًّا مَن كان، إلى دوركينج في القطار الذي يغادر هذه المحطة في العاشرة وعشر دقائق، وكذلك سيفعل مابرلي. وفور أن تقع عين مابرلي على الرجل، فلن يحيد عن بصره مرة أخرى.»

سألته رونا: «وماذا سيفعل؟»

«سيتَّبعه إلى دوركينج ويراقبه ويتَّبعه عائدًا إلى لندن، وسيعرف إلى أين يذهب ومتى يعود، سيلاحقه إلى أبعد مدًى في حقيقة الأمر. بعد ذلك، سيخبرني بما وجد، وحينها سنعرف أكثرَ مما نعرف الآن، وسنعرف أيضًا ما سنفعله بعد ذلك.»

قالت رونا: «أتساءل إلى أي شيء سيؤدي ذلك؟ الأمر أشبه كثيرًا بمتاهة، أليس كذلك؟»

قال هيثرويك موافقًا: «بلى. لكن لو استطعنا فقط أن نُحكِم قبضتنا على أحد أطراف الخيط ...»

فقالت ضاحكة: «لربما انقطع!»

فقال: «حسنٌ إذن، سنمسك بخيطٍ لا ينقطع. هناك عدة خيوط بالفعل وإن كانت لا تزال غير واضحة. وماذرفيلد يمسك بواحد منها أو اثنين.»

ذهب هيثرويك لرؤية ماذرفيلد في صباح اليوم التالي وأخبره بالقصة التي سمعها من رونا. واستغرق ماذرفيلد في التفكير.

وقال بعد هنيهة من الصمت: «في الواقع يا سيد هيثرويك، الأمر كما أخبرتك به من قبل: إن كانت الليدي ريفرسريد تلك متورطة في الأمر، فإن الأمر الذي ينبغي فعله هو البحث ومحاولة الحصول على تاريخ كامل قدْر الإمكان عن سوابقها. سيتحتم علينا القيام بذلك، لكننا سننتظر لنرى ما سيكتشفه موظفك عن ذلك الرجل. فربما يفيدنا ذلك بشيء، بينما أعمل أنا بكد على الأدلة التي لديَّ.»

فسأله هيثرويك: «هل حالفك الحظ؟»

«كلا. لكننا نجتهد في العمل كما أخبرتك. ومسألة التوصُّل إلى أصل ورقة النقود تلك أمرٌ صعب. لا شك في أنَّ أحدهم أخذها بقيةً لحسابه من نادي «فيفيان» الليلي، لكنهم

يخبرونني أنه من الشائع أن يعطوا الزبائن باقي حسابهم من فئة العشرة والعشرين جنيهًا بل حتى الخمسين؛ فهناك الكثير من الأشخاص الذين يجتمعون هناك، وليس لديهم بالطبع أي ذكرى أو فكرة عن تلك الليلة أو الورقة النقدية على وجه التحديد. لكن الحقيقة تظل راسخة، وهي أن تلك الورقة النقدية أتت إلى جرانيت من خلال نادي فيفيان وأحد المترددين عليه، ويحدوني الأمل في معرفته.»

سأله هيثرويك: «وماذا عن زجاجة الدواء؟»

ردَّ عليه ماذرفيلد وفي عينيه لمعة: «آه، ثمة أمل أكبر في ذلك! إنما هي مسألة وقت ليس إلا! لديَّ رجل يطوف على جميع الكيميائيين في حي ويست سنترال، وتلك مهمة عسيرة؛ ذلك أن عددهم أكبر مما كنت أعتقد. غير أنَّ الرجل سيتوصل إلى الشخص المطلوب ولا بد في نهاية المطاف. وحينها، سنعرف بدرجةٍ لا بأس بها من اليقين كيفية حصول جرانيت على ذلك الشيء الذي سمَّمه، هذا إن لم نحصل على دليل مؤكَّد.»

فقال هيثرويك مستفسرًا: «ما من شك إذن في أنَّ تلك الزجاجة كانت تحتوي على سم؟»

أجابه ماذرفيلد: «لا، المختصون متيقنون من ذلك. وكان بالكأس سمٌّ أيضًا. لكني لا أعرف نوع السُّم؛ فأنت تعرف مدى تكتُّم الخبراء بشأن هذه الأمور! لكنهم أخبروني أنَّ المادة التي قضت على جرانيت متطابقة مع المادة التي أنهت حياة هانافورد. هذا أمرٌ مؤكَّد.»

قال هيثرويك: «إذن فقد أتت تلك المادة من المصدر نفسه على الأرجح.»

قال ماذرفيلد: «أجل، أظن أن مَن سمَّم أحدهما قد سمَّم الآخر. وفي الوقت نفسه. أعتقد أن جرانيت على الأقل حصل على جرعته في الوقت نفسه، وربما حملها في جيبه وشربها حين وصل إلى المنزل. غير أننا سنتتبَّع تلك الزجاجة! أخبرني بما تكتشفه بشأن ذلك الرجل المدعو باسيفيري يا سيد هيثرويك؛ فكل تفصيلة صغيرة تمثِّل مساعدة لنا.»

قام هيثرويك بتدريب مابيرلي كما ينبغي على الدور الذي يريد منه أن يلعبه، وانطلق مابيرلي إلى فيكتوريا في صباح يوم الجمعة التالي ومعه نقود في جيبه وغليون في فمه. ولم يرَه رب عمله ولم يسمع عنه طوال ذلك اليوم.

الفصل الحادي عشر

الليدي ريفرسريد

بينما كان هيثرويك يتناول إفطاره في صباح اليوم التالي، دخل مابيرلي عليه الحجرة بمظهر مألوف وهدوء معتاد.

أمره هيثرويك إذ أدرك بحدْسه وجودَ أخبار: «أخبرني بسردٍ موجز أولًا، والتفاصيل فيما بعد. لديك شيء؟»

قال مابيرلي: «رأيته في الحال في فيكتوريا. وتبعته إلى هناك. ظل في ريفرسريد ساعة. بعد ذلك، عاد إلى دوركينج حيث تناول غداءه في «ريد ليون». وظلَّ هناك حتى الساعة الرابعة؛ إذ قضى الوقت في تناول الغداء والتسكع. عاد إلى المدينة في قطار الرابعة وتسع وعشرين دقيقة، ووصل في السادسة وخمس دقائق. ثم تبعته إلى مقهى «كافيه دو باريس». تناول الرجل عشاءه هناك وظلَّ حتى تخطت الساعة العاشرة. ثم ذهب إلى نادي «فيفيان» الليلي.»

انتصبت أذنا هيثرويك حين سمع ذلك. نادي «فيفيان» الليلي! على أي حال بدا أنه توصَّل إلى رابط في السلسلة التي يظنُّ مادرفيلد أنه يمسك بأحد أطرافها على الأقل. فقد تتبَّع مادرفيلد ورقة الخمسة الجنيهات إلى نادي «فيفيان» الليلي: والآن تتبَّع مابيرلي الزائر المجهول الذي زار الليدي ريفرسريد إلى المكان نفسه.

قال هيثرويك: «تقول إلى نادي فيفيان الليلي يا مابيرلي؟ لنرَ؟ أين يقع ذلك؟»

أجابه مابيرلي بسرعة: «مدخله في ممر «كانلدستيك» المتفرِّع من شارع «سانت مارتن». النادي في الطابق الأول، وبه الكثير والكثير من الحجرات الفاخرة أيضًا!»

سأله هيثرويك: «هل دخلته؟»

«مرتين، لكن ليس في ليلة أمس. فأنت لم تعطِني أيَّ أمرٍ إلا بمعرفة المكان الذي سيذهب إليه في نهاية المطاف بعد عودته للمدينة. لذا حين تتبعته حتى نادي فيفيان، عُدت للمنزل. ورأيتُ أننا لو أردنا معرفة المزيد عنه فسيفي نادي «فيفيان بالغرض».»

«حسنًا يا مابيرلي. ولكن قبل ذلك؟ هل تبِعته إلى قصر ريفرسريد؟»

ابتسم مابيرلي ابتسامة عريضة.

«لا! لقد فعلت ما هو أفضل من ذلك. كنت قد وصلت إلى هناك قبله، وهذا أفضل بكثير من تتبُّعه. لقد تعرَّفت عليه بسرعة كافية في فيكتوريا، وتأكدت من أنه ركب قطار العاشرة وعشر دقائق. وركبت أنا القطار بعد ذلك. وفور وصولنا إلى دوركينج، قفزت من القطار وخرجت من المحطة واستأجرت سيارة أجرة وانطلقت إلى قصر ريفرسريد. جعلت السائق يخفي سيارته على الطريق، وتخفيت أنا بين النباتات المقابلة لبوابة الدخول. وسرعان ما جاء الرجل وقاد السيارة حتى المنزل. وقد ظلَّ في المنزل إلى ما يربو عن الساعة، ثم عاد مرة أخرى باتجاه دوركينج. وقد تبِعته مع ترك مسافة كافية بيني وبينه: ظلَّ الرجل تحت عيني طوال الوقت. خرج الرجل من السيارة على الطريق الرئيسي، وهكذا فعلت أيضًا. ودلف إلى «ريد ليون»، وهكذا فعلت. تناول غداءه، وهكذا فعلت. بعد ذلك راح يتسكَّع في غرفة التدخين؛ فجعلته نُصب عيني.»

«لم يلتقِ بأي أحد؟»

«لا!»

«حسنًا، وفي مقهى «كافيه دو باريس»؟ هل قابل أحدًا هناك؟»

«كان يتبادل الإيماءات والكلمات مع الرجال والنساء الذين كانوا يدخلون ويخرجون. أما عن أي لقاء مرتَّب، فلم يحدث ذلك. يسعني القول أيضًا أنه كان معروفًا جدًّا في «كافيه دو باريس».»

«هل بدا وكأنه رجل يتمتَّع بموارد مالية كبيرة؟ أتعرف ما أقصد؟»

قال مابيرلي مبتسمًا مرة أخرى: «لقد أسبغ على نفسه في الغداء والعشاء على أي حال. تناول زجاجة من الكلاريت في دوركينج، وكأسًا من الشامبانيا في «كافيه دو باريس»، وكان يمسك بسيجار كبير أيضًا. حسنًا، إنه من نوعية الرجال تلك.»

راح هيثرويك يفكِّر في الأمر برهةً.

سأله فجأة: «كيف تدخل إلى نادي فيفيان الليلي ذلك؟»

أجابه مابيرلي باقتضاب: «ادفع المال عند الباب! يُذاع بعض الهراء بأنَّ الدخول يستلزم تقديم أحد الأشخاص، لكن ذلك حديث فارغ! يذهب رجلان إلى هناك، لنقُل براون

وسميث. براون يقدِّم سميث، وسميث يقدِّم براون. محض هراء! يمكن لأي شخص أن يدخل بالمال.»

«وماذا يحدث هناك؟»

أجاب مابيرلي: «رقص! شرب الخمر! حماقات! لكن المكان نفسه جدير بالاحترام. لم يصدُر بحقه ملاحقات قضائية حتى الآن على أي حال.»

«في أي وقت يفتح أبوابه؟»

أجابه بابتسامة معبِّرة: «في التاسعة. في الأيام الخوالي لم يكن النادي يفتح أبوابه إلا بعد المسارح. لكنه أصبح يفتح الآن مبكرًا.»

علَّق هيثرويك: «إذن فهو ليس بنادٍ ليلي بالمعنى العام القديم للمصطلح. يفتح في المساء، حقًّا؟»

قال مابيرلي موافقًا: «هذا صحيح. على أي حال، إنه نادي «فيفيان».»

للمرة الثانية في مسار تحقيقاته تتجه أفكار هيثرويك مرة أخرى إلى بوكسلي. لا شك أن حب بوكسلي في التعرُّف بحميمية على كل جوانب الحياة في لندن أدَّى به إلى زيارة نادي «فيفيان»؛ سوف يسأل بوكسلي عن المزيد من المعلومات. وراح يبحث عن بوكسلي في النادي.

كان بوكسلي يعرف نادي فيفيان بما يكفي، وقال بأن النادي صار الآن بريئًا وغير ضار في ظل كل تلك اللوائح الجديدة وما إلى ذلك، وتحوَّل إلى نادٍ للعشاء ومثل هذه الأمور، سواء أكنت ترى ذلك تحسنًا أم تدهورًا. الرقص؟ أجل، كان هناك رقص وغير ذلك، لكن الأمور تغيَّرت.

قال هيثرويك: «حسنًا، أنا لا أريد أن أرقص هناك، ولا أريد أن أذهب إلى هناك من الأساس ما لم أكن مضطرًّا إلى ذلك. ما أريد معرفته هو شيء عن رجلٍ أظن أنه يتردَّد على المكان؛ رجل جدير بالملاحظة إلى حدٍّ بعيد.»

قال بوكسلي بنبرة حازمة: «صِفه لي!»

روى هيثرويك وصف رونا لباسيفيري، وأومأ بوكسلي.

وقال: «أعرف هذا الرجل من شكله. رأيته هناك. أظن أنه على صلة بالملَّاك؛ فهذا المكان مملوك لمؤسسة صغيرة. لكنني لا أعرف اسمه. وقد رأيته في الخارج أيضًا: في أرجاء ميدان ليستر وضواحيه.»

ذهب هيثرويك من عند بوكسلي إلى ماذرفيلد وأخبره بثمرة عمل مابيرلي.

قال ماذرفيلد: «أعرف نادي فيفيان بالطبع. زرته مؤخرًا مرتين أو ثلاث مرات بخصوص ورقة الجنيهات الخمسة. غير أنني لا أتذكَّر رؤية ذلك الرجل. لكن في ضوء ما يقوله موظفك، فإنني أرغب في رؤيته. تعالَ معي. سنذهب الليلة.»

قال هيثرويك مقترحًا: «لنجعلها يوم الإثنين؛ فسوف ألتقي بالآنسة هانافورد مرة أخرى يوم غد الأحد، وأريد قبل أن نذهب إلى فيفيان أن أعرف إن كان لديها أيُّ أخبار عن زيارة باسيفيري الأخيرة إلى قصر ريفرسريد، تلك الزيارة التي راقبه مابيرلي خلالها يوم أمس. ربما عرفت عنها شيئًا.»

قال ماذرفيلد موافقًا: «هي ليلة الإثنين إذن. لا أعرف ما يجدر بنا أن نتوقَّعه، لكنني أرغب بكل تأكيد في معرفة مَن يكون ذلك الرجل والسبب في ذهابه إلى ريفرسريد.»

قال هيثرويك: «تأكَّد أن الأمر ليس خيرًا! لكننا سنكتشف ذلك، بطريقةٍ ما.»

قال ماذرفيلد وهو مستغرق في التفكير: «غريب أنَّ الأمور تبدو مرتكزة حول نادي فيفيان! الورقة النقدية في البداية، ثم هذا الآن. حسنٌ، مساء الإثنين إذن؟ ربما يمكن للآنسة هانافورد أن تمدَّنا بمزيد من الأخبار غدًا.»

حين التقى هيثرويك برونا في فيكتوريا في اليوم التالي، وجد رونا تمسك ذراعه بيدها اليُمنى وتجعله يدور.

وهمست إليه قائلة: «إن كنت تريد رؤية الليدي ريفرسريد بشحمها، فهاك هي! أتت في نفس القطار الذي أتيتُ فيه، هي تلك التي تتوجَّه نحو كشك الكتب، وهناك رجل طويل معها!»

في تلك اللحظة التفتت الليدي ريفرسريد لتتحدث مع حمَّال كان يحمل لها أمتعة خفيفة، وحظي هيثرويك بنظرة كاملة وجيدة لوجهها وشكل جسدها. قال هيثرويك في نفسه إنها امرأة جميلة وجذابة وقديرة، ومن النوع الذي لا يمكن نسيانه بسهولة بعد رؤيته.

سألها هيثرويك وقد حوَّل نظره من الليدي ريفرسريد إلى رفيقها، وهو رجل طويل برونزي البشرة ويبدو عليه المظهر العسكري وأنه في مثل سنِّها: «مَن هذا الرجل؟»

أجابته رونا على الفور: «الرائد بينتيني. إنه صديقها، وهو مهتم كثيرًا بأمر الدار؛ بل الحق أنه يعمل بمثابة ممثِّل للدار هنا في المدينة بشكلٍ ما. وكثيرًا ما يكون في القصر، أعتقد أنه يحبها.»

علَّق هيثرويك بينما تحرَّك الثنائي في حيز الملاحظة نحو المخرج: «يا له من ثنائي مناسب.» وسأل قائلًا: «ولماذا أتت الليدي ريفرسريد؟»

أجابته رونا: «لا، لا أعرف بشأن ذلك. فهي لا تخبرني أبدًا بأي شيء عن خصوصياتها. لقد سمعتها تقول إنها ستذهب إلى المدينة صباح اليوم وأنها لن تعود حتى يوم الثلاثاء، لكنني لا أعرف سوى هذا.»

سألها هيثرويك: «ذلك الرجل المدعو باسيفيري، هل أتى مرة أخرى يوم الجمعة؟ أعرف أنه فعل؛ إذ أخبرني مابيرلي بذلك. فهل حدث أي شيء؟»

أجابته رونا: «لم يحدث شيء عدا أن الليدي ريفرسريد أخبرتني أن أحضِر لها الدكتور باسيفيري فور أن يأتي مرة أخرى. وقد أتى في الوقت نفسه كما فعل في المرة السابقة، ومكث معها مدة ساعة.»

فقال هيثرويك متسائلًا: «هل بدت عليها أيُّ علامات تدل على انزعاجها مرة أخرى؟»

قالت رونا: «لا، بل بدت على العكس من ذلك هادئة ورزينة إلى حد كبير بعد أن غادر. وبالطبع لم تتحدث بأي شكل عن زيارته.»

«ألم تذكره لك قط؟»

«إطلاقًا! وعلى الرغم من حقيقة أن غرض زيارته المعلن هو رؤية الدار والمرضى فإنه لم يرَ أيًّا منهما.»

غمغم هيثرويك: «وهو ما يوضِّح أن كل ذلك لم يكن إلا محض عذر ليتحدث معها! حسنٌ، سنكتشف مَن هو ذلك المدعو الدكتور باسيفيري! أنوي أنا وماذرفيلد أن نتواصل معه مساء الغد.»

بالرغم من ذلك، فحين حلَّ مساء اليوم التالي تعطلت خطة هيثرويك لزيارة فيفيان بسبب حدثٍ غير متوقَّع، ولم يقُم هو ولا ماذرفيلد بتخطي عتبة النادي الليلي الواقع في ممر كاندلستيك. لقد ذهبا هناك في العاشرة مساءً؛ إذ قال ماذرفيلد إنَّ الوقت سيكون ملائمًا من حينها وحتى الحادية عشرة والنصف؛ إذ يكون المكان ممتلئًا بزوَّاره المعتادين؛ فيتمكنا من الاختلاط مع الحشد الموجود هناك على نحوٍ لا يوحي بالتطفل، وأن يظلا حذرين ويقظين لأي شيء قد يحدث.

اتضح لهيثرويك أن ممر «كاندلستيك» الذي لم يكن يعرفه حتى تلك الليلة، كان واحدًا من بين الكثير من الممرات الضيقة التي تُفضي إلى شارع «سانت مارتن» في حي المسارح. كان الممر يبدو عاديًّا للغاية ويمكن حتى القول إنه متهالك، ولم يكن هناك شيء في جو المكان يوحي بروح المغامرة أو الرومانسية. ولم يكن هناك أيضًا أيُّ شيء فاتن أو جذاب في مدخل نادي فيفيان، والذي كان محض مدخل واسع مزدوج مزيَّنًا

بشجرتين دائمتي الخضرة موضوعتين في أحواض ويظهر منه أبواب متأرجحة توجد بداخله، ومن بعدها دَرَج مغطًّى بسجاد. لكن هيثرويك ومازرفيلد لم يصلا قط إلى تلك الأبواب المتأرجحة أو الدَّرج؛ ذلك أنه بينما كانا يقتربان من المدخل الخارجي برزت أمامهما امرأة طويلة، ومن دون أن تنظر يَمنة أو يَسرة، قطعت الممرَّ مباشرة متوجهةً نحو الشارع. لم تولِ المرأة اهتمامًا بالرجلين وهي تمر مسرعة بجوارهما، لكن هيثرويك أمسك بذراع رفيقه برفق.

وصاح بصوتٍ مكبوت: «الليدي ريفرسريد، هذا أمر عجيب! يا لها من امرأة!»

التفت مازرفيلد التفاتة حادة وراح يحدِّق بالجسد المتقهقر.

وقال وهو لا يكاد يصدِّق: «تلك المرأة، تخرج من هنا؟ هل أنت متأكد؟»

قال هيثرويك مؤكِّدًا: «متأكد تمامًا! تعرفت عليها في الحال؛ فقد حظيتُ بفرصة النظر إليها بإمعان يوم أمس. تلك هي الليدي ريفرسريد!»

غمغم مازرفيلد: «ماذا تفعل في نادي فيفيان. هذا أمر غريب!»

قال هيثرويك: «لكنها تبتعد، هيا! لِنرَ ما تكون وجهتها. يمكننا أن نعود إلى هنا بسهولة. لكن لماذا لا نتتبَّعها أولًا؟»

وافقه مازرفيلد قائلًا: «حسنًا! هيا إذن! من السهل أن نجعلها في مرمى بصرنا.»

في تلك اللحظة كانت الليدي ريفرسريد تلتفت يسارًا للخروج من الممر. وحين خرج الرجلان من الممر، كانت الليدي ريفرسريد تتقدمهما بالفعل ببضع ياردات، وكانت متجهةً إلى كنيسة «سانت مارتن». كان من السهل تتبُّعها بسبب طول قوامها، لكن مازرفيلد طلب من هيثرويك التراجع بعض الشيء؛ إذ قال بأن الاقتراب كثيرًا من الطريدة لا يفيد في شيء.

قال مازرفيلد وهما ينسلخان من بين الحشد على الرصيف: «بفضل طول قوامها وطول قامتينا، يمكننا أن نراها من بُعد عشرين ياردة. لنتبعها بحذر، انظر، إنها تشير لسيارة أجرة!»

راحا يرقبان الليدي ريفرسريد وهي تتفق مع سيارة أجرة وتدخل إليها، وفي غضون دقيقة تحرَّكت السيارة. لكنها لم تكد تتحرك حتى كان مازرفيلد على أبواب السيارة التالية.

وقال للسائق: «أرأيت تلك السيارة تنطلق وبها امرأة طويلة؟ هناك! تمامًا عند الزاوية، أتعرف سائقها؟ حسنًا! اتبعها بحذر. ولاحظ مكان توقُّفها، وما إن كانت المرأة

ستخرج منها، أم لا. قُد السيارة في هدوء من أمام المكان الذي ستتوقف عنده، ثم توقَّف بعده بقليل. كن يقظًا، والآن، هاك ...» انحنى نحو السائق وهمس إليه بكلمة، وبعد لحظة كان هو وهيثرويك في السيارة الأجرة يعبران الجزء العلوي من ميدان «ترافلجار».

علَّق مانرفيلد: «بدأ الأمر يصبح أكثر غموضًا يا سيد هيثرويك. موظفك يتعقَّب الرجل المكلَّف برقابته إلى نادي فيفيان مساء يوم الجمعة، ونجد نحن الليدي ريفرسريد تخرج من نادي فيفيان مساء يوم الإثنين. لا أظنُّ أن الليدي ريفرسريد التي لا نسمع عنها إلا أنها مُحِبَّة للخير والإنسانية، من النوع الذي يكون من المرجَّح أن يكون في زيارة لنادي «فيفيان»!»

ردَّ عليه هيثرويك قائلًا: «لكنها خرجت من نادي «فيفيان» على أي حال!»

قال مانرفيلد: «إذن فقد كانت بداخله بالطبع! لكن لماذا؟ في رأيي أنها كانت في لقاء مع باسيفيري، أو مع شخص ينوب عنه ويمثِّله، أو ربما بشأن الأمر الذي جعله يزور قصر ريفرسريد. لكن ما ذلك الأمر؟ ألهذا الأمر أيُّ علاقة بقضيتنا؟ لكن وعلى أي حال، ها هي ذي الليدي ريفرسريد في سيارة الأجرة أمامنا، وسنتبعها لنعرف وجهتها؛ لا شك أنها حجزت لنفسها في أحد فنادق حي ويست إند الأنيقة. وستكون تلك المعرفة مفيدة؛ إذ إنني أريد رؤيتها في الصباح لأطرح عليها بضعة أسئلة.»

قال هيثرويك مستفسرًا: «أليس الوقت مبكِّرًا على ذلك بعض الشيء؟ أترى أنَّ ما نعرفه يكفي؟»

ردَّ عليه مانرفيلد بنبرة جافة: «الأمر يعتمد على ما تجد أنه يكفي. ما أعرفه هو الآتي: أن الرجل المدعو جرانيت قد سُمِّم. وكان معه ورقة نقدية جديدة من فئة الخمسة الجنيهات. وقد تتبَّعت تلك الورقة حتى أوصلتني إلى نادي «فيفيان»، حيث دُفعت ولا بد إلى أحد الزبائن في اليوم السابق لوفاة هانافورد وجرانيت؛ ومِن ثَمَّ يصبح نادي «فيفيان» مكانًا ذا أهمية. والآن أعرف أن رجلًا غامضًا يزور الليدي ريفرسريد، ويقودنا ذلك الرجل أيضًا إلى نادي «فيفيان»، ثم أرى أنا بنفسي الليدي ريفرسريد وهي تخرج من نادي فيفيان. أظنُّ أن عليَّ أن أسأل الليدي ريفرسريد عمَّا تعرفه عن نادي فيفيان وعن الدكتور باسيفيري، وأن أسألها عَرَضًا إن كانت قد سمعت عن مكانٍ يُدعى سيليثوايت وعن مفوَّض شرطة يُدعى هانافورد. ما هذا! لكننا نغادر المنطقة التي توجد بها الفنادق الأنيقة البارزة.»

نظر هيثرويك من خارج النافذة، وبدا له ما رآه غير مألوف.

قال ماذرفيلد: «نحن متوجِّهون إلى طريق إدجوير.» مال بجسده خارج السيارة الأجرة وراح يعطي المزيد من التعليمات إلى السائق. وعلَّق قائلًا وهو يعود إلى مقعده مرة أخرى: «لا أريد أن أثير أيَّ شكوك في السيارة التي أمامنا. من المحتمل أنها ذاهبة إلى منزل خاص، ولا أريدها أن تظن بوجود مَن يتبعها. آه! والآن ننعطف إلى طريق هارو.»

انطلقت السيارة بجوار «بادينجتون جرين»، ثم انعطفت منعطفًا حادًّا عند «تاون هول»، وسارت على طول «سانت ماري تيراس». بعد ذلك أبطأت السيارة سرعتها؛ وتقدَّمت بسرعة أبطأ، وتخطت السيارة الأخرى التي توقَّفت تمامًا في مواجهة مجموعة من المباني المرتفعة، وبعد ذلك بمسافة ياردات قليلة توقَّفت السيارة تمامًا. نزل السائق من مقعده وتوجَّه نحو الباب.

وقال سرًّا: «تلك المرأة الطويلة! التي كانت تركب في السيارة الأخرى. لقد دلفت إلى نُزُل «سانت ماريز مانزيونز»، هناك تحديدًا.»

سأله ماذرفيلد: «هي شقق سكنية، أليس كذلك؟»

أجابه السائق: «بلى يا سيدي.» نظر إلى الشارع. وقال: «سيارة الأجرة تنصرف يا سيدي. خرج حمَّال ودفع للسائق.»

علَّق ماذرفيلد بنبرة خفيضة: «يبدو من هذا أنها ستمكث هنا فترة. حسنًا، سنخرج أيضًا، وسننظر في الأرجاء.» دفع للسائق وصرفه، وبعد أن عبَرا إلى الجانب الآخر من الطريق، أشار إلى هيثرويك على مجموعة الشقق التي اختفت فيها الليدي ريفرسريد. وغمغم يقول: «المكان كبير. إنها منطقة مكتظة. لكن، ليس هناك مدخل آخر غير هذا؛ فالمدافن القديمة تقع إلى الخلف، وليس هناك طريق للخروج من هناك، أعرف هذا! لذا لا يمكنها أبدًا أن تختفي في ذلك الاتجاه.»

سأله هيثرويك: «إذن ستنتظرها؟»

ردَّ عليه ماذرفيلد: «لا أقتنع أبدًا بالبدء في أي مطاردة إلا إذا كنت سأكملها حتى النهاية. أجل، أظن أننا سننتظر. غير أنه ما من ضرورة تدفعنا إلى الانتظار في الشارع. أنا أعرف هذا الحي؛ إذ كنت أعمل في قسم الشرطة القريب من هنا. أترى كلَّ تلك المنازل على ذلك الجانب يا سيد هيثرويك؟ إنها جميعًا منازل للإيجار، وأعرف معظم أصحابها. انتظر هنا دقيقة وسأجد لنا غرفة نراقب منها من دون أن يرانا أحد.»

ترك هيثرويك واقفًا تحت ظل جدار طويل بالقرب منهما، وسار مسافة قصيرة في الشارع. سمعه هيثرويك يفتح باب واحدة من الحدائق الصغيرة ويطرق على الباب.

تأخَّر ماذرفيلد لبعض الوقت. فأمضى هيثرويك الوقت في التحديق في الصفوف الطويلة للنوافذ المضاءة في الشقق المواجهة له، وكان في أثناء ذلك يتساءل في نفسه عن أيٍّ من هذه الشقق قد ذهبت إليها الليدي ريفرسريد وعما كانت تفعله هناك. كان من الواضح له أن هناك مغامرة ذات صلة بالرجل الغامض باسيفيري ونادي «فيفيان الليلي»، لكنه لم يكن يعرف تلك المغامرة تحديدًا ولا طبيعتها.

جاء ماذرفيلد بعد ذلك، وكان وجهه مبتهجًا مطمئنًا.

وهمس قائلًا: «تعالَ يا هيثرويك. يوجد رجل هنا يعرفني؛ وهو حارس أحد منازل الإيجار. يمكننا أن نحصل على نافذة الصالة لنراقب منها. هذا أفضل كثيرًا من التجول في الشارع. سيكون ذلك مريحًا.»

قال هيثرويك وهما يتحركان: «إذن فأنت مصمِّم على أمر المراقبة؟»

ردَّ عليه ماذرفيلد قائلًا: «لم أقطع كلَّ هذه المسافة عبثًا. سأتبعها حتى تقرِّر أن تستقر بقية الليل. ولن يكون ذلك هنا؛ فسوف تنصرف إلى أحد الفنادق عمَّا قريب.»

بالرغم من ذلك، ثبت فيما بعد أن توقعات ماذرفيلد كانت خاطئة. راح الوقت يمر ثقيلًا في تلك الحجرة الصغيرة الخانقة الرثة التي اتخذها كلٌّ من هيثرويك وماذرفيلد للمراقبة، ووقف ماذرفيلد في نافذتها مراقبًا مدخل الشقق السكنية المواجهة لهما تمامًا. وحلَّ منتصف الليل ثم ولَّى، دون أن يحدث شيء. وفي الثانية عشرة والنصف اقترح هيثرويك أن الأمر لا يستحق العناء، وأنه يفضِّل الرحيل.

قال ماذرفيلد وهو يحاول أن يمنع نفسه من تثاؤبٍ يثير الارتياب: «افعل ما يحلو لك يا سيد هيثرويك. لقد سئمت المراقبة أيضًا. لكنني سأظلُّ هنا حتى تخرج، سواء كان ذلك في الليل أو الصباح!»

سأله هيثرويك في شيء من السخرية: «وماذا بعد ذلك؟»

أجابه ماذرفيلد: «ثم سنرى حينها إلى أين تذهب بعد ذلك، أو سأرى أنا إن كنت ستغادر! فأنا لا أحبِّذ أنصاف التدابير.»

قال هيثرويك: «حسنًا، سأنتظر معك! ليس الصبح ببعيد على أي حال.»

طلع الصباح على قمم المنازل عند الساعة الرابعة. وحتى تلك الساعة لم يرَ أيٌّ منهما شيئًا. لكن عند الساعة الخامسة إلا الثلث جرَّ ماذرفيلد ذراع رفيقه. كانت الليدي ريفرسريد تخرج من الباب المقابل لهما وهي ترتدي معطفًا فضفاضًا للسفر وتحمل في يدها حقيبة صغيرة.

الفصل الثاني عشر

اسم مستعار: السيدة ليستوريل

راحت المرأة الخاضعة للمراقبة تتحرَّك بسرعة في الشارع الخالي من المارة في اتجاه «تاون هول» الموجود عند التقاطع، وبعد أن نظر إليها ماذرفيلد نظرةً متفحصة أخرى، ترك من يده أحد أضلاع الستارة التي كان ينظر من خلالها والتفت إلى رفيقه. وفي اللحظة نفسها، مدَّ يده متناولًا معطفه وقبعته.

وقال بسرعة: «والآن يا سيد هيثرويك، لا بد أن يؤدي هذه المهمة رجل واحد! فلن يكون هناك شيء خارق للعادة في رجل واحد يسير في الشوارع ليلحق بقطار مبكر، لكن ربما يبدو مثيرًا للريبة قليلًا أن يذهب رجلان معًا في الاتجاه نفسه والوقت نفسه. سأذهب خلفها! وسوف أعرف وجهتها! أنا معتاد مثل هذه الأمور. اذهب أنت إلى شقتك واحصل على قسطٍ من النوم. سأعرِّج عليك فيما بعد وأخبرك بما لديَّ من أخبار. هذا أمر قاطع، الآن!»

في غضون الثواني القليلة التالية كان الرجل في الشارع، واستعدَّ هيثرويك للمغادرة وهو منزعج من نفسه؛ لأنه مكث من أجل مهمة قرَّر ماذرفيلد فجأة أن يقوم هو وحده بها. بعد قليل خرج هيثرويك إلى الرَّدهة الرثَّة؛ وكان الرجل المسئول عن المنزل ينزل الدَّرج وهو يكبح جماح تثاؤب شديد. وابتسم عن دراية حين رأى هيثرويك.

وتساءل قائلًا: «هل ذهب ماذرفيلد يا سيدي؟ لقد سمعت الباب يُغلق.»

قال هيثرويك مؤكِّدًا: «لقد ذهب. ظهر الشخص الذي كان يريده فجأة، وذهب هو في أثره.»

ومرة أخرى، ابتسم الرجل الذي كان لطيفًا رغم ما بدا في وجهه من أمارات التحفظ.

وعلَّق قائلًا: «غريب عملهم رجال الشرطة أولاء! يا لها من مهمة غريبة، أن يراقب المرء من خلال نافذة طوال الليل. كنت آتيًا لأحضر لك كوبًا من القهوة» ثم أكمل يقول:

«سأحضر لك واحدًا في غضون دقائق قليلة، إن كنت تريد. أم تريد الشاي الآن؟ ربما تفضِّل الشاي؟»

قال هيثرويك: «هذا لطف كبير منك، لكني في الواقع أفضِّل الذهاب إلى المنزل والخلود للفراش. أشكرك كثيرًا على كل شيء.»

بعد ذلك دسَّ هيثرويك ورقةً نقدية في يد الرجل بدافع من طيبة نفسه فحسب، ثم ذهب بعد أن تمنَّى له صباحًا طيبًا. سار هو أيضًا في الاتجاه الذي سلكته الليدي ريفرسريد ومراقبًا. لكنه حين وصل إلى نهاية الشارع ودلف إلى طريق هارو لم يرَ منهما شيئًا، لا في يسار الطريق ولا في يمينه. بالرغم من ذلك، لم يكن الطريق خاليًا؛ إذ كان الناس في طريقهم بالفعل إلى أعمالهم في الصباح الباكر، وبالقرب من زاوية تاون هول كان هناك رجل يُعمل مكنسته على الطريق. فتوجَّه هيثرويك نحوه.

وسأله: «أرأيت الآن سيدةً ومن بعدها رجلًا مرَّا من هنا قادمين من «سانت ماريز تيراس»؟ كلاهما طويل القامة.»

استند الرجل إلى مكنسته والتفت نصف التفاتة وأشار باتجاه جسر «بادينجتون».

وأجابه قائلًا: «رأيتهما يتوجَّهان إلى هناك يا سيدي. امرأة طويلة تحمل حقيبة صغيرة. ذهبت على الجسر من هناك. طريق محطة بادينجتون. ومرَّ خلفها ماذرفيلد.»

صاح هيثرويك من الدهشة: «يا إلهي، أتعرفه؟»

أشار الرجل بإبهامه نحو قِسم الشرطة المجاور.

وأجابه قائلًا: «كان ماذرفيلد رقيبًا هنا، وأنا أعرفه بما فيه الكفاية! ذات مرة قادني إلى قِسم الشرطة أنا وزميل لي؛ إذ كنا مبتهجين بعض الشيء. كلفنا الأمر خمسة بنسات. لكنني لا أكن له ضغينة، ليس أنا! شكرًا لك يا سيدي.»

ترك هيثرويك بقشيشًا آخر خلفَه للرجل وسار ببطءٍ نحو طريق إدجوير. كانت قطارات الأنفاق قد بدأت عملها للتو، فلحِق بقطارٍ يتجه جنوبًا وذهب إلى تشارينج كروس، ومن هناك ذهب إلى حي تيمبل. وفي السادسة كان يخلد إلى فراشه ونام نومًا هنيئًا حتى سمع مابيرلي يتحرك في الغرفة المجاورة بعد أربع ساعات.

كان مابيرلي الذي كانت وظيفته لدى هيثوريك وظيفةً سهلة إلى حدٍّ كبير، يقرأ الأخبار بروية حين دخل عليه ربُّ عمله. وضع مابيرلي الجريدة جانبًا ورمق هيثرويك بنظرة تنم عن المعرفة والدراية.

وقال: «حصلت مساء أمس على معلومات عن ذلك الرجل الذي تتبعته أول من أمس.»

سأله هيثرويك: «كيف حصلت على تلك المعلومات؟»

أجابه مابيرلي: «قضيت بعض الوقت في نادي فيفيان. لي صديق أعرفه هناك. وهو موظف لدى السكرتير ويُدعى فلاورز. ذلك الرجل المدعو باسيفيري له حصة في المكان؛ إنه مدير من نوعٍ ما بحسبِ ما أعتقد.»

سأله هيثرويك: «متى كنت في فيفيان؟»

أجاب مابيرلي: «مبكرًا.»

«هل رأيت الرجل هناك؟»

«رأيته. كان موجودًا طوال الوقت الذي كنتُ فيه هناك. طوال الوقت تقريبًا. بدا في البداية منهمكًا في محادثةٍ جادة مع امرأة طويلة وجميلة. جلسا يتحدثان في كوَّة هناك في الصالة بعض الوقت. ثم رحلت المرأة وحدها.»

قال هيثرويك: «أرأيتَ ذلك حقًّا؟ حسنًا، بما أنك تعرف ما تفعل، فربما يمكنني إخبارك أنَّ تلك المرأة هي الليدي ريفرسريد.»

علَّق مابيرلي قائلًا: «آها، لقد خمَّنت ذلك! فهمت ذلك في الحال. لكن هذا ليس كل شيء. لقد اكتشفت المزيد. ذلك الرجل المتوفَّى المدعو هانافورد: ليس لديَّ أدنى شك في أنه زار «فيفيان» مرة على الأقل وربما مرتين خلال الليلتين أو الثلاث التي سبقت مقتله، وذلك وفقًا لما سمعته من فلاورز. على أي حال، تعرَّف فلاورز عليه من خلال وصفي له، والذي حصلت عليه بالطبع منك ومن الجريدة.»

قال هيثرويك متعجبًا: «هانافورد. هناك؟ وحيدًا؟»

«لا، لقد أتى مع ذلك المدعو باسيفيري. لكنهم لا يعرفونه هناك باسم الدكتور باسيفيري. يدعونه بلقب السيد فحسب. وأنا واثق إلى حدٍّ بعيد من أن هانافورد كان معه.»

سأله هيثرويك: «هل حصلت على التواريخ والمواعيد بالضبط؟»

«كلا. لم يتمكن فلاورز من تذكُّر ذلك. لكنه تذكَّر ذلك الرجل.»

قال هيثرويك: «حسنًا، هذا شيء مهم.» ثم دلف إلى غرفة أخرى وجلس يتناول إفطاره ويفكِّر. بعدها بفترة قصيرة نادى: «مابيرلي، تعالَ إلى هنا!» وأضاف بينما دخل الموظَّف: «اسمع، بما أنك تعرف هذا المكان المدعو «فيفيان»، فاذهب إلى هناك الليلة مرة أخرى، وحاول أن تعرف إن كان صديقك ذلك يعرف أيَّ شيء عن رجل طويل يتطابق مع أوصاف الرجل الذي شُوهد هانافورد وهو يقابله في فيكتوريا. أقرأت ما قاله ليدبيتر عن ذلك خلال التحقيق معه؟»

أجاب مابيرلي: «أجل. لكن ما أهمية ذلك؟ لا شيء من الجانب العملي! لم يستطِع ليدبيتر حتى أن يصف شكل أنف الرجل، ولا حتى لون عينيه! كلُّ ما قاله أنه رأى رجلًا متشحًا بطريقةٍ لم تمكِّنه من رؤية شيء من وجهه، وأنه كان طويلًا ويرتدي ثيابًا أنيقة. في لندن عشرات الآلاف وربما أكثر، من الرجال الطوال الذين يرتدون ملابس أنيقة!»

قال هيثرويك: «دعك من ذلك واسأله، وبالأخص عما إن كان ذلك الرجل قد شُوهد بصحبة باسيفيري هناك.»

أنهى هيثرويك إفطاره، وبدلًا من أن يذهب بعد ذلك إلى المحكمة الجنائية المركزية كعادته، راح يتسكَّع في شقته في انتظار زيارة مادرفيلد. لكن مادرفيلد لم يأتِ، وفي الظهيرة ترك له هيثرويك رسالةً ليجدها إذا زاره، ثم غادر؛ إذ واتته فكرة جديدة. واتباعًا لتلك الفكرة، ذهب هيثرويك مرةً أخرى إلى منطقة بادينجتون وطرق على باب المنزل الذي كان فيه هو ومادرفيلد يراقبان منه الشقة المقابلة.

فتح حارس الشقق الباب بنفسه وابتسم لدى رؤية هيثرويك. دلف هيثرويك إلى الداخل وأومأ باتجاه باب الغرفة التي لم يتركها إلا قبل ساعات قليلة.

وقال: «أريد أن أتحدث معك. على انفراد.»

أجاب الرجل: «لا يوجد أحد هنا يا سيدي، تفضَّل بالدخول.»

أغلق الرجل الباب على نفسه وعلى زائره، وعرض على هيثرويك أن يجلس على أحد الكراسي.

وقال الرجل وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: «توقعت أنك ستعود خلال النهار. إما أنت أو مادرفيلد، أو كلاكما!»

سأله هيثرويك: «ألم ترَه مرة أخرى؟»

فأجابه الرجل: «لا، لم يأتِ إلى هنا.»

فأكمل هيثرويك يقول: «في الواقع، أردت أن أطرح عليك سؤالًا، وربما اثنين أو ثلاثة أسئلة. دعني أسألك أولًا: هل تعيش هنا منذ فترة طويلة؟»

قال الرجل الآخر وهو يرمق المبنى الضخم المواجه لنافذته: «أنا هنا منذ ما قبل بناء هذه الشقق؛ أي سنوات كثيرة مضت لا أعرف عددها بالتحديد؛ اثنتان وعشرون سنة أو ثلاث وعشرون على أي حال.»

سأله هيثرويك: «إذن يسعني القول إنك تعرف معظم الأشخاص الموجودين في الأرجاء؟ تعرفهم من أشكالهم على أي حال.»

ابتسم حارس المنزل وهزَّ رأسه.

وأجاب يقول: «ذلك أمر صعب للغاية، يا سيدي! يوجد عدة آلاف من الأشخاص الذين يعيشون في هذه البقعة من لندن. بالطبع أعرف الكثير، من الذين يسكنون بالقرب من هنا. لكن لو كنتَ من أبناء لندن لعرفت أن اللندنيين يعيشون في انعزال. قد يبدو هذا غريبًا، لكن الواقع أنني لا أعرف اسمَي جاريَّ المباشرَين على أيٍّ من الجانبين، رغم أنهما هنا منذ بضع سنوات.»

قال هيثرويك: «ما كنت أقصده هو أنك تعرف الكثير من الأشخاص الذين يعيشون في الشقق المقابلة لمنزلك من شكلهم.»

قال الرجل موافقًا: «حسنًا، أعرف بعضهم من شكلهم. توجد مجموعة مختلفة من الأشخاص تعيش في تلك الشقق! بضعة من السادة العجائز المتقاعدين، وربما سيدتان أو ثلاث، ومجموعة كبيرة من الممثِّلات؛ فتلك الشقق مألوفة للغاية لدى العاملين في مجال المسرح. لكنني بالطبع، لا أعرفهم إلا من شكلهم ولا أعرف أيَّ أحد منهم باسمه. أراهم فقط يدخلون ويخرجون كما تعلم.»

سأله هيثرويك: «أيتصادف أنك تعرف امرأة طويلة وجميلة تملك شقة هناك؟ امرأة تتأنق كثيرًا في ملبسها على الأرجح؟»

راح الرجل الذي لم يكن يرتدي معطفه وقد رفع كمَّي قميصه، يحك مرفقيه وبدا غارقًا في التفكير.

وأخيرًا قال: «أظن أنني أعرف السيدة التي تقصدها. إنها تخرج بأحد كلاب البوميرينيان الصغيرة المزعجة: كلب أسود اللون وله مقود؟ أهذه هي؟»

أجاب هيثرويك: «لا أعرف أيَّ شيء عن أي كلب. المرأة التي أقصدها كما قلت طويلة وجميلة ذات مظهر مميز وشعر أشقر وبشرة نضرة، وهي في الأربعين من عمرها تقريبًا.»

قال الرجل: «يسعني القول إنها هي تلك المرأة التي أفكِّر فيها. كنت أرى تلك المرأة بين الحين والآخر، لكنني لم أرَها مؤخرًا.» رمق هيثرويك بنظرة حصيفة مستفسرة. وسأله قائلًا: «هل تسعى خلفها أنت ومانرفيلد؟»

فأجابه هيثرويك: «ليس بالتحديد. ما أريد أن أعرفه الآن هو اسمها. الاسم المعروفة به هنا على أي حال.»

قال حارس المنزل مبتهجًا: «يمكنني أن أعرف لك ذلك، وبسرعة. فأنا أعرف حارس تلك الشقق جيدًا وكثيرًا ما أتحدث معه. سيخبرني بأي شيء بيني وبينه. والآن، اسمح لي

بأن أؤكد على وصفك: امرأة طويلة وجميلة في الأربعين من عمرها تقريبًا وشعرها أشقر وبشرتها نضرة وأنيقة الملبس. أهذا صحيح أيها السيد؟»

قال هيثرويك: «هذا صحيح تمامًا.»

قال الرجل: «إذن فلتنتظرني هنا قليلًا، وسأذهب إليه سريعًا. وهذا سر بيننا كما تعلم. فأنا وذلك الحارس أصدقاء كما أخبرتك.»

غادر الرجل الحجرة وبعد دقيقة رآه هيثرويك يعبر الطريق وينزل إلى الطابق التحتي من تلك الشقق. وفي غضون ربع ساعة عاد الرجل ومن الواضح أنه كان يحمل بعض الأخبار.

أعلن الرجل بنبرة المنتصر: «أنجزت لك ذلك سريعًا يا سيدي! عرف الرجل السيدة التي تقصدها! اسمها السيدة ليستوريل. تفضَّل، لقد جعلته يدوِّن الاسم على قطعة ورق؛ لأنني لست معتادًا الأسماءَ الأجنبية. يظن الرجل أنها تعمل في المسرح. وهي تقيم في الشقة رقم ستٍّ وعشرين. لكنه يقول إنها نادرًا ما تأتي مؤخرًا؛ تأتي ليلة أو اثنتين ثم تغادر، وربما تظل غائبة شهورًا في المرة الواحدة. لكنه رآها هنا ليلة أمس؛ ويقول إنها لم تأتِ منذ فترة طويلة. لكن الرجل لا يعنيه إن كانت هنا أو بعيدة؛ فهي دائمًا ما تدفع المال في موعده، وهذا هو المهم، أليس كذلك؟»

أضاف هيثرويك إلى الإكراميات التي يدفعها منذ الصباح وغادر. كان الآن مقتنعًا أن الليدي ريفرسريد تستأجر شقة في بادينجتون لغرضٍ خاص بها، وأنها كانت تزور تلك الشقة من آنٍ لآخر وأنها معروفة باسم السيدة ليستوريل. فما هو مغزى ذلك، وما تأثير ذلك على المشكلة التي كان يسعى لحلها؟

الفصل الثالث عشر

مَن كانت؟

في وقت متأخِّر من تلك الليلة، وحين كان هيثرويك يعيد التفكير في الأمور، أعلن صوت الدهس على سلَّمه والطَّرْق على بابه الخارجي دخولَ ماذرفيلد، الذي ألقى بنفسه في أقرب كرسي وثير وقد علت وجهه نظرات معبِّرة.

وصاح قائلًا: «حبًّا بالرب يا سيد هيثرويك، أعطني قطرة من ذلك الويسكي! أنا مرهق تمامًا، وخائب الأمل تمامًا أيضًا! يا له من يوم ذلك الذي قضيته خلف تلك المرأة! ومعنى كل ذلك لا يعلمه إلا الرب وحده، أما أنا فلا أعرف معناه!»

قدَّم هيثرويك إلى زائره، الذي قضى وقتًا طويلًا في الخارج، الويسكي والصودا، وانتظر حتى تجرَّع الرجل شربة كبيرة منه. ثم عاد إلى مجلسه وأخذ غليونه.

وقال متسائلًا: «هل أفهم أنك حظيت بيوم غير ناجح جدًّا يا ماذرفيلد؟ آمل أنك لم تكن تسعى في مطاردة وهمية؟»

صاح ماذرفيلد قائلًا: «هذا بالتحديد هو ما آلت إليه الأمور! على أي حال، بعد أن عانيت معاناة كبيرة هربت المرأة، تحت ناظري تقريبًا! لكنني سأخبرك بكل شيء؛ هذا هو سبب مجيئي هنا. حين خرجتُ من ذلك المنزل في «سانت ماريز تيراس، كانت تنعطف» لتوِّها يمينًا إلى طريق «بيشوب رود». تبِعتُها بالطبع. عبرت هي الجسر؛ جسر السكة الحديدية الكبير، وانعطفت في نهايته نحو محطة «بادينجتون». حينها ظننت أنها ستستقل أحد القطارات الصباحية المبكِّرة. دخلت المرأة المحطة عبْر مكتب الحجز الخاص بالدرجة الأولى، ولم أكن حينذاك بعيدًا عنها إلا بياردات قليلة. لكنها بدلًا من أن تتوقَّف هناك وتأخذ تذكرة، أكملت طريقها وعبرت المحطة ووصلت إلى رصيف الوصول وأشارت إلى سيارة أجرة. وفي غضون دقيقة كانت تستقل السيارة التي انطلقت بها. من حسن الحظ أنه كانت هناك سيارة أجرة أخرى قريبة. ناديت عليها وأخبرت السائق أن يُبقي

السيارة الأولى أمام ناظره وأن يتبعها إلى أي مكان تذهب إليه. وهكذا انطلقت مرة أخرى، في مطاردة أخرى! وانتهت تلك المطاردة في محطة أخيرة أخرى؛ محطة «واترلو»!»

علَّق هيثرويك بينما توقَّف مادرفيلد من أجل أن يرتشف شيئًا من كأسه: «أظنُّ أنها كانت عائدة إلى المنزل. يمكنك الذهاب إلى دوركينج من واترلو.»

أجابه مادرفيلد: «لم تكن متوجهة إلى دوركينج! سرعان ما اكتشفت ذلك. فبالرغم من أنَّ اليوم لا يزال في باكورته، كان هناك الكثير من الناس في «واترلو»، وحين ذهبت إلى مكتب التذاكر تمكَّنت من البقاء بالقرب خلفها؛ كنت قريبًا بما يكفي على أي حال لأسمع أي شيء تقوله. وقد طلبت تذكرة فردية من الدرجة الأولى إلى ساوثامبتون.»

قال هيثرويك متعجِّبًا: «ساوثامبتون! أمممم!»

كرَّر مادرفيلد يقول: «ساوثامبتون! تذكرة فردية من الدرجة الأولى إلى ساوثامبتون. أخذت المرأة التذكرة وسارت مبتعدة، ولم تنظر لا عن يمينها ولا عن شمالها؛ لم تلمحني قط. والآن وكما أخبرتك بالأمس أني لا أحب البدء في أي شيء إلا إن كنت سأنهيه حتى آخره. لذا وبعد أن فكَّرت لدقيقة، حجزت تذكرة إلى ساوثامبتون، في الدرجة الثالثة. خرجتُ ونظرت إلى لوحة الإعلانات. ساوثامبتون، ٥.٤٠. حينها كانت الساعة الخامسة وخمسًا وعشرين دقيقة. لذا ذهبت إلى مكتب الهاتف واتصلت بمقرنا وأخبرتهم أنني أسعى خلف شيء وألَّا ينتظروا رؤيتي طوال اليوم. بعد ذلك، اشتريت جدولًا وجريدة أو اثنتين من الكشك الذي كان يفتح أبوابه لتوه وذهبت إلى القطار. كان هناك الكثير من المسافرين فيه. لم يكن القطار قد أتى على الرصيف حينها؛ وحين أتى القطار بعد دقيقة أو اثنتين رحت أرقبها وهي تستقله؛ كان من السهل تحديد مكانها بسبب طول قامتها. ودخلت أنا إلى عربةٍ مخصصة للتدخين في الأسفل قليلًا وانطلقنا في موعدنا المحدَّد، ولكي أخبرك بالحقيقة، كنت أتساءل عن سبب ذهابي بالتحديد! لكنني كنت ذاهبًا إلى أي مكان ستذهب هي إليه.»

سأله هيثرويك بابتسامة: «حتى ولو كان ذلك إلى خارج البلاد؟»

قال مادرفيلد موافقًا: «أجل، فكَّرت في ذلك! فربما كانت تهرب على حد علمي. وقد جعلني هذا ألتفت إلى أخبار السفن البخارية في الجريدة، ورأيت حينها أن السفينة «تارتاريك» على وشْك أن تغادر من ساوثامبتون إلى نيويورك في الثانية من ظهر ذلك اليوم. والحق أنه كانت توجد أمورٌ أصعب في التصديق من هذا تبرِّر ذَهابها على متنها؛ وذلك لأسباب خاصة بها، لا سيما إن كانت هي حقًّا السيدة ويتينجهام المسئولة عن

حادثة سيليثوايت قبل عشر سنوات. ذلك أنني فكَّرت في الأمر على هذا النحو: إن كانت هي السيدة ويتينجهام فإنها ستكون فطنة بما يكفي لتعرف أنه ما من حدٍّ زمني لإسقاط الدعاوى القضائية في هذه البلاد، وأنها لا تزال عرضة لإلقاء القبض عليها ومقاضاتها وإدانتها، ومن المرجَّح أنها تعرف أيضًا أن مسألة هانافورد هذه قد جذبت اهتمامًا حديثًا نحو مسألتها الصغيرة، وأنها في خطر. ثم إنني كنت أفكِّر بشأن علاقتها بذلك الرجل المدعو باسيفيري. كيف لنا أن نعرف أن باسيفيري ذلك لم يكن شريكًا لها في جريمة احتيال سيليثوايت؟ في معظم القضايا من ذلك النوع يكون للمرأة شريكٌ ما في الخلفية؛ وربما كان باسيفيري متورطًا معها آنذاك. والآن ربما كانت لديه معلومات أدَّت به إلى أن يحذِّرها لتنجو بنفسها، أليس هذا محتملًا؟»

قال هيثرويك مُقِرًّا: «قد ينطوي ذلك على شيء مهم يا ماذرفيلد. أجل، لا شك أنه ينطوي على شيء.»

فقال ماذرفيلد مؤكِّدًا: «قد ينطوي على شيء كبير. فقد تركْنا رجالَ الصحافة يحصلون على معلومات كثيرة. أنا أومن بأهمية الاستفادة من الصحافة؛ إذ تكون مصدرَ عون كبير أحيانًا، أو ربما بصفة عامة، لكن ثمة أوقاتًا أخرى تكون فيها الاستعانة بالصحافة خطرًا كبيرًا، وذلك حين ينطوي الأمر على تقديم مساعدة قيمة إلى العدو. لست متأكدًا بأننا لم نسمح لأولئك المراسلين بمعرفةِ ما هو أكثر من اللازم عن هذه القضية. على سبيل المثال، تركناهم يعرفون عن الصورة التي وجدناها في محفظة هانافورد وعن المظروف المختوم الذي نظن أنه كان يحتوي على سر ابتكاره؛ كل ذلك كان في الصحف، وإن لم تكن قد كتبت عنها كثيرًا. ومع ذلك، فقد ورد من المعلومات الكثير لأي شخص يتابع القضية عن كثب. والآن، إذا افترضنا أن باسيفيري كان هو شريك السيدة ويتينجهام في الجريمة قبل عشر سنوات، وأنه قرأ كل ذلك ورأى نسخة الصورة، ألم يكن ليرى أنها معرَّضة للخطر وأن عليه تحذيرها؟ أظن أن ذلك مرجَّح، وأتمنى أننا لم نكن متساهلين للغاية فيما يتعلق بالأخبار التي قدمناها للصحف. على أي حال، أنا مسرور أنه يوجد شيء لم أخبر الصحافة بشأنه، وهو زجاجة الدواء التي وجدناها في منزل جرانيت! لا أحد غيري وغيرك والأطباء يعرفون بذلك، حتى الآن.»

قال هيثرويك مكرِّرًا كلام ماذرفيلد: «أتظن أن هذه المرأة التي هي الليدي ريفرسريد الآن والسيدة ويتينجهام من قبل، كانت تهرب إلى ساوثامبتون أو ربما أبعد من ذلك بناءً على تحذير من باسيفيري؟»

أجابه مازرفيلد: «فكِّر في الأمر على هذا النحو. بالطبع علينا أن نفترض الكثير من الأمور، لكن لا يمكننا أن نتحرَّك قيد أنملة من دون أن نفترض الأشياء في هذا المجال. كانت الليدي ريفرسريد فيما مضى هي السيدة ويتينجهام. قامت السيدة ويتينجهام بتنفيذ جريمة تزوير ماكرة في سيليثوايت، وهربت بالغنيمة. كان باسيفيري شريكها في الجريمة. والآن وبعد مرور عشر سنوات أصبحت السيدة ويتينجهام هي الليدي ريفرسريد، تلك المرأة الثرية. وفجأة يزورها باسيفيري في قصر ريفرسريد، ومن الواضح أنها كانت مستاءة للغاية من زيارته الأولى. يزورها مرة أخرى. وبعد ذلك بثلاث ليالٍ شُوهدت وهي تخرج من نادٍ يتردَّد عليه هو كثيرًا. تقضي معظم الليلة في شقة في حيٍّ هادئ من لندن، وفي الصباح التالي تنطلق مبكرًا جدًّا في الخامسة صباحًا لأحد الموانئ؛ ساوثامبتون. فما الذي يمكن استنتاجه من ذلك؟ أن زيارتها إلى ساوثامبتون لها علاقة بكل تأكيد بزيارة باسيفيري لها وزيارتها إلى نادي فيفيان!»

قال هيثرويك: «أعتقد أنَّ ذلك ينطوي على شيء مهم أيضًا. لكننا في الطريق إلى ساوثامبتون. أكمل!»

أكمل مازرفيلد يقول: «كان قطارًا جيدًا للغاية. وصلنا إلى ساوثامبتون قبل الثامنة تمامًا، لم نتأخَّر إلا لدقيقة أو اثنتين. كنت أريد أن أتناول شيئًا من الطعام والشراب بحلول ذلك الوقت، وكنت مسرورًا لرؤية السيدة تلتفت لتدخل غرفة المرطبات فور أن غادرت عربة القطار التي كانت تستقلها. وهكذا تبِعتها أنا. كنت أعلم أنها لم يكن ليساورها الشك أبدًا بشأن رجل هادئ وطبيعي مثلي، وإن تفضَّلت ورمقتني بنظرة منها؛ إذ لاحظت أنها امرأة يبدو عليها التكبُّر، لظنت أنني مندوب تجاري متجول ليس إلا. ولم نكن بعيدين أحدنا عن الآخر في تلك الحجرة؛ إذ جلست هي إلى طاولة صغيرة، وكانت تتناول بعض الشاي وما إلى ذلك، وكنت أنا جالس عند المنضدة. لم أُظهِر قط أنني أرقبها بالطبع، لكنني حصلت على فرصتين أو ثلاث للنظر إليها بإمعان. لا شك أنها امرأة جميلة يا سيد هيثرويك، وهي متأنقة في ملبسها! لكنك بالطبع رأيت ذلك بنفسك.»

علَّق هيثرويك قائلًا وهو يضحك: «ينبغي أن تتذكَّر أنني لم أرَها إلا مرتين. مرة في فيكتوريا حين أشارت إليها الآنسة هانافورد، والأخرى ليلة أول من أمس، وكانت الإضاءة سيئة. لكنني سأصدِّق كلمتك يا مازرفيلد. حسنًا، وماذا حدث بعد ذلك؟»

استطرد مازرفيلد: «حسنًا، أخذت وقتها في تناول الشاي والخبز المحمص. أؤكِّد لك أنها تؤدي كل حركاتها في تؤدة. بعد ذلك، تحرَّكت أخيرًا وقد تبعتُها بالطبع بشكل

طبيعي وغير لافت. والآن وكما قد تعلم، فإن ساوثامبتون ويست، حيث نزلنا من القطار، تبعُد عن المدينة بعض الشيء، فتوقَّعت منها أن تستقل سيارة أجرة. غير أنها لم تفعل؛ إذ سارت مبتعدة عن المحطة. فعلت مثلها تاركًا بيننا مسافة تتراوح بين عشرين ياردة وثلاثين. أخذت المرأة وقتها؛ وبدا لي أنها تتسكع عمدًا. وأخيرًا خطر لي السبب في ذلك؛ كانت تنتظر حتى تفتح المكاتب التجارية أبوابها. وكنت محقًّا في ذلك؛ فحالما دقت ساعات المدينة معلنةً التاسعة أسرعت هي خطاها وتوجَّهت مباشرة إلى حيث مبتغاها. فماذا كان ذلك في ظنك؟»

قال هيثرويك: «ليس لديَّ أدنى فكرة.»

فأجاب مازرفيلد: «مكاتب وايت ستار! ذهبت إلى هناك مباشرة، ودخلت إلى المكان مباشرة! انتظرتها بالخارج طبعًا في مكانٍ لا يمكنها أن تراني منه حين تخرج مرة أخرى. مكثت هناك قرابة عشرين دقيقة. وحين خرجت توجَّهت إلى مكانٍ آخر من المدينة. وبالقرب من تلك البوابة القديمة، أو الحانة أو أيًّا كان ذلك الذي كان موجودًا في الجهة الأخرى من الشارع، فقدتُها تمامًا!»

علَّق هيثرويك: «أظن أن ذلك لسبب استثنائي يا مازرفيلد. كيف حدث ذلك؟»

زمجر مازرفيلد قائلًا: «كانت تلك غلطتي الفادحة! حوَّلت بصري عنها في منطقة مزدحمة للغاية؛ إذ كانت المدينة قد بدأت تزدحم. ما حدث أنني سمحت لانتباهي أن يتحوَّل عنها، وحينها اختفت! في البداية كنت متأكدًا أنها دخلت إلى أحد المتاجر. فنظرت في داخل عدة متاجر على الرغم من خطورة ذلك، لكنني لم أجدها. فتسكَّعت في الأرجاء؛ لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا. فاستنتجت أنها دلفت إلى أحد الشوارع الجانبية أو الأزقَّة أو الممرَّات، وكان هناك عدد منها، ثم اختفت. وبعد أن تسكَّعت في الأرجاء قليلًا، ورحتُ أسير في بعض الشوارع، وهو أسلوب سيئ في عملنا في أفضل أوقاته ويعتمد تمامًا على الحظ فقط، قررتُ أن أقوم بمحاولة جريئة وأن أتأكد من أي شيء على أي حال.»

سأله هيثرويك: «ماذا؟ كيف؟»

ردَّ مازرفيلد قائلًا: «فكَّرت في أن أعرف ما ذهبت إلى مكاتب «وايت ستار» من أجله. لم أُرِد بالطبع أن أثيرَ حولها أيَّ شكوك في ظل هذه الظروف. لكنني أثني على نفسي بقولي إنني أتمتَّع بشيء من الدبلوماسية؛ وضعت خطتي. دلفت إلى هناك، وتحدثت إلى موظفٍ بدا عليه أنه من النوع الذي يحافظ على الأسرار، وأخبرته بهويتي وأريته أوراق اعتمادي، وطلبت منه المعلومات التي أردتها. وقد حصلت عليها بالفعل. فمن حسن الحظ

أن ذلك الرجل كان قد أشرف على طلباتها بنفسه وكان يتذكَّرها جيدًا. كان قد مرَّ على وجودها هناك أكثر من ساعة ونصف بالفعل.»

سأله هيثرويك: «ولماذا كانت هناك؟ ماذا سمعت؟»

أومأ ماذرفيلد بشكل ينم عن شأن خطير.

وأجاب يقول: «ما توقعت أن أسمعه تمامًا. لقد حجزت تذكرة من الدرجة الثانية إلى نيويورك على متن سفينة «تارتاريك» التي كانت ستغادر ظهر ذلك اليوم تحت اسم إتش كانينجهام. فور أن عرفت ذلك، علمت أنني سأعثر عليها مرة أخرى، دون حاجة إلى تمشيط المدينة بحثًا عنها. تأكَّدت من معلومة أن الركَّاب سيُسمح لهم بالصعود على متن السفينة من الثانية ظهرًا؛ إذ إن السفينة ستغادر بين الخامسة والسادسة. لذا، وبعد أن حثثت الموظف ثانية على الحفاظ على السرِّ وأعطيته الأسباب الوجيهة لاستفساراتي، ذهبت لأستريح قليلًا، وفي الوقت المناسب كنت أجلس لتناول وجبة غداء مبكرة مريحة؛ إذ ينبغي على المرء أن يروِّح عن نفسه بين الحين والآخر يا سيد هيثرويك.»

قال هيثرويك: «بالتأكيد يا ماذرفيلد، أتفق معك. لكني أعتقد أن عقلك كان لا يزال مشغولًا بينما كنت تتناول طعامك وشرابك، أليس كذلك؟»

قال ماذرفيلد موافقًا: «هذا صحيح يا سيدي. أجل، كنت قد وضعت خططي. لم أكن سأذهب إلى نيويورك بالطبع؛ كان ذلك مفروغًا منه. لكنني كنت أريد أن أتحدَّث إليها. قررت أنني سأنتظر صعودها على متن السفينة «تارتاريك»؛ إذ خمنت أنها ستأتي مبكرًا بما أنها وحيدة. كنت سأعرض عليها أن نأخذ جانبًا، مخاطِبًا إياها باسم الليدي ريفرسريد بالطبع وكنت سأخبرها بهويتي وأريها أوراقي، وأسألها إن كانت تستطيع أن تدلي لي بمعلومات عن الدكتور سيبريان باسيفيري. كنت سأراقب استجابتها لذلك قبل أن أسألها أي شيء آخر؛ إذا رأيت أنها محجمة ومرتبكة، وإذا أعطتني إجابات مراوغة، فقد كنت سأسألها مباشرة إن كانت قبل زواجها من الراحل، السير جون ريفرسريد تُعرَف باسم السيدة ويتينجهام، تلك السيدة التي مكثت لبعض الوقت في فندق «وايت هارت» في سيليثوايت قبل عشر سنوات. وكنت قد قررت أيضًا أنها لو اعترفت بذلك ورأيت سببًا وجيهًا، فسأُلقي القبض عليها.»

قال هيثرويك متعجبًا: «أكنت تنوي فعل كل هذا؟»

أجاب ماذرفيلد: «بالفعل! كان لديَّ الكثير من المبرِّرات التي تدفعني لذلك. لكن أيًّا من ذلك لم يحدث؛ لأنني لم أرَها قط! وصلت إلى مكان الرحيل قبل الثانية بوقت كافٍ،

وتأكدت من أن أحدًا لم يصعد على متن السفينة حتى تلك اللحظة. ظللت أراقب بعينين ثاقبتين قدر إمكاني منذ الثانية إلا عشر دقائق وحتى الخامسة وخمس وعشرين دقيقة حين أبحرت السفينة، لكنها لم تظهر. قد تقول بالطبع إنها مرت ولا بد من دون أن ألحظها، لكنني متأكد من أنها لم تفعل. لا يا سيدي! في رأيي أنها أعادت التفكير في الأمر ولم تغادر؛ فخسارتها لسعر التذكرة أو جزء منه لن يمثِّل معضلة لامرأة تتمتَّع بما تتمتع هي به من موارد مالية، أو أنها خافت في اللحظة الأخيرة من أن تُظهر نفسها على ذلك المسرح!»

قال هيثرويك متسائلًا: «خائفة! لماذا؟»

ضحك ماذرفيلد كثيرًا.

وأجاب يقول: «كان هناك رجلان أو ثلاثة من رجالنا في سكوتلاند يارد في الأرجاء. لا أعرف ما كانوا يسعون خلفه، ولم أسألهم. لكنني طلبت منهم أن يساعدوني في البحث عن سيدة قدمتُ لهم أوصافها بالكامل؛ وهذا هو سبب يقيني من عدم خروجها على متن السفينة. مَن يدري! ربما تكون قد ذهبت إلى هناك وتعرَّفت على بعض أولئك الرجال، ونأت بنفسها عن المكان! على أي حال، لم تقع المرأة تحت ناظري مجددًا. الحق أنني لم أرَها مرة أخرى بعد أن فقدت إثرها في الصباح. لذا؛ هذا هو موقفي!»

علَّق هيثرويك قائلًا: «إذن فقد عُدت، مهزومًا؟»

أقرَّ ماذرفيلد قائلًا: «إن كنت تريد أن تصف الأمر بذلك. أجل، عُدت في قطار السابعة وثمانٍ وثلاثين دقيقة. كنت في غاية الإنهاك! لكنني لم أنتهِ من هذا الأمر بعدُ يا سيد هيثرويك، وأريد منك أن تفعل شيئًا لأجلي. الآنسة هانافورد في قصر ريفرسريد الآن. يوجد هاتف هناك بالطبع. أريد منك أن تتصل بها في وقت مبكر من صباح الغد، واطلب منها أن تقابلك ظهرًا في دوركينج بشأن أمر خاص وهام، إن كانت تستطيع ذلك. أين يمكننا أن نلتقي مثلًا؟»

اقترح هيثرويك قائلًا: «سيَفي «وايت هورس» بالغرض.»

فوافقه ماذرفيلد قائلًا: «جيد جدًّا، فندق «وايت هورس» عند الظهيرة. سنذهب إلى هناك بقطار العاشرة وعشر دقائق من فيكتوريا؛ ذلك أنني سوف أذهب معك. والآن من فضلك، كن حذرًا للغاية بهذا الشأن يا سيد هيثرويك، حين تجري المكالمة الهاتفية. لا تقُل أيَّ شيء عن أيِّ سبب للذهاب إلى دوركينج. ولا تذكر الليدي ريفرسريد بأيِّ شكل من الأشكال. لا تقُل للآنسة هانافورد إلا أنك تريد رؤيتها لأسباب عاجلة. ورتِّب للقاء!»

ردَّ عليه هيثرويك قائلًا: «حسنًا، يمكنني أن أرتِّب اللقاء بسهولة. يمكن للآنسة هانافورد أن تركب السيارة بسهولة من قصر ريفرسريد. لكنني لا أعرف ما تريد منها.»

أجابه ماذرفيلد بنظرة العارِف: «انتظر حتى الصباح وسترى. سأقابلك في فيكتوريا في العاشرة بالضبط.»

الفصل الرابع عشر

أهو ابتزاز؟

كان هيثرويك لا يزال جاهلًا بسبب رغبة ماذرفيلد في رؤية رونا حين خرج هو وماذرفيلد قبل ظهيرة اليوم التالي من محطة دوركينج إلى الشارع الرئيسي، وتوجَّها إلى فندق «وايت هورس». توقَّف ماذرفيلد قبل باب الفندق ببضع ياردات.

وقال: «لننتظرها بالخارج، حتى أسألها سؤالًا أو اثنين. لا أريد حتى أن أخاطر بأن يسمعنا أحد عَرَضًا.»

بعد بضع دقائق جاءت رونا في سيارة ولدى رؤيتها للرجلين تقدَّمت نحوهما. ولم يضيِّع ماذرفيلد وقتًا في الدخول إلى صلب الموضوع.

فقال بصوت خفيض وهو يرمق المكان حوله بحذر: «أخبريني يا آنسة هانافورد، هل الليدي ريفرسريد موجودة في القصر؟» وأكمل بينما أومأت رونا: «موجودة! متى عادت إذن؟»

أجابت رونا على الفور: «في وقت مبكِّر من صباح الأمس. في قطار السابعة وخمس وأربعين دقيقة من فيكتوريا. كانت في القصر بحلول التاسعة والنصف.»

نظر ماذرفيلد إلى هيثرويك بوجه حائر تمامًا. وراح يحدِّق برونا.

وقال متعجبًا: «في قصر ريفرسريد في التاسعة والنصف صباح أمس الثلاثاء! مستحيل! لقد رأيتها بأم عيني في ساوثامبتون في التاسعة والنصف من صباح أمس.»

ردَّت رونا بضحكة ساخرة: «واثقة تمامًا من أنك لم تفعل! أنت واقع تحت تأثير انطباع خاطئ يا سيد ماذرفيلد. كانت الليدي ريفرسريد في منزلها، هنا معي في التاسعة والنصف من صباح أمس. هذه حقيقة يمكنني أن أجزم لكما بها!»

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر. بدا أن كلًّا منهما يسأل الآخر سؤالًا صامتًا. لكن ماذرفيلد نطق بسؤاله فجأة، بنبرة تنم عن التعجب والاستياء.

إذن فمَن تكون تلك المرأة التي تتبَّعتها إلى ساوثامبتون بحق السماء؟»

مرَّ سؤال ماذرفيلد من دون إجابة. أما رونا التي لم يكن لديها أدنى فكرة عما يتحدَّث عنه ماذرفيلد، فقد نظرت إلى هيثرويك وعلى وجهها علامات الدهشة والحيرة. ورأى هيثرويك أن الوقت قد حان للكثير من التفسيرات.

فقال: «اسمعا! ينبغي علينا أن نتحدَّث، ولا يمكننا أن ندَع الآنسة هانافورد واقفة في الشارع. لندخل إلى الفندق ونحصل على غرفة خاصة لتناول الغداء، وحينها يمكننا أن نناقش الأمور بخصوصية.» وأكمل يقول بعد بضع لحظات وهو يلتفت إلى رونا حين كان ثلاثتهم يجلسون معًا بعد أن طلبوا طعام الغداء: «أنتِ متحيرة بعض الشيء من كل هذا. ولا عجب في ذلك! لكن من الأفضل أن أخبرك بما كنا أنا وماذرفيلد نفعله مساء الإثنين، وما كان ماذرفيلد يفعله طوال يوم أمس.» واختتم حديثه بعد أن قدَّم لرونا سردًا موجزًا للإجراءات الأخيرة: «حسنًا، كنت متأكدًا تمامًا من أن المرأة التي رأيناها تخرج من نادي «فيفيان» مساء يوم الإثنين كانت هي المرأة التي أشرتِ إليها صباح يوم الأحد في فيكتوريا على أنها الليدي ريفرسريد؛ إذ كانت ترتدي الملابس نفسها، أنا متأكد من ذلك! باختصار، أنا مقتنع أنها كانت الليدي ريفرسريد. وأنا وماذرفيلد واثقان تمامًا أن تلك المرأة كانت هي نفسها التي رأيناها تخرج من شقة في «سانت ماري مانزيونز» قبل الخامسة من صباح الأمس بوقت قليل، والتي تبِعها ماذرفيلد إلى ساوثامبتون، حتى الآن، لم يساورنا الشك أنها كانت الليدي ريفرسريد، لم يساورنا أي شك!»

قالت رونا وهي تضحك ضحكة تنم عن الشك: «حسنًا، لا يمكنني بالطبع أن أقول إنكما لم تريا الليدي ريفرسريد وهي تخرج من نادي فيفيان مساء الإثنين. من المؤكد أن الليدي ريفرسريد كانت في المدينة منذ صباح يوم الأحد وحتى صباح يوم أمس، وربما ذهبت إلى نادي فيفيان مساء الإثنين لأسباب خاصة بها. لا أعلم شيئًا عن ذلك. لكنني أعلم أنها لم تكن في ساوثامبتون أمس؛ ذلك أنها وكما أخبرتكما، كانت في قصر ريفرسريد في غضون الساعة التاسعة والنصف صباحًا، ولم تغادر المنزل منذ ذلك الحين. هذه حقيقة واضحة!»

صاح ماذرفيلد: «أنا لا أفهم شيئًا إذن! وأقولها مرة أخرى، إن لم تكن تلك المرأة التي تتبَّعتها إلى ساوثامبتون هي الليدي ريفرسريد، فمن كانت إذن؟ إضافةً إلى ذلك، إن كانت تلك المرأة التي رأيناها وهي تخرج من نادي فيفيان وتتبَّعناها إلى بادينجتون هي الليدي ريفرسريد حقًّا، لكنَّ المرأة التي خرجت من الشقة صباح أمس، وذهبتُ في إثرها

ليست هي الليدي ريفرسريد، إذن فإن لليدي ريفرسريد شخصية مطابقة لها تعيش في «سانت ماريز مانزيونز»! هذا ما أعرفه!»

فعلَّق هيثرويك قائلًا: «بخصوص ذلك، لم أخبرك ليلة أمس يا ماذرفيلد أنني عُدت أمس إلى ذلك المنزل الذي اتخذناه للمراقبة، وقمت ببعض الاستفسارات الحذرة عن تلك المرأة الطويلة الجميلة التي تمتلك شقة بالجهة المقابلة للمنزل. وقد حصلت على بعض المعلومات. تلك المرأة التي تتبَّعناها إلى هناك والتي كنتَ تلاحقها أمس تُعرف هناك باسم السيدة ليستوريل. وهي نادرًا ما تكون في شقتها على الرغم من أنها دقيقة في دفع إيجارها. وفي بعض الأحيان تغيب عن الشقة فترات طويلة، بل إنها نادرًا ما تُرى هناك. ويُعتقد أنها تعمل في مجال المسرح. وقد رآها الحارس الذي أمدني بهذه المعلومات في شقتها يوم الإثنين.»

ضرب ماذرفيلد كفًّا بكف.

وصاح قائلًا: «إنه اسم مستعار! أراهنك على أنها الليدي ريفرسريد! تغيب عن شقتها فترات طويلة؟ بالطبع؛ لأنها تكون هنا في منزلها الكبير. وتحتفظ بتلك الشقة لغرضٍ خاص بها وتدعو نفسها باسم ... ماذا كان اسمها؟ يبدو لي فرنسيًّا.»

فقال هيثرويك معلِّقًا وهو يرمق رونا بنظرة خاطفة: «لكن بافتراض أن الأمر على هذا النحو، من المستحيل أن تكون الليدي ريفرسريد في قصر ريفرسريد أمس وفي ساوثامبتون في الوقت نفسه! بحقكم!»

غمغم ماذرفيلد: «صدِّقني حين أقول إنني أعجب لهذا الأمر! أنا متيقن مما رأيت! وإن كان ثمَّة خطأ، فهذا خطؤك أنت يا سيد هيثرويك! أنا لا أعرف تلك المرأة المدعوة بالليدي ريفرسريد! كلُّ ما أعرفه هو أنك قلت إن المرأة التي كانت تخرج من النادي هي الليدي ريفرسريد. وتلك يا سيدي هي المرأة التي تتبَّعتها!»

فقال هيثرويك مؤكِّدًا بنبرة هادئة: «المرأة التي رأيتها تخرج من نادي «فيفيان» كانت هي المرأة التي أشارت إليها الآنسة هانافورد باعتبارها الليدي ريفرسريد. هذا أمر مؤكَّد! لكن ...»

قاطعه عند هذه النقطة وصول طعام الغداء. ولم يستمرَّ الحديث إلا حين اتخذ ثلاثتهم مجلسهم وصرفوا النادل. ثم نظرت رونا إلى رفيقيها وابتسمت.

وقالت: «يبدو أنكما وصلتما إلى مرحلة واعدة. كنت أظن في البداية أنه طريق مسدود، لكن ...»

قال هيثرويك: «أوَليس كذلك؟ في الوقت الراهن لا أرى مخرجًا من الأمر أو طريقة لتجاوزه.»

فكرَّرت رونا تقول: «كلا، أعتقد أنكما ستصلان إلى شيء! فكل هذه الأشياء أفضل من لا شيء، حتى إن كانت تبعث على الحيرة. لديَّ أخبار أيضًا، إن كنتما واثقين من أنه لا يوجد متنصِّتون في الأرجاء.»

فقال هيثرويك: «أجل، نحن على ما يُرام! تلك أبواب عتيقة سميكة، وهي تغلق جيدًا. ماذا بعدُ؟»

مالت رونا عبر الطاولة قليلًا وخفضت صوتها.

وقالت: «شهد القصر أمس، أو «الدار» على الأقل، شيئًا من الضجة. كان ذلك مع الرجل المدعو باسيفيري!»

قال هيثرويك متعجبًا: «آه! هذا مثير للاهتمام! أخبرينا عن ذلك.»

فأكملت رونا تقول: «حسنًا، أخبرتكما أن الليدي ريفرسريد وصلت من لندن صباح أمس في حوالي التاسعة والنصف، ووصل الرائد بنتيني معها.»

قال ماذرفيلد متسائلًا: «ومَن هو الرائد بنتيني؟»

فأجابه هيثرويك: «إنه رجل عسكري متقاعد ويبدي اهتمامًا كبيرًا بدار الليدي ريفرسريد، ويتولى أمرَ الدار في لندن. وتعتقد الآنسة هانافورد أنه مغرم بمؤسِّسة الدار. لقد رأيته، رأيته مع الليدي ريفرسريد يوم الأحد.» وأضاف وهو يلتفت نحو رونا: «أجل، عاد معها الرائد بنتيني؟ أكملي.»

فأكملت رونا تقول: «فور أن وصلا — رأيتهما من نافذة مكتبي قادمَين — أتيا إلى «الدار». وبدا لي أن كليهما يحمل أمارات التجهُّم والجدية. تحدثا إليَّ دقائق قليلة عن أمورٍ متعلقة بالعمل، ودلفا بعد ذلك إلى مكتب الليدي ريفرسريد الخاص. قضيا في المكتب بعض الوقت، ثم خرجت الليدي ريفرسريد وغادرت؛ إذ رأيتها وهي تتوجَّه نحو القصر. وبعد ذلك خرج الرائد بنتيني وأتى نحوي وقال لي بأنه يرغب في أن يحدثني قليلًا على انفراد. وبقدرِ ما يسعني أن أتذكَّر، قال لي: «آنسة فيذرستون ...»»

رفع ماذرفيلد وجهه بسرعة من طبقه.

وقال: «ماذا؟ الآنسة ... فيذرستون؟»

قال هيثرويك: «هذا هو اسم الآنسة هانافورد هناك. إنه اسم والدتها. لقد أخبرتك من قبل.»

غمغم ماذرفيلد وهو يبتسم: «صحيح، صحيح! لقد أخبرتني بذلك، أتذكَّر الآن. إنما أنا مشغول البال بما حدث أمس.»

استطردت رونا: ««آنسة فيذرستون، أعتقد أنك تعرفين أن الليدي ريفرسريد قد زارها مؤخرًا، ولمرتين، رجل يقول إن اسمه الدكتور سيبريان باسيفيري؟»

«فأجبته: «أجل، أعرف أيها الرائد بنتيني. لقد رأيت الدكتور باسيفيري في كلتا المرتين.» تابع يقول: «حسنًا، وهل ترك لديك انطباعًا طيبًا يا تُرى؟» فأجبته: «كلا، على الإطلاق أيها الرائد بنتيني، بل إنَّ انطباعي عنه سلبي جدًّا.» فسألني بابتسامة قائلًا: «ألم يُعجبك مظهره؟» فتساءلتُ قائلة: «أيعجبك أنت؟» فأجابني: «لم أرَ الرجل من قبل، لكنني أتوقَّع رؤيته في هذا الصباح بالتحديد. هذا هو ما أريد أن أحدِّثك بشأنه. أظنُّ أنه سيأتي قربَ حلول الظهيرة، كما عرفت أنه فعل من قبل، وسيرغب بالطبع في رؤية الليدي ريفرسريد. أريد منكِ أن تخبري حارسَ البابِ ميتشل بأن يُدخِله مباشرةً فور أن يصل، وألا يقول ميتشل بأن الليدي ريفرسريد ليست موجودة — إذ إنها لن تكون موجودة — لكنه سيُدخِله على الفور؛ وأريد منكِ، إذا سمحتِ، أن تدخليه إلى المكتب الخاص مباشرة. وبدلًا من أن يجد الليدي ريفرسريد، سيجدني أنا. أهذا واضح؟» فأجبته: «واضح تمامًا أيها الرائد بنتيني. سأتولَّى الأمر.» فقال: «حسنًا، ثمة شيء آخر أيضًا. بعد أن أتحدَّث مع ذلك الرجل لبرهة، سأدق الجرس. أريد منكِ أن تدخلي ومعكِ ميتشل. هذا هو كلُّ ما أريد في الوقت الراهن. هل هذا مفهوم؟» فأجبته: «مفهوم أيها الرائد بنتيني. سأنفِّذ ذلك. لكن بما أنك لم ترَ هذا الرجل من قبل، فهناك شيء واحد أريد أن أخبرك به، وهو أنه من نوعية الرجال الذين يبدو عليهم أنهم قد يكونون خطرين.» فابتسم لذلك وقال: «شكرًا لكِ. أنا مستعد لذلك آنسة فيذرستون. أدخليه على الفور».»

توقَّفت رونا برهةً لكي تتناول شيئًا من طعامها. لكن سكين هيثرويك وشوكته كانا ساكنين؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى ماذرفيلد؛ كان من الواضح أنَّ كليهما منهمك في الاستماع. وابتهج وجه ماذرفيلد فجأةً وغمز بعينه إلى هيثرويك في إيماءةٍ لا تخطئها العين.

وغمغم وهو يضحك ضحكةً شبه مكتومة: «جيد! جيد! جيد! بدأت أرى بصيص أمل! ممتاز! حين تكونين مستعدة آنسة فيذرستون ...»

أكملت رونا تقول بعد أن سكتت دقائق قليلة: «باقتراب الظهيرة وصل الدكتور سيبريان باسيفيري بالسيارة. كنت قد نقلت إلى ميتشل التعليمات، فأدخل هو باسيفيري

إلى مكتبي مباشرة. كان مما لا شك فيه أن باسيفيري في أفضل أحواله المزاجية؛ إذ انحنى وابتسم لدى رؤيتي كما لو كان يتوقَّع أن يجدني أتحرَّق شوقًا لرؤيته. لم أجِبه على تحيته المنمَّقة؛ كلُّ ما فعلتُ أنني نهضت وأرشدته إلى باب المكتب الخاص وأغلقته خلفه وهو يخطو عتبته. ضحكت بعدما فعلت ذلك؛ إذ لم يكن سيرى مَن ينتظره حتى يدلف إلى داخل الحجرة، وكنت قد فهمت من الرائد بنتيني أن استقبال الرجل لا يمكن أن يكون سارًّا أو لطيفًا.»

فرك ماذرفيلد يده.

وقال بضحكته المكتومة: «جيد! جيد! ليتني كنت موجودًا في تلك الحجرة!»

قالت رونا: «لم يمرَّ وقت طويل حتى دخلتها يا سيد ماذرفيلد. كنت أشعر بفضولٍ جارف بالطبع لمعرفةِ ما كان يحدث بداخلها، لكن الباب يُغلق بإحكام، ولم أسمع أيَّ شيء؛ لا أصوات غاضبة أو أي شيء. لكن بعد أقل من عشر دقائق، دقَّ الجرس بصوت حادٍّ. فدعوت ميتشل، وهو رجل ضخم متناسق البنية ذو مظهر حازم للغاية، وكان يعمل قبل ذلك في فرقة حراسة، ودخلنا. استوعبت كلَّ شيء من أول لمحة، كان الرائد بنتيني يجلس على مكتب الليدي ريفرسريد. وعلى ورق التنشيف كان هناك مسدس ...»

صاح ماذرفيلد متعجبًا: «ماذا! أنتِ واثقة! مسدس! حسنٌ!»

«وفي مواجهة المكتب وقف باسيفيري الذي كان يحدِّق في الرائد بنتيني أولًا ثم راح يحدِّق بنا. من الصعب عليَّ أن أصف ما بدا عليه. أعتقد أن التعبير الأساسي الذي ارتسم على وجهه كان الذهول الحاد.»

فهتف هيثرويك: «الذهول؟»

«الذهول! الدهشة! بدا كرجل سمع لتوِّه شيئًا كان يعتقد أنه من المستحيل أن يسمعه. رأيتُ في وجهه نظرة غضب وحَنق أيضًا؛ ولو لم يكن المسدس بالقرب من أنامل الرائد بنتيني ولو لم يكن ميتشل موجودًا لكنت صرخت ولُذت بالفِرار. بالرغم من ذلك، فلم أكن الشخص المنوط به الفِرار. فحالما دخلت وميتشل، تحدَّث الرائد بنتيني في هدوء شديد. أومأ إلى باسيفيري. وقال: «آنسة فيذرستون وأنت يا ميتشل، أترَيان هذا الرجل؟ إن أتى إلى هنا ثانية، فامنعه من الدخول يا ميتشل، وأنتِ يا آنسة فيذرستون حين تسمعين من ميتشل أنه هنا، اتصلي بالشرطة وسيقبضون عليه إن كان لا يزال موجودًا.» التفت بعد ذلك إلى باسيفيري. وأكمل يقول وهو يشير إلى الباب: «والآن أيها الرجل! انصرف، بسرعة! اذهب!» نظرت إلى باسيفيري بالطبع. وقف الرجل وهو ينظر إلى الرائد بنتيني

غير مصدق. بدا لي أنه يكاد لا يُصدِّق أذنيه؛ لقد ترك لديَّ انطباعًا بأنه غير قادر على تصديق أن يلقى مثلَ هذه المعاملة. غير أنه كان يستشيط غضبًا أيضًا. كانت أصابعه تتململ، وعيناه تتأجَّجان من شدة الغضب، وكان مظهر شفتَيه مريعًا. وأخيرًا، نطق ببضع كلمات ...»

قاطعها ماذرفيلد قائلًا: «أخبرينا بهذه الكلمات بالضبط إن كنت تستطيعين فعْل ذلك.»

قالت رونا: «أستطيع بالطبع؛ فليس من المرجَّح أن أنساها. قال الرجل: «ماذا ... تتحداني ... وأنا أعرف ما أعرف ... وأنا أعرف ما أعرف».»

غمغم ماذرفيلد: ««وأنا أعرف ما أعرف!» وهو يعرف ما يعرف! أمممم، ثم ماذا بعد؟»

«أشار الرائد بنتيني إلى الباب. وقال: «انصرف كما آمرك! وانظر في الصحف الليلة. هيا انصرف».»

قال ماذرفيلد: «انظر في الصحف الليلة؟ أممم ... أممم! أظنُّ بأنه غادر بعد ذلك؟»

أقرَّت رونا قائلة: «ذهب من دون أن ينطق بكلمة أخرى، صحِبه ميتشل إلى الخارج وشاهده وهو ينصرف. نظر إليَّ الرائد بنتيني حين غادر. وقال: «والآن يا آنسة فيذرستون. هذا هو أحد أكبر المحتالين في لندن، بل في أوروبا. لنأمل ألا تريه مرة أخرى، وأن تكون تلك هي نهايته هنا. أظنُّ أنه تعلَّم درسه!» لم أُجِبه، لكنني كنت مسرورة جدًّا لرؤية سيارة باسيفيري وهي تنطلق من أمام «الدار»!»

أخذ ماذرفيلد إبريقَ البيرة الموضوع بجانبه وتجرَّع منه شيئًا كثيرًا. وضع الإبريق من يده بقرعة لافتة للنظر.

وقال بنبرة المنتصر: «أعرف ما هي تلك المسألة! إنها مسألة ابتزاز!»

وافقه هيثرويك قائلًا: «صحيح تمامًا! إنني أفكِّر في هذا منذ عشر دقائق. كان باسيفيري يسعى لابتزاز الليدي ريفرسريد. لكن هذه ليست مسألتنا، كما تعلمان. إن ما نسعى خلفه هو حل اللغز المحيط بموت هانافورد. هل يوضِّح هذا أي شيء؟»

أجاب ماذرفيلد: «أعتقد أنه سيوضِّح شيئًا في هذه القضية بالفعل! فأنا أرى أنه قطعة من اللغز، أو على الأقل قطعة من قطعة، ولدينا قِطَع كثيرة كالأُحجية. المسألة تكمن في وضع هذه القِطَع معًا. وهناك شيئان يمكن لنا أن نحاول القيام بهما في وقت واحد. الأول هو أن نعرف أكثرَ عن ذلك الرجل المدعو باسيفيري، والآخر هو الحصول على مزيد من المعلومات عن المرأة التي تسكن في «سانت ماريز مانزيونز».»

قال هيثرويك مقترحًا: «ماذا عن الذَّهاب إلى الليدي ريفرسريد للحصول على المعلومات، أو إلى الرائد بنتيني؟»

قالت رونا بنبرةٍ أشبه إلى التلهف: «أجل، لماذا لا تفعلان ذلك؟ افعلا ذلك! بدأت أشعر بالتعب من كوني الآنسة فيذرستون هناك. أريد أن أخبر الليدي ريفرسريد بالحقيقة، بكل الأسباب والتعليلات.»

لكن ماذرفيلد هزَّ رأسه نافيًا. وصرَّح بأن وقت ذلك لم يكن قد حان بعد، وأن عليهم الانتظار بعض الوقت. وبعد المزيد من الحديث، عاد هو وهيثرويك إلى لندن.

الفصل الخامس عشر

اكتشافات

كانت طبعة فترة الظهيرة المتأخرة من صحف المساء قد صدرت لتوِّها حين وصل ماذرفيلد وهيثرويك إلى فيكتوريا. فأخذ ماذرفيلد واحدة منها بسرعة؛ وبعد دقيقة دفع بها في وجه هيثرويك وهو يشير إلى أحرف سوداء كبيرة.

وصاح متعجبًا: «يا إلهي! انظر إلى هذا!»

نظر هيثرويك وشهق من دهشته مما قرأ.

مقتل روبرت هانافورد.
مكافأة قدْرها خمسة آلاف جنيه.

التفت هيثرويك إلى رفيقه بنظرة تنم عن الدهشة والتساؤل.

وقال: «هذا على الأرجح — لا، بل من المؤكَّد! — ما أشار إليه بنتيني حين أخبر باسيفيري أن يطَّلِع على الصحف! كان هذا أمس؛ لا بد أنَّ الإعلان قد ورد في صحف ليلة أمس وصحف هذا الصباح. لم أقرأ أيًّا منهما.»

قال ماذرفيلد: «انتظر.» وأسرع عائدًا إلى كشك الكتب ورجع وهو يحمل الكثير من الصحف، وكان يقلِّب في أعلاها وهو عائد. تابع يقول: «إنه مذكور هنا، وهنا! لنذهب إلى زاوية هادئة في مكانٍ ما وننظر في هذا الأمر بإمعان!»

قال هيثرويك: «لندخل إلى أحدِ غرف الانتظار إذن.» وغمغم يقول وهما يبتعدان: «هذا غريب! مَن ذا الذي يضع مكافأة، وبهذا الحجم، وهو غير معني بالقضية؟»

قال ماذرفيلد متعجبًا: «كيف لنا أن نعرف مَن هو غير معني بالقضية؟ لا شك أنَّ أحدهم معني بها! ومن الواضح أنه شخص ليس بمقدوره أن يقدِّم خمسة آلاف جنيه

فحسب، بل إنه ينفق بسخاء شديد في الإعلان عنها.» قال وهو يقلِّب في الصحف التي اشتراها بسرعة: «انظر إلى هذا، وهذا، وهذا. إنه منشور في كل جريدة في لندن!»

قال هيثرويك: «لنقرأه بإمعان.» وفردَ واحدة من الصحف على طاولة قاعة الانتظار وغمغم بقراءة كلمات الإعلان فيما كان ماذرفيلد ينظر إلى الجريدة من فوق كتفه. واختتم يقول: «غريب جدًّا هذا الأمر! ماذا يعني ذلك؟»

لكن ماذرفيلد كان يعيد قراءة الإعلان.

حيث إنَّ روبرت هانافورد، الذي كان يعمل في السابق مفوَّضًا للشرطة في سيليثوايت بيوركشاير، قد مات فجأة في أحد قطارات الأنفاق بالقرب من محطة تشارينج كروس (الجسر)، وذلك في الواحدة والربع صباحًا يوم التاسع عشر من شهر مارس الماضي، وحيث إنَّ التحريات الطبية المتخصصة أثبتت أنه مات مسمومًا، وحيث إنه توجد أدلةٌ تدعم الاعتقاد بأن السُّم قد وُضع له بيد شخص أو أشخاص تعمَّدوا قتله، فإن هذا الإعلان منوط بتوجيه إشعار بأنَّ مبلغ الخمسة آلاف جنيه المذكور أعلاه سيُدفع لأول شخصٍ يدلي بمعلومات من شأنها أن تؤدي إلى إلقاء القبض على الشخص أو الأشخاص المسئولين عن وضْع السُّم، على أن تُقدَّم تلك المعلومات إلى الموقِّع أدناه، والذي سيدفع المكافأة المذكورة طبقًا للشروط السالفة الذكر.

بنتيني، «بلينكنسوب آند بنتيني» للمحاماة.

الثاني والعشرين من أبريل ١٩٢٠
٨٥٣، «لينكولنز إن فيلدز»
لندن، دبليو سي

أشار ماذرفيلد إلى أسماء الموقِّعين.

وعلَّق قائلًا: «بنتيني، هذا هو اسم الرجل الذي ذكرتْه الآنسة هانافورد، وقالت إنه هو مَن طرد باسيفيري.»

قال هيثرويك: «بالطبع؛ الرائد بنتيني. ربما هو شريك صغير في تلك الشركة. أعرف أسماءهم، لكنني لا أعرف الكثيرَ عنهم.»

قال ماذرفيلد: «كنت أظنُّه جنديًّا. فقد دعته برتبةِ الرائد.»

فأجابه هيثرويك: «من المرجَّح جدًّا أنه كان ضابطًا في الجيش الاحتياطي. على أي حال، الأمر واضح تمامًا يا مازرفيلد، في ضوء جميعِ ما نعرفه. نُشِر هذا الإعلان بالنيابة عن الليدي ريفرسريد. لا شك أنَّ شركة «بنتيني، بلينكنسوب آند بنتيني» هي التي تقوم بأعمال المحاماة لها. لكن، لماذا؟»

قال مازرفيلد متعجِّبًا: «أجل، لماذا؟ هذا هو ما يشغل ذهني! ما شأنها ومقتل هانافورد؟ لماذا ترغب في أن تقدِّم قاتله للعدالة؟ إن عرضت حفيدته مائة جنيه مثلًا مقابل الحصول على معلومات، فربما أتفهم ذلك؛ فهي من لحمه ودمه. لكن الليدي ريفرسريد! إن كانت هي حقًّا المرأة التي كانت فيما مضى السيدة ويتينجهام، فسيكون الأرجح أن تُسرَّ بابتعاد هذا الرجل عن طريقها! ربما لا يكون هذا الإعلان منه في نهاية المطاف.»

قال هيثرويك مؤكِّدًا: «أنا واثق تمام الثِّقة أنه منها. فنظرًا لجميعِ ما نعرفه، ما هو الاستنتاج الآخر الذي يمكن أن نتوصَّل إليه؟ هذا الإعلان من الليدي ريفرسريد ومستشارها الرائد بنتيني، وله علاقة بذلك الرجل المدعو باسيفيري. لكن ما تلك العلاقة؟»

غمغم مازرفيلد: «علينا التقصي عن ذلك. فهم لم يتوجَّهوا إلينا للحديث عن الأمر قط. هذا عرض تطوُّعي تمامًا من جانبهم. لقد نحَّوا الشرطة عن المسألة تمامًا.»

قال هيثرويك: «حسنًا، لديَّ اقتراح. أعتقد أنه سيكون من الأفضل إذا ذهبنا أنا وأنت إلى بنتيني في صباح الغد. يمكننا أن نخبرهم شيئًا، وربما يخبروننا هم بشيء. تقسيم الجهود حماقة على أي حال؛ من الأفضل كثيرًا أن نتحد في جهد مشترك.»

ردَّ عليه مازرفيلد بنبرةٍ تنم عن التشكك: «أممم! لكنْ أولئك المحامون دائمًا ما يحتفظون بشيء في جَعبتهم؛ بطاقةٍ ما يرغبون في استخدامها في الوقت الملائم لهم. بالرغم من ذلك، يمكننا أن نجرِّبهم.»

قال هيثرويك: «قابلني عند الزاوية الجنوبية الشرقية من ميدان «لينكولنز إن فيلدز» في تمام العاشرة والنصف من صباح الغد. يقع مكتب شركة بنتيني قريبًا من هناك. سنذهب معًا، وسنسألهم مباشرة عن معنى هذا الإعلان.»

قال مازرفيلد: «حسنًا، لكن ماذا لو لم يجيبونا؟»

أجابه هيثرويك: «إذن في تلك الحال سنذكر اسم الليدي ريفرسريد، وسنسألهم إن كانت الليدي ريفرسريد صاحبة قصر ريفرسريد والسيدة ويتينجهام التي مكثت قبل ذلك في سيليثوايت هما شخص واحد.» وأردف: «بحقك يا مازرفيلد! أظنُّ أن باستطاعتنا أن نريهم أننا نعرف الكثير بالفعل.»

أقرَّ مازرفيلد قائلًا: «لا شك بأنَّ لدينا بطاقةً أو اثنتين يمكن أن نستخدمهما. لا بأس يا سيد هيثرويك! لنلتقي صباح الغد إذن مثلما اقترحت.»

كان ينتظر في المكان المحدَّد حين جاء هيثرويك يسير مسرعًا في صباح اليوم التالي. وفي الحال صحبه هيثرويك إلى الجزء السفلي من ميدان «فيلدز».

وقال: «عرفت شيئًا عن هؤلاء الأشخاص الذين نحن ذاهبون لرؤيتهم. فقد أخبرني موظفو مابيرلي ببعض المعلومات؛ إنه أشبه بموسوعة تسير على قدمين. هي شركة قديمة ذات مكانة مرموقة. تقاعد بنتيني الأب، وأصبحت الشركة تُدار الآن في حقيقة الأمر على يد بلينكنسوب وبنتيني الابن. إنَّ بنتيني الابن هذا، هو الرائد بنتيني الذي يولي اهتمامًا كبيرًا بدار الليدي ريفرسريد، وبالليدي ريفرسريد نفسها. وكما أشرت ليلة أمس، كان ضابطًا في الجيش الاحتياطي بالفعل؛ لذا فقد عاد الآن إلى وظيفته. والآن يا مازرفيلد، لنضعْ خطةَ حملتنا. أنت بالطبع، لديك أوراق اعتمادك الرسمية، وأنا شخص مهتم كثيرًا بهذه القضية؛ إذ يصدف أنني الرجل الذي شهد على وفاة هانافورد. وأظنُّ من الأفضل لو كنتَ أنتَ المتحدِّث.»

فاقترح مازرفيلد عليه قائلًا: «حسنًا، هل ستتدخَّل حين أحتاج إليك؟ أنت معتاد على المحامين أكثرَ مني، بما أنك محامٍ.»

أجابه هيثرويك ضاحكًا: «من المؤسف يا مازرفيلد أنَّ معرفتي بالمحامين محدودة للغاية حتى الآن. لقد رأيت القليل منهم، لكن ذلك كان بين الحين والآخر فحسب. على أية حال، ها نحن أولاء، قد وصلنا إلى المنزل رقم ٨٥٣، ويا له من منزل عتيق متين وقاتم.»

كان على الزائرَينِ أن ينتظرا بعضَ الوقت قبل أن يهتم الموظَّفون الذين قد أُرسِلَت لهم بطاقتا الزائرَين بالأمر. كان مازرفيلد قد بدأ يشعر بالانزعاج حين أرشدهما أخيرًا موظَّف كبير في السن إلى غرفة داخلية، حيث كان يجلس رجل بارد العينين جامد الوجه إلى مكتب فيها، بينما كان هناك رجل آخرُ لا يقلُّ في مظهره تجهُّمًا عن الأول إلا قليلًا، وقد أدرك هيثرويك في الحال أنه الرائد بنتيني الذي أشارت إليه رونا، والذي كان يقف على سجادة المدفأة ويداه في جيبه. راح كلاهما يحدِّق في الزائرَينِ في صمت، ثم أشار الرجل الجالس إلى المكتب إلى كرسيين يقعان على كلا جانبي مكتبه. توجَّه بنظره إلى مازرفيلد. وسأله: «حسنًا؟»

بدأ مازرفيلد حديثَه بانحناءة تنم عن الكياسةِ وقال: «أعتقد أنك السيد بلينكنسوب؟» ثم انحنى مرةً أخرى باتجاه الآخر وقال: «وأنت السيد بنتيني؟»

قال بيلنكنسوب موافقًا: «صحيح. بالضبط! أجل؟»

أكمل ماذرفيلد يقول: «لديكم بطاقتي أيها السادة، وبهذا أنتم تعرفون مَن أكون. الشرطة ...»

قاطعه بلينكنسوب قائلًا: «لحظة.» أخذ بطاقة هيثرويك وراح ينظر إليها وإلى مقدِّمها. وعلَّق يقول: «السيد جاي هيثرويك. هل زيارة السيد هيثرويك أيضًا بالنيابة عن الشرطة؟» وأضاف بابتسامة مقتضبة: «لأنني أظن أنني رأيت السيد هيثرويك وهو يعتمر شعرًا مستعارًا ويرتدي زي المحاماة.»

قال هيثرويك: «أنا الرجل الذي كان حاضرًا عند مقتل هانافورد. وإذا كنت ملمًّا بالقضية ...»

فقال بلينكنسوب: «إلى حدٍّ بعيد! بكل تفصيلة فيها!»

فأكمل هيثرويك يقول: «إذن أنت تعرف ما رأيتُ، وتعرف الشهادة التي قدَّمتها في التحقيق. وقد تابعت القضية منذ ذلك الحين؛ وهذا هو سبب وجودي هنا.»

علَّق بلينكنسوب بابتسامةٍ أكثرَ اقتضابًا: «ليس بصفتك صديقًا للمحكمة إذن؟ لست بمستشار محايد. أفهم ذلك! والسيد ماذرفيلد؛ لماذا هو هنا؟»

فأجابه ماذرفيلد: «كنتُ أقول يا سيد بيلنكنسوب إنَّ الشرطة رأت الإعلان الذي وقَّعتْ عليه شركتكم والذي تقدِّمون فيه مكافأة قدْرها خمسة آلاف جنيه. والآن، أنا أتولَّى قضية هانافورد هذه وأؤكِّد لك أنني عملت عليها كثيرًا. وهكذا فعل السيد هيثرويك بأسلوبه الخاص. ونحن على اقتناع بأن هانافورد قُتل بالسُّم، وأن الذي سمَّمه قد سمَّم أيضًا الرجل المدعو جرانيت في الوقت نفسه. والآن، وحيث إنكما — أو ربما شخص آخر لعله موكِّل لديكما — مهتمان للغاية بتقديم قاتل هانافورد إلى العدالة، لدرجةِ أنكما تعرضان مبلغًا كبيرًا كهذا من أجل الحصول على المعلومات اللازمة لذلك، فإننا نعتقد أنكما تعرفان الكثير، وأقترح عليكما أيها السيدان أن تشاركا معنا ما تعرفانه من معلومات. آمل أن يكون اقتراحي مرحَّبًا به أيها السيدان الفاضلان.»

راح بلينكنسوب يطرقُ على ورق التنشيف أمامه بأطراف أصابعه، وأصبح وجهه أكثر غموضًا من ذي قبل. أما بنتيني، فقد ظل وضعه نفسه الذي كان عليه منذ دخول الزائرَين إلى الحجرة؛ متكئًا على رف الموقد ويداه في جيبه، بينما ينقل نظراته المحدِّقة بين هيثرويك وماذرفيلد. ساد الصمت فترةً قصيرة؛ وفي النهاية تحدَّث بلينكنسوب فجأة.

فقال: «لا أظنُّ أن لدينا ما نقوله. لقد قلنا ما لدينا بالفعل في الإعلان. سندفع المكافأة المعروضة على الشخص الذي يمدُّنا بمعلومات مُرضية. ولا أعتقد أن هذا يتعارض مع عمل الشرطة.»

قال مادرفيلد محتجًّا: «هذا لا يساعدني كثيرًا يا سيد بلينكنسوب. لا بد أنك أنت أو موكِّلك على معرفةٍ بأكثرَ من هذا! لا بد أن هناك أسبابًا وجيهةً تفسِّر تقديمَ موكِّلك مثلَ هذا المبلغِ الكبيرِ مكافأةً. أظنُّ أننا نريد أن نعرف المزيد.»

فأجاب بلينكنسوب: «لست مستعدًّا لإخبارك بالمزيد. غير أننا إذا حصلنا على معلومات، ونحن نظن أنَّ ذلك سيحدث، فلن نتباطأ في تقديمها إلى هيئات الشرطة.»

ألحَّ مادرفيلد قائلًا: «قد يأتي ذلك متأخرًا للغاية. هذه قضية معقَّدة، وبها الكثير من الخيوط المتشابكة.» وبعد أن فسَّر نظرةً تلقَّاها للتو من هيثرويك على أنها إشارة بالاستمرار في حديثه أضاف قائلًا: «نحن نعرف كلَّ الخيوط المتشابكة في هذه القضية، أفضل من أيِّ شخص آخر! نعرف على سبيل المثال أيها السيدان أنَّ الليدي ريفرسريد متورطةٌ في هذه المسألة!»

وبالرغم من اعتيادهما الواضح على ممارسات ضبط النفس، لم يتمكَّن المحاميان من إخفاء علامات الذهول التي بدت عليهما. فقد انقلب وجه بلينكنسوب؛ وانتفض بنتيني من مكانه فتحوَّل من الاتكاء إلى الوقوف باستقامة. وللمرة الأولى تحدَّث بنتيني.

وقال متسائلًا: «ماذا تعرفان عن الليدي ريفرسريد؟»

فردَّ عليه مادرفيلد بنبرةٍ حاسمة: «نعرف الكثيرَ يا سيدي، لكنني عازمٌ على معرفة المزيد. نعرف مثلًا أنَّ هانافورد كان يحمل قبيل وفاته المفاجِئة صورةً لليدي ريفرسريد، وكان يظن أنها متطابقة مع امرأةٍ تُدعى السيدة ويتينجهام كانت قد فرَّت من بين أصابعه في تهمة احتيال قبل عشر سنوات في سيليثوايت بيوركشاير. وأنا أيضًا أظن أن السيدة ويتينجهام تلك هي الليدي ريفرسريد، ويسعني أن أخبركما أنني أمتلك جميع الوقائع ذات الصلة بقضية سيليثوايت؛ وهي القضية التي جرى فيها الاستيلاء على قلادةٍ ماسية قيمتُها تساوي أربعة آلاف جنيه تقريبًا باستخدام شيكٍ من دون رصيد وأن ...»

نهض بلينكنسوب من كرسيه فجأة وهو يرفع يده.

وقال: «لحظة من فضلك!» ثم أكمل وهو يلتفت إلى شريكه: «بنتيني، أريد أن أحدِّثك بكلمة في حجرتك.»

نظر مادرفيلد نظرةَ المنتصر إلى الرجلَين المتقهقرَين، وضحك حين أُغلِق الباب خلفهما.

وصاح يقول: «أوقعنا بهم يا سيد هيثرويك! إنهما يدركان الآن أننا نعرف أكثرَ مما كانا يتوقَّعان. وبطريقة أو بأخرى، يبدو لي أنَّ ذلك الإعلان ليس سوى حيلة خداع!»

قال هيثرويك: «خداع! ماذا تقصد؟»

فأجاب مازرفيلد: «أقول إنه خداع! إنه مفتعل ليمنع شخصًا ما من التطرُّق إلى مسألة سيليثوايت تلك. أراهنك بألف جنيه مني إلى جنيه واحد منك على ذلك. سترى أنَّ هذين المحاميين سيكونان أكثر تفاهمًا معنا حين يعودان. وسوف يحين دورهما في الحديث، ودورنا في الاستماع!»

فقال هيثرويك: «إن كان عليك أن تتحدَّث بالمزيد يا مازرفيلد، فأبقِ الآنسة هانافورد خارجَ الأمر. فهي في موقفٍ صعب. لقد ذهبت إلى هناك بالطبع لكي تعرفَ ما يمكن لها أن تعرفه، وكانت النتيجة أنها أُعجِبت بالليدي ريفرسريد وأحبَّت العمل هناك كثيرًا، وتريد أن تتوقَّف. كل هذا يشكِّل مصدرَ إزعاج لها، وستكون في حاجةٍ لتعديل موقفها. على أي حال، أبقِ اسمها خارجَ المسألة.»

تحدَّث مازرفيلد ضاحكًا: «كما أقول لك يا سيدي، سيتولَّى هذان الرجلان الحديثَ حين يعودان! سترى! وإذا كنت تريد إبقاء اسم الآنسة هانافورد خارجَ الأمر، فإنهما أيضًا يرغبان في إبقاء اسم الليدي ريفرسريد خارجَه؛ فأنا متيقن من الإشارات التي رأيتها!»

عاد بلينكنسوب وبنتيني فجأة واتخذا مجلسَيهما، فجلس بلينكنسوب إلى مكتبه وكان بنتيني بالقرب منه. والتفت بلينكنسوب إلى زائرَيه في الحال. وقد تغيَّر أسلوبه؛ فبدا الآن كرجل يتوق إلى تسويةِ مسألةٍ صعبة.

وقال مباشرة: «لقد قرَّرنا أن نتحدَّث معكما بحرية. هذا يعني أن نخبركما بكل شيء نعرفه عن هذه المسألة. وبصفتك ممثلًا للشرطة يا سيد مازرفيلد، لا شك بأنك ستتعامل مع ما سنخبرك به على أنه سريٌّ. ولستُ في حاجة لأن أطلب منك يا سيد هيثرويك أن تعتبر كلَّ ما سيُقال هنا بأنه ... حسنًا، كما تعلم. والآن وفي البداية سأخبركما بحقيقةٍ واحدة عليكما أن تضعاها في أذهانكما، حقيقةٍ لا يمكن دحضُها. الليدي ريفرسريد ليست هي المرأة التي كانت تُعرف باسم السيدة ويتينجهام في سيليثوايت قبل عشر سنوات، ولم يعتقد هانافورد أنها هي أيضًا!»

صاح مازرفيلد متعجبًا: «ماذا؟ لكن ...» ثم التفت إلى هيثرويك وأكمل يقول: «أتسمع هذا؟ نحن نعرف ...»

قال هيثرويك في هدوء: «دعِ السيد بلينكنسوب يُكمِل حديثه. أعتقد أنه سيشرح الأمر.»

فوافقه بلينكنسوب قائلًا: «صحيح. وأبدأ حديثي بمحاولة تصحيح عدة أفكار خاطئة لديها. الليدي ريفرسريد ليست هي السيدة ويتينجهام. ولم يكن هانافورد يعتقد أنها السيدة ويتينجهام. ولم تكن الصورة المقصوصة من الصحيفة هي صورة الليدي ريفرسريد.»

لم يتمكَّن هيثرويك من إخفاء دهشته من هذا.

وسأل: «صورة مَن إذن؟ لقد كنتُ متيقنًا من أنها صورتها!»

انحنى بلينكنسوب وفتح أحد الأدراج من مكتبه. ومن بين مجموعة من الوثائق أخرج صحيفةً كانت مطوية بعناية وعليها علامة. وبعد أن فتحها، وضعها أمام زائرَيه وهو يشير إلى صورةٍ عليها علامة بحبر أزرق. ورأى هيثرويك في الحال أنها نسخةٌ طبْق الأصل من الصورة الموجودة في محفظته. غير أنه كان يوجد فارق مهم؛ ففي حين قصَّ هانافورد الكلام من صورته، كان الكلام الآن في الصحيفة التي عرضَها عليهما بلينكنسوب. واندهش هيثرويك مرة أخرى وهو يقرؤه: السيدة أنيتا ليستوريل.

قال بلينكنسوب: «هذه هي الصورة التي قصَّها هانافورد من الصحيفة. وهي ليست لليدي ريفرسريد.»

صاح ماذرفيلد: «إذن هي لامرأةٍ تشبهها حدَّ التطابق! أراهن بأي شيء على أنك إذا سألت مائة رجل رأوا الليدي ريفرسريد إن كانت هذه هي صورتها، فإنهم سيُقسِمون على أنها كذلك!»

قال هيثرويك متغاضيًا عن انفعال رفيقه: «أرى أنَّ هذه الصورة هي للسيدة ليستوريل، والتي يصفها التعليق المصاحب للصورة بأنها خبيرة في الأحجار النفيسة. والآن وفيما يتعلَّق بموضوع نقاشنا، هل لي أن أطرح سؤالًا مباشرًا؟ مَن السيدة ليستوريل؟»

ابتسم بلينكنسوب ابتسامةً غامضة.

وأجابه قائلًا: «السيدة ليستوريل هي الأخت التوءم لليدي ريفرسريد!»

الفصل السادس عشر

والمزيد بعدُ

بدا أنَّ التصريح الذي أدلى به بلينكنسوب، والذي لم يكن مباغتًا تمامًا لهيثرويك نظرًا لما جرت عليه الأمور خلال الدقائق القليلة المنصرمة، قد نزل على ماذرفيلد وكأنه صاعقة. ذلك أنه فغر فاه، واتسعت عيناه، والتفَت ينظر إلى هيثرويك وكأنه كان تائهًا لمدة زمنية طويلة في متاهة محيِّرة، وفجأة رأى طريق الخروج منها ظاهرًا أمامه.

فصاح يقول متعجِّبًا: «هذا هو الأمر إذن، أليس كذلك؟ أخت توءم؟ إذن ... لكن، أكمل يا سيد بلينكنسوب؛ بدأت أفهم الأمور الآن.»

فأجابه بلينكنسوب: «لا شك أن الأمر محيِّر ومربِك للغرباء. ولكي أوضِّح الأمر، سآتي على ذكر شيء من تاريخ تلك العائلة. أكرِّر أن الليدي ريفرسريد والسيدة ليستوريل أختان توءم. وهما ابنتان لرجلٍ كان في زمنه رُبَّان عدة سفن تجارية قديمة، وجاب العالم كثيرًا. تزوَّج هذا الرجل بامرأةٍ أمريكية ووُلدت ابنتاه في جليفستون بولاية تكساس. وقد تلقت الفتاتان تعليمهما في أمريكا، لكننا لسنا في حاجة لأن نذكر تفاصيل طفولتهما المبكرة ...»

قاطعه هيثرويك: «هناك تفصيلة بعينها أحبُّ أن أطَّلع عليها إذا سمحت. كانت السيدة ويتينجهام التي مكثت في سيليثوايت قبل عشر سنوات تحمل وشمَ ثعبان بألوان متعدِّدة حول رسغها. وكانت ترتدي شريطًا مخمليًّا أسودَ لكي تغطيه. والآن ...»

التفت بلينكنسوب إلى شريكه مبتسمًا.

وقال: «ظننت أن ستُطرَح هذه المسألة. في الواقع يا سيد هيثرويك، وإذا ما أردت أن تعرف عن هذا الأمر، فإن كلا الأختين تحمل الوشم نفسه. كان هذا من عمل والدهم البحَّار العجوز المخضرم؛ وهو عمل بارع وأحمق من جانبه. لقد دقَّ وشمهما في سن صغيرة، وقد أثار ذلك اشمئزازهما حين كبرا. كلتا السيدتين ترتديان ساعدةً مخملية تغطي بها الوشم، بحسب ما أعرف.»

قال هيثرويك: «أكمل من فضلك. لقد اتضح ذلك الآن!»

علَّق بلينكنسوب قائلًا: «أرى أنك كنت تتقصَّى عن الأمر من جانبك. حسنًا، حيث إننا نريد أن نخبركما بكلِّ شيء، فإننا سنلتزم بكلمتنا. لنتطرق إذن إلى مسألة سيليثوايت. الأرجح أنكما سمعتما جانبًا واحدًا من القصة، ربما حصلتما عليه من هانافورد، وربما حصلتما عليه من الجرائد القديمة، وربما حصلتما عليه من مصدر؛ هذا لا يعنينا. لكنكما لم تسمعا القصة من السيدة التي كانت حينها هي السيدة ويتينجهام. وهذا يُظهِر الأمر بشكل مختلف بعض الشيء. لأسباب خاصة بها لا تعنينا في شيء، مكثت السيدة ويتينجهام في سيليثوايت بعض الوقت، وكان ذلك هو اسمها الحقيقي والقانوني آنذاك. أجرت عدة تعاملات مع صائغٍ هناك؛ وفي نهاية المطاف اشترت منه قلادة ماسية بسعر ثلاثة آلاف وتسعمائة جنيه. حرَّرت له شيكًا بالمبلغ، وكانت تتوقَّع أن أموالًا بعينها ستصل حسابها من أمريكا حين يصل الشيك إلى موظفي البنك في مانشستر. حدثت عقبةٌ ما؛ فلم تصل الأموال، ورُفض الشيك. تقدَّم الصائغ إلى الشرطة؛ فحصل هانافورد الذي كان مفوَّض الشرطة هناك على مذكرة، وتتبَّع السيدة ويتينجهام. ألقى القبض عليها، وهربت هي منه وغادرت إنجلترا وعادت إلى أمريكا. ظلت بعض الوقت في ضائقة مالية. بالرغم من ذلك، لم تنسَ مسئولياتها، وفي النهاية أرسلت إلى الصائغ في سيليثوايت ثَمن القلادة الماسية، وفائدةَ ثماني سنوات بقيمة خمسة بالمائة. ولديها الآن إيصال رسمي بالمال الذي دفعته له. وفيما يتعلَّق بهذا الجزء من القصة، فإنني لا أعرف إن كان هانافورد قد عرف بهذا أم لم يكن يعرف. لكننا نميل إلى الاعتقاد بأنه لم يكن يعرف. على أية حال، فقد أُدِّي ثَمن القلادة، وبسخاء أيضًا.»

قال هيثرويك: «يجدر بي القول إنني أعرف هذا. فقد أُخبِرتُ بذلك الأمر بصورة مباشرة.»

قال بلينكنسوب بابتسامة أخرى من ابتساماته الماكرة: «جيد جدًّا. أرى أنك ذهبت إلى سيليثوايت. والآن، نأتي لما هو وثيق الصلة بالموضوع أكثر، وهي الأحداث الأخيرة. كان الموقف فيما يتعلَّق بالليدي ريفرسريد والسيدة ليستوريل قبل بعض الوقت — لنقل حين أتى هانافورد إلى المدينة — كالآتي: كانت الليدي ريفرسريد وهي أرملة السير جون ريفرسريد قد ورثت ثروته الكبيرة واستقرت في قصر ريفرسريد في سُري، وأسست دارًا للضباط المصابين الموجودين بالجوار، والذي يعمل صديقي وشريكي هنا الرائد بنتيني ممثِّلًا لها في لندن. كان لأختها السيدة ليستوريل شقةٌ في بادينجتون وأخرى في نيويورك.

وكانت تعيش معظم الوقت في نيويورك، لكنها كانت تعيش أحيانًا في لندن وأحيانًا أخرى في باريس. والحق أنَّ السيدة ليستوريل خبيرةٌ في الأحجار الكريمة الثمينة بالفعل وتتاجر فيها. لكنها خُطِبت مؤخَّرًا إلى أحد النبلاء المشاهير وهو رجلٌ متقدِّم في العمر وفي غاية الثراء؛ ومن المحتمل أن يكون لهذا الأمر علاقة وطيدة بما أنا على وشك أن أخبركم به.»

فأشار بنتيني قائلًا: «على الأرجح يا بلينكنسوب، ليس من المحتمل. على الأرجح! بلا ريب.»

قال بلينكنسوب موافقًا: «على الأرجح إذن، على الأرجح!» اتكأ إلى الأمام على مكتبه باتجاه المستمعين. وقال: «والآن أيها السيدان أطلب منكما كامل انتباهكما؛ ذلك أنني سأذكر النقاط المهمة بحق في هذا الأمر، لا سيما تلك النقاط التي تهم الشرطة. قبل حوالي أسبوعين، كانت الليدي ريفرسريد في مكتبها الخاص في «الدار» بالقرب من قصر ريفرسريد، وكان ينتظرها رجلٌ أرسل بطاقةً تحمل اسم الدكتور سيبريان باسيفيري. ظنَّت الليدي ريفرسريد أن مقدِّم تلك البطاقة رجلٌ من القطاع الطبي ويرغب في رؤية «الدار»، فأُدخِل عليها لرؤيتها. وسرعان ما أدركت الليدي ريفرسريد أن الرجل لم يأتِ من أجلِ المهمة التي كانت تتخيَّلها. قصَّ عليها الرجل قصةً غريبة. في بادئ الأمر، أخبرها أنه ملِمٌّ تمامًا بتلك الفترة من حياة أختها والتي تتعلَّق بسيليثوايت والقلادة الماسية. وشعرت الليدي ريفرسريد التي كانت تعلم كلَّ شيء عن ذلك الأمر أن معلومات الرجل مكتسبةٌ بصورة مباشرة. أخبرها الرجل أيضًا أنه يعرف المكان الذي تمكث فيه السيدة ليستوريل ويعرف أمرَ خطبتها أيضًا؛ أي إنه أظهر لها باختصار أنه مطلِعٌ على التاريخ الحديث للعائلة فيما يتعلَّق بالليدي ريفرسريد نفسِها وبأختها. بعد ذلك كشف الرجل كلَّ أوراق لعبته. فأخبر الليدي ريفرسريد أن عصابةً بعينها من الرجال في لندن أصبحوا يعرفون بوقائع مسألة سيليثوايت، وبأمرِ مذكرة الضبط وعملية القبض على السيدة ليستوريل وهروبها، وأنهم أيضًا يعرفون بخطبة السيدة ليستوريل على اللورد الذي سنترك اسمه غيرَ معروف في الوقت الراهن أو سنشير له باللورد «س»، وأنهم يريدون ثمنًا لسكوتهم. بكلمات أخرى، كان هؤلاء الرجال عازمين على ابتزازها. وهدَّدوا بأنه إن لم يتم دفع الثمن الذي يريدون، فإنهم سيذهبون إلى اللورد «س» وسيقصون عليه الوقائع بأكملها ليخبروه بأنه مخطوبٌ إلى امرأةٍ لا تزال خاضعة بموجب قانون البلاد إلى إلقاء القبض عليها ومحاكمتها بتهمة الاحتيال.»

سأله ماذرفيلد: «أوَليست كذلك؟ أظن أن مثل هذه القضايا لا يُطبَّق فيها الحد الزمني يا سيد بلينكنسوب. وفي رأيي أنها ستكون خاضعة للقانون بعد عشر سنوات أو عشرين سنة أو حتى ثلاثين!»

أجاب بلينكنسوب: «لقد قلت بالفعل إنَّ مسألة سيليثوايت كانت مشكلة تتعلَّق بالحساب البنكي. لم تكن هناك نية للاحتيال، وقد دُفِع المبلغ مع الفائدة على النحو الواجب. على أي حال، ليس ذلك هو المهم؛ فنحن نتعامل مع طرح هذا الرجل المدعو باسيفيري لذلك الأمر على الليدي ريفرسريد. لم تكن الليدي ريفرسريد تعرف الوضعَ القانوني في هذه القضايا بالطبع، وقد انزعجت من أجل أختها. سألت باسيفيري عمَّا يريده. فأخبرها حينذاك بكلِّ صراحة أنه يستطيع التعامل مع أولئك الرجال، إذا قدَّمت له المال. فقد قال بأنه يتمتَّع بسلطةٍ ما عليهم يمكن أن يستخدمها لمصلحتها. وأرادت الليدي ريفرسريد أن تعرفَ نوعَ تلك السلطة، لكنه لم يخبرها. فأرادت بعدها أن تعرف مقدارَ ما يريده من المال، لكنه لم يخبرها أيضًا. ما قاله هو أنها لو كانت على استعداد لتخصيص المال لإسكاتهم، فإنه سيضغط عليهم في غضون الأسبوع التالي من أجل القبول بمبلغٍ مناسب، وأنه سيأتي إليها يوم الجمعة التالي وسيخبرها بمقدارِ ما سيأخذون من المال. فحدَّدت الليدي ريفرسريد معه ذلك الموعد.»

غمغم ماثرفليد: «آمل أنها أخذت بالنصيحة في تلك الأثناء. لا بد أنها سلَّمته المالَ هناك وفي الحال!»

أكمل بلينكنسوب يقول: «لا، لم تأخذ بنصيحةِ أحدٍ في تلك الأثناء. كانت السيدة ليستوريل في باريس، وكان الرائد بنتيني في رحلةِ عملٍ في الريف. وانتظرت الليدي ريفرسريد مجيء باسيفيري للمرة الثانية. وحين أتى أخبرها بما كانت تريده العصابة؛ ثلاثين ألف جنيه. وحدَّد أيضًا طريقةَ دفع المال؛ وهي طريقة تحُول دون تتبُّعه إلى الأشخاص الذين سيحصلون عليه. غير أنَّ الليدي ريفرسريد كانت أكثر استعدادًا في هذه المرة؛ إذ كان لديها وقت للتفكير. كانت تتوقَّع وصول الرائد بنتيني في اليوم التالي، كما علمت أيضًا أن أختها ستعود من باريس يوم الإثنين التالي. لذا أخبرت الليدي ريفرسريد باسيفيري أنها ستعطيه الإجابة مساء يوم الإثنين إن وافق على مقابلتها في موعد في مكانٍ ما في لندن. وفي نهاية المطاف حدَّدا موعدًا في نادي «فيفيان» في ممر كاندلستيك. غادر باسيفيري، وفي اليوم التالي أخبرت الليدي ريفرسريد الرائد بنتيني بكلِّ ما حدث. ونتيجة لذلك، ذهب معها إلى نادي «فيفيان» مساء يوم الإثنين. وانتظرا ساعة بعد الموعد المحدَّد. لكن باسيفيري لم يظهر ...»

غمغم ماذرفيلد: «بالطبع! لم يكن ليظهر؛ لأنَّ الرائد ذهب إلى هناك!»

قال بلينكنسوب موافقًا: «ربما. على أي حال، لم يظهر الرجل. ولهذا غادرت الليدي ريفرسريد وتركت الرائد بنتيني في المكان. ويمكنني القول إنه انتظر هناك مزيدًا من الوقت، وظلَّ متيقظًا لظهور الرجل الذي وصفته الليدي ريفرسريد بالتفصيل، وهو رجل بارز المظهر كما أفهم. لكنه لم يرَه قط.»

صاح ماذرفيلد ساخرًا: «لا! بالطبع لم يظهر! لكنه كان سيظهر، لو ذهبت بمفردها!»

أكمل بلينكنسوب يقول: «حسنًا، هذا هو ما حدث. والآن لنكمل ما حدث مع الليدي ريفرسريد. لقد انطلقت إلى شقة أختها في بادينجتون، ووجدت السيدة ليستوريل قد عادت لتوِّها من باريس. أخبرتها بكلِّ ما قد حدث. فعزمت السيدة ليستوريل على الذهاب إلى نيويورك في الحال لإحضار أوراقٍ معيَّنة من شقتها سوف تثبت براءتها تمامًا في قضية سيليثوايت. وبعد أن تركت الليدي ريفرسريد في الشقة، انطلقت السيدة ليستوريل إلى ساوثامبتون قبل الخامسة من صباح اليوم التالي، هل أتابع؟»

ضرب ماذرفيلد على جبهته وهو يُطلِق غمغمةً عميقة.

وتمتم يقول: «أجل! طبعًا! بالتأكيد! أكمل! أكمل يا سيدي.»

قال بلينكنسوب: «يبدو أنك مندهش للغاية. على أي حال، في ساوثامبتون حجزت على متن العبارة «تارتاريك» التي تبحر في ظهر اليوم نفسه باسمٍ دائمًا ما كانت تستخدمه في السفر، وهو اسمها قبل الزواج. وبعد أن فعلت ذلك، ذهبت إلى فندقٍ لتناول الغداء. وبدأت تفكِّر في الأمر بهدوء أكثر. وفي النهاية، وبدلًا من أن تبحر إلى نيويورك، عادت وألغت الحجز وانطلقت في القطار إلى منزل اللورد «س» الريفي في ويلتشاير، وأخبرته بالقصة بأكملها. وبعثت برقيةً إلى أختها بما فعلت، وفي المساء كتبت إليها رسالة. في تلك الأثناء كانت الليدي ريفرسريد قد عادت في الصباح الباكر إلى قصر ريفرسريد. وذهب الرائد بنتيني معها. كان واثقًا من أن باسيفيري سيأتي. وقد أتى بالفعل! لكنه لم يقابل الليدي ريفرسريد. بل قابل الرائد بنتيني، وحدَه. وبعد أن تحدَّث معه الرائد بنتيني حديثًا صريحًا مقتضبًا، يمكن القول إنه طرده وأخبره أن يفعل أسوأَ ما لديه. وذهب الرجل، وهو يحمل تحذيرًا بأنه سيُسلَّم إلى الشرطة إذا ما أتى إلى هناك مرة أخرى.»

تأوَّه ماذرفيلد مرةً أخرى، وكان من الواضح أنَّ سبب انزعاجه من طبيعة مختلفة.

وصاح يقول وهو يهزُّ رأسه لبنتيني: «كان هذا خطأً يا سيدي؛ خطأً كبيرًا! ما كان ينبغي لك أن تسمح لذلك الرجل بأن يذهب بهذا الشكل! كان ينبغي عليك تسليمه للشرطة حينها. تدعه يذهب؟ أنت لا تعرف أين عساه أن يكون!»

فأجابه: «حسنًا، نحن لسنا بحمقى كما يبدو علينا يا مادرفيلد. فحين ذهبت إلى دوركينج مع الليدي ريفرسريد صباح يوم الثلاثاء كان معي رجل ذكي يمكنني أن أثق به. وقد رأى باسيفيري وهو يصل، ورآه وهو يغادر. وأظنُّ أننا سنكون قادرين على وضع أيدينا على باسيفيري في أيِّ وقت. فرجلنا لن يضيِّعه من أمام ناظرَيْه!»

قال مادرفيلد: «هكذا إذن، حسنًا، هذا أفضل يا سيدي، هذا أفضل بكثير! لا بأس بهذا! ينبغي برجل مثل هذا أن يكون تحت المراقبة ليل نهار. لكن الآن أيها السادة، ماذا عن تلك المكافأة! لا شك بأنَّ فكرة تقديمِها قد انبثقت من أمر باسيفيري هذا. لكن، كيف بالتحديد؟ هل ذكر أمر هانافورد لليدي ريفرسريد؟»

أجاب بلينكنسوب: «لا! سأخبرك بكيفية توصُّلنا إلى فكرة إصدار ذلك الإعلان. كنتُ أنا والرائد بنتيني والليدي ريفرسريد طوال يوم الأحد في ظهيرته ومسائه ولبعض الوقت من صباح يوم الإثنين في جلسات تشاور مغلقة عن هذا الأمر. وسأخبركما في الحال بكيفية ربطنا لهذا الأمر بمسألة تسمُّم هانافورد التي قرأنا عنها جميعًا في الجرائد بالطبع، وبالسبب الذي دفعنا إلى ذلك.»

سأل مادرفيلد قائلًا: «أجل! كيف، أخبِرنا الآن؟»

أجابه بلينكنسوب: «بسبب الآتي.» ونقرَ على المكتب ليؤكِّد أهمية كلماته، وكان ينظر إلى مادرفيلد باهتمام بينما يتحدَّث. وأكمل يقول: «بسبب هذا: أخبر باسيفيري الليدي ريفرسريد أنَّ عصابة المبتزين لديهم المذكرة الأصلية الخاصة بإلقاء القبض على السيدة ويتينجهام!»

شعر هيثرويك بدافع كبير يحثُّه على القفز من كرسيه، والصراخ بصوتٍ عالٍ. غير أنه كبحَ جِماح رغبته تلك، لكن مادرفيلد كان أقل تحفُّظًا.

فصاح بصوت حاد: «آه! آه!»

أكمل بلينكنسوب يقول: «كانت تلك خطوة خاطئة من باسيفيري. ما كان ينبغي عليه أبدًا أن يقول ذلك. لكنه فعل؛ لا شك أنه ظنَّ أن امرأةً ثرية ستكون فريسة سهلة. والآن بالطبع، حين جلسنا للمشورة، كنا نعرف كلَّ شيء عن مسألة سيليثوايت، ونعرف أيضًا أن هانافورد كان مفوَّضًا للشرطة في ذلك الوقت، وأنه كان يحوز المذكرةَ؛ فلم يكن من المستبعَد تمامًا أنه كان يحتفظ بها في دفترِ جيبه، وأنها كانت معه حين أتى إلى لندن. فماذا تكون النتيجة الواضحة إذن: أن الرجال الذين يحوزون على تلك المذكرة الآن أخذوها على الأرجح من هانافورد بأساليبَ خبيثةٍ وأنهم مشتركون في مقتله؟ إضافةً إلى

ذلك، هل العصابة التي يتحدَّث عنها باسيفيري موجودة بالفعل؟ أليس من المحتمل أن تكون العصابة هي باسيفيري نفسه؟»

غمغم مازرفيلد يقول: «أجل! كنت أفكِّر في هذا!»

قال بلينكنسوب: «بالرغم من ذلك، كنا نضع في حسباننا أنه ربما توجد عصابة. فقمنا بالبحث في الأخبار التي روتها الجرائد بإمعان. ووجدنا أنه لا يمكن الحصول على أيِّ معلومات تتعلَّق بتحركات هانافورد بين وقت وصوله إلى لندن وليلة مقتله. الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه أن يدلي بمزيد من المعلومات عمَّا كان هانافورد يفعله في ساعات المساء السابقة لوفاته، وهو جرانيت، كان ميتًا، ومن الجلي أنه مات مسمومًا على غرار هانافورد. تلك الملابسات، والتي خطرت لكليكما على الأرجح، هي التي أدَّت إلى اعتقادنا أن هانافورد كوَّن في هذه المدينة علاقات مع أشخاص مثيرين للريبة. وثمة شيء واحد أكيد بما لا يدَع مجالًا للشك، وهو أنه إذا كانت تلك المذكرة بحوزة العصابة أو باسيفيري بالفعل، فلا شك بأنها أُخِذَت من هانافورد! حسنًا؟»

قال هيثرويك موافقًا: «يمكننا أن نعتبر ذلك أمرًا أكيدًا. لا بد أنَّ المذكرة أُخِذت منه سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.»

قال بلينكنسوب: «نظنُّ أن العصابة، أو باسيفيري، حصل على المذكرة منه مباشرة، فنظريتنا هي أنه إذا كانت تلك العصابة موجودة، فإن باسيفيري عضوٌ فاعل فيها، وربما كان هو زعيمها، وأن هانافورد تعرَّف عليه أو على أحد أفراد العصابة الآخرين، وأن هانافورد كان معه أو معهم في ساعات المساء السابقة لمقتله، وأنه أخبرهم مازحًا أنه اكتشف أنَّ السيدة ليستوريل هي السيدة ويتينجهام؛ فسمَّموه هو وجرانيت أيضًا؛ لأنه كان حاضرًا معه، وذلك كي يحتفظوا بالسر لأنفسهم ويبتزوا السيدة ليستوريل والليدي ريفرسريد. تلك هي فكرتنا العامة، وهذا هو السبب الذي جعلنا نُصدِر ذلك الإعلان ظهر يوم الإثنين. كنا نريد في بادئ الأمر أن نبقي الأمر لأنفسنا، وإذا ظهرت أدلة جوهرية ملموسة، كنا سنقدمها للشرطة. والآن صرتما تعرفان كل شيء. إذا كانت هناك عصابة، فقد ينقلب أحد أعضائها خائنًا من أجل الحصول على خمسة آلاف جنيه وتبرئة نفسه؛ وقد تتطوَّر الأمور أكثرَ حتى نجد أنفسها في موقفٍ يجعلنا نربط جميع هذه الأمور بباسيفيري …»

قال مازرفيلد: «ما زلت أتمنى لو أنَّ الرائد بنتيني سلَّمه للشرطة، أو سلَّمته الليدي ريفرسريد للشرطة! فمثلما تعلمون …»

قاطعه بنتيني قائلًا: «عليك أن تتذكَّر أنَّ باسيفيري لم يطلب أيَّ شيء لنفسه. لقد قدَّم نفسه وسيطًا بين الطريفين. لكن رجلنا آمن بما يكفي؛ فهو محقِّق متقاعد، و…»

حينها فتح موظَّف الباب ودخل وفي يده برقيَّة. فتح بلينكنسوب المظروف ورمق الرسالة بسرعةٍ ثم ألقى بالورقة على مكتبه وقد صدرت عنه صيحةُ انزعاج.

وقال: «هذه الرسالة من رجلنا! لقد أرسلها من دوفر. تتبَّع باسيفيري إلى هناك، وقد هرب منه باسيفيري!»

الفصل السابع عشر

الملصقات الممزَّقة

تقدَّم بنتيني وأمسك بالبرقية؛ وبعد لحظةٍ سلَّمها إلى هيثرويك.

وقال متعجبًا: «هذا مؤسف للغاية! وغير متوقَّع أيضًا! لقد هرب الرجل بالطبع إلى أوروبا.»

نظر ماذرفيلد من فوق كتف هيثرويك وقرأ الرسالة.

«تبعتُه إلى هنا ليلة أمس. نزلت في الفندق نفسه، لكنه هرب من ناظري وترك الفندق باكرًا هذا الصباح. سأعود الآن.»

قال ماذرفيلد: «كان ينبغي عليكما أن تعيِّنا رجلين أيها السيدان. رجل واحد لا يكفي في قضيةٍ من هذا النوع. لكن الأمر كما قلت من قبل: كان ينبغي تسليم هذا الرجل للشرطة في الحال. على أي حال ...»

نهض من كرسيه وكأنه لا يجد شيئًا آخر يقوله، وتحرَّك نحو الباب. لكنه توقَّف في منتصف الطريق إلى الباب.

وقال متسائلًا: «هل ستُعلِمونني إن أتاكم أيٌّ شخص بشأن هذه المكافأة؟ فهذا من عمل الشرطة بدرجة أكبر، كما تعلمان.»

أومأ الشريكان اللذان كانا منزعجين جدًّا بسبب تلك البرقية.

وأجاب بلينكنسوب: «سنُعلِمك في الحال. وأنت ستحافظ على السرية الشديدة لما أخبرناك به بالطبع، أليس كذلك؟»

فردَّ ماذرفيلد: «بلى، بكل تأكيد يا سيدي. أؤكِّد لكما أنَّ هذا ليس هو الشيء الوحيد الخاص والسري في هذه المسألة.»

في الخارج، التفت ماذرفيلد إلى هيثرويك.

وقال: «حسنًا! لقد اتضحت لنا بعض الأشياء، يا سيد هيثرويك، بل الأدق أنَّ هذين السيدين أوضحا لنا بعض الأشياء. لكن هل اقتربنا بأيِّ شكل من الإجابة عن السؤال الذي نريد الإجابةَ عنه: مَن سمَّم روبرت هانافورد؟»

فأجاب هيثرويك: «أظن أننا اقتربنا! اقتربت أنا على أي حال! إما أن باسيفيري سمَّمه، أو أنه يعرف مَن فعلها!»

كرَّر ماذرفيلد يقول: «يعرف مَن فعلها! آه! هذا أكثر ترجيحًا. لا أظنُّ أنه فعلها؛ وإلا لما أصبح على هذا الاستعداد للظهور بنفسه بعدها.»

علَّق هيثرويك قائلًا: «لست واثقًا تمامًا من ذلك. فمن خلال ما سمعنا عنه، يبدو لي أنه من نوعية الأوغاد الشجعان الجريئين. ربما ظنَّ أنه سيجد الليدي ريفرسريد فريسةً سهلة للغاية؛ وربما كان يظن أيضًا أنَّ امرأةً تمتلك هذا القدْر من المال لن تبالي بدفع ثلاثين ألف جنيه. ثمة شيء واحد أكيد بالرغم من ذلك، وهو أن باسيفيري يعلم ما نريد نحن أن نعرفه. وها هو ذا قد اختفى!»

قال ماذرفيلد: «ربما، ربما! وربما لم يفعل. لا شك أنَّ ذلك الرجل الذي يعمل لحساب بنتيني قد تتبَّعه إلى دوفر، وفقدَ أثره هناك، لكن هذا لا يعني أن باسيفيري ذهب إلى أوروبا. إذا كان باسيفيري هو الزبون الفطِن الذي يبدو أنه عليه، فلا بد أنه أدرك حقيقةَ الموقف حين حذَّره الرائد بنتيني من الاقتراب من قصر ريفرسريد. ومن المرجَّح أنه خمَّن أنَّ بنتيني سيراقبه، وربما حتى رأى الرجل الذي كان يراقبه. وإذن إذا كان يتمتَّع بأي شيء من المنطق، فإنه سيحاول مراوغةَ ذلك الرجل وفي النهاية سيخدعه. لا! أعتقد أن باسيفيري عاد هنا إلى المدينة! هذا هو رأيي يا سيد هيثرويك. لكن ما هذا؟ لقد أتى أحدُ رجالي ليلتقي بنا. لقد أخبرتهم بمكان وجودي.»

رفع هيثرويك عينه ورأى رجلًا كان من الواضح أنه رجل شرطة يرتدي زيًّا مدنيًّا، ويتحرك باتجاههما. كان الرجل هادئ المظهر ممتلئ الوجه، وكان وجهه ينطق بأنه يحمل الأخبار.

سأله ماذرفيلد وهما يلتقيان: «ماذا هنالك يا مارلر؟ هل عرفت شيئًا؟»

لم يكن هناك أحد بالأرجاء في تلك الزاوية الهادئة من «لينكولنز إن فيلدز»، لكن الرجل نظر حوله كمَن يحاول الابتعاد عن الأنظار ولفتِ الانتباه، وتحدَّث هامسًا.

فأجابه قائلًا: «أظنُّ أنني عثرت على ذلك الكيميائي! أو هذا ما يبدو عليه الأمر على الأقل. زرتُ كيميائيًّا صباح اليوم، اسمه ماكفيرسون ويقع متجره في شارع «ميدِن لين».

عرضت عليه صورَ ملصقات زجاجتَي الدواء، وسألته أن يمدني بأيِّ معلومات. وأظنُّ أنه رجلٌ حذِرٌ للغاية؛ إذ راح يفحص صور الملصقات وقتًا طويلًا، ولم يقُل أيَّ شيء. بعد ذلك قال إنه يعتقد أنني رجل شرطة، وما إلى ذلك، وبالطبع كان عليَّ أن أخبرَه بالقليل، لم أخبره إلا بالقليل. ثم قال الرجل فجأة: «اسمع، من الأفضل أن تخبرني مباشرة: هل لهذا الأمر علاقة بقضية تسميم هانافورد؟» لذا بالطبع أخبرته أن للأمر علاقةً بهذه القضية، وأن هذا كان بيني وبينه. فقال: «أليس مازرفيلد مسئولًا عن القضية؟» فأجبته أنك بالطبع مسئولٌ عنها. فقال: «حسن جدًّا، أرسِل إليَّ مازرفيلد. لن أخبرَك بأي شيء. سأقول ما أعرفه لمازرفيلد.» لذا عُدت إلى مقرِّنا وأخبروني هناك أنك ذهبت إلى «لينكولنز إن فيلدز».»

قال مازرفيلد: «حسنٌ يا رجل! إن كنت قد وجدت الرجل المناسب، فسأتذكر لك ذلك. ما اسمه — ماكفيرسون، في شارع «ميدِن لين»؟ حسنٌ جدًّا؛ سأذهب إليه مباشرة لرؤيته.» وأضاف بينما كان الرجل يلتفت مبتعدًا: «لا تذكرْ أيَّ شيء لأيِّ أحد يا مارلر! وابقَ بالقرب.» وتابع يقول وهو يضحك ويفرك يديه: «والآن أصبح الأمر لا بأس به يا سيد هيثرويك! هذا يفوق كلَّ ما سمعناه لدى بنتيني! فقط دعني أحصل على اسم الرجل الذي صُنعت له زجاجة الدواء تلك وعنوانه، وأظن أننا حينها سنكون قد قطعنا شوطًا طويلًا! هيا؛ سنذهب لرؤية الكيميائي معًا.»

كان المتجر الكائن في شارع «ميدِن لين»، والذي توقَّف الرجلان أمامه بعد فترة قصيرة، متجرًا صغيرًا ذا واجهةٍ ضيقة وطرازه قديم، ولم يكن في نوافذه شيء سوى القليل من الزجاجات الملوَّنة المعتادة، ولم يكن على مقدِّمته أكثرُ من اسم «ماكفيرسون» مكتوبٍ بأحرف مذهَّبة باهتة على لافتةٍ ترك عليها الزمن علاماتِه. كان المتجر من الداخل مظلمًا وخانقًا، وكان على هيثرويك أن يضني عينيه ليتمكَّن من رؤية رجلٍ طويلٍ نحيف متقدم في العمر يرتدي نظارة، وتبدو في مظهره الأناقةُ وشدة العناية بالتفاصيل، وكان الرجل يقف خلف الطاولة الوحيدة صامتًا وينظر إليه وإلى مازرفيلد.

سأله مازرفيلد: «السيد ماكفيرسون؟ حسنًا! صباح الخير يا سيدي. اسمي مازرفيلد: المفتش مازرفيلد. أخبَرني أحد رجالي ...»

قاطعه الكيميائي قائلًا: «لحظة واحدة!» ثم دخل إلى خلف ستارة في الجزء الخلفي من متجره وعاد بسرعة ومعه شابٌّ يافع، وهمس إليه بكلمة أو اثنتين. بعد ذلك أشار إلى زائرَيه بالاقتراب، وفتح بابًا في الزاوية البعيدة من المتجر، ثم أرشدهما إلى غرفة استقبال

خاصة. وقال: «سنحظى بالخصوصية هنا يا سيد ماذرفيلد. ولا شك لديَّ أن طبيعة عملك سرية للغاية.»

قال ماذرفيلد مقِرًّا: «شيء من هذا القبيل يا سيد ماكفيرسون.» بينما أخذ هو وهيثرويك مجلسيهما على كراسي طاولة في المنتصف. وأكمل يقول: «لكن لا شك أن رجلي مهَّد لك الأمر بعض الشيء. لقد أخبرني أنه عرض عليك صورًا لملصقات ممزقة كانت موجودة على زجاجة دواء لها علاقة بقضية هانافورد، وأنك طلبت رؤيتي بعد أن اطلعت على تلك الصور. وها أنا ذا جئت يا سيدي!»

قال الكيميائي وهو يزيد إضاءة المصباح الذي كان معلَّقًا فوق الطاولة: «أجل، صحيح يا سيد ماذرفيلد، هذا هو ما حدث بالتحديد. أجل، هذا أكيد!» ثم جلس هو أيضًا إلى الطاولة وضم أصابعه الطويلة الرفيعة بعضها إلى بعض، وقال: «وهل تظنُّ يا سيد ماذرفيلد أن تلك الزجاجة لها علاقة بتسميم هانافورد؟»

فأجابه ماذرفيلد: «سأكون صريحًا معك يا سيد ماكفيرسون. لكن اسمح لي أولًا أن أطرحَ عليك سؤالًا. هل قرأت ما ورد في الصحف عن هذه المسألة؟»

«لقد فعلتُ يا سيد ماذرفيلد، أجل، قرأت كلَّ ما امتدت إليه يدي.»

«إذن فأنت تعرف أنَّ ثمة رجلًا آخر سُمِّم هو أيضًا إضافةً إلى هانافورد؛ رجلًا يُدعى جرانيت، وكان مع هانافورد ليلة وقوع كلِّ هذا؟ هذا السيد الفاضل الذي أتى معي هو مَن كان في القطار ورأى هانافورد يموت وجرانيت يغادر لإحضار طبيب، على حد قوله.»

قال الكيميائي بانحناءة مهذَّبة: «هذا هو السيد هيثرويك، كما أظن. أجل، صحيح!»

علَّق ماذرفيلد بابتسامةٍ قائلًا: «أرى أنك قرأت تقارير التحقيقات. جيد جدًّا، وكما قُلت، وُجد جرانيت مقتولًا في وقت لاحق. وقد وجدت زجاجة دواء وكأس بجوار سريره. كان في كليهما مشروب الويسكي، لكنَّ الخبراء الطبيِّين وجدوا أيضًا أنهما كانتا تحتويان على سمٍّ؛ إذ يقولون إن آثاره واضحةٌ بما لا يدَع مجالًا للشك. والآن، كان يوجد على زجاجة الدواء تلك، ملصقان ممزَّقان، وعلى الملصق العلوي منهما كما ترى من خلال نسخة الصورة، اسم مكتوب كلُّ ما تبقَّى هو الحرف الأول «ت». والحرف الأول من اسم العائلة وهو الحرف «أ». وكلُّ ما سوى ذلك قد مُزِّق. وما أريد أن أعرفه هو: هل أنت الكيميائي الذي ركَّب الدواءَ أو المستحضَر أو أيًّا ما كان في هذه الزجاجة، وإن كنتَ أنت مَن أعَدَّه، فمن الزَّبون الذي صنعتَها لأجلِه، والذي يبدأ اسمه بالحرف «ت» واسم عائلته بالحرف «أ»؟ أتفهمني؟»

أجابه الكيميائي في حماسة: «أجل، أجل يا سيد مازرفيلد! أفهم كلَّ كلمة تقولها، وكلُّ ما تقوله واضح. وأنا أريد أن أقدِّم إليك كلَّ المعلومات التي أعرفها، لكن أولًا أريد أن أعرف أنا معلومة بسيطة عن مسألة وثيقة الصلة بالموضوع. قد تعلم يا سيد مازرفيلد إن كنت قد اطلعت على الصحف في اليوم الماضي أو اليومين المنصرمين أنَّ شركة محاماة في «لينكولنز إن فيلدز» تعرض مكافأة قدرُها خمسة آلاف جنيه ...»

قاطعه مازرفيلد بابتسامة، ونظرة ماكرة رمق بها هيثرويك: «أنا مطلع على ذلك بالقدر الكافي يا سيد ماكفيرسون. لقد أتينا أنا والسيد هيثرويك من مكتب الشركة مباشرة، وأنت تريد أن تعرف إذا ما كان تقديم المعلومات لي مساويًا لتقديمه إلى الشركة؟ أتريد أن تتأكَّد من المكافأة؟»

قال الكيميائي باهتمام: «بالتحديد يا سيد مازرفيلد، بالتحديد! لقد تطرقت إلى ما أقصد تمامًا. ذلك أنه حين تكون هناك مكافأة كتلك بالطبع ...»

قال مازرفيلد: «إذا قدمتَ لنا يا سيد ماكفيرسون معلوماتٍ من شأنها أن تؤدي إلى القبض على الطرف المذنِب وإدانته، فيمكنك أن تطمئن إلى أنك ستحصل على المكافأة. وأنا واثق أن السيد هيثرويك يدعمني في ذلك.»

وبينما كان هيثرويك يغمغم بتأكيده، قال ماكفيرسون: «أنا راضٍ؛ أنا راضٍ أيها السيدان! الحق أنَّ هذه المسألة غريبة وغامضة ولم يكن لديَّ أدنى فكرة أنني سأكون وثيقَ الصلة بها حتى أتاني موظفك صباح اليوم يا سيد مازرفيلد. لكنني عرفت حينها! وسأختصر عليك الأمور حين أقول لك في الحال إنني مَن صنع ذلك المستحضَر الذي كان في الزجاجة!»

راح مازرفيلد يفرك يده.

وقال في هدوء: «جيد! جيد! والآن: السؤال الأهم! لمن صنعتَه؟»

أجابه ماكفيرسون: «لرجلٍ يُدعى الدكتور تشارلز أمبروز، وذلك طبقًا لوصفةٍ طبية خاصة به. إنه مستحضَر من نوعية المنشطات. صنعته له أول مرة قبل عامين، وصنعتُه له عدة مرات منذ ذلك الحين. وكانت الأخيرة قبل حوالي ستة أسابيع. لديَّ كل التواريخ في سجلاتي؛ يمكنني أن أطلعكما عليها.»

قال مازرفيلد: «مهلًا. ليس لذلك أهمية كبيرة، حتى الآن. الدكتور تشارلز أمبروز، صحيح؟ ألديك عنوانه؟»

أجابه الكيميائي: «أجل، بكل تأكيد! عنوانه هو المنزل رقم ٣٨، بناية رقم ٥٩، شارع «جون».»

سأله مازرفيلد: «الموجود في أديلفي!»

فكرَّر ماكفيرسون يقول: «أديلفي، بالضبط؛ المنزل رقم ٣٨، بناية رقم ٥٩، شارع «جون»، أديلفي. هذا في السجلات أيضًا.»

فجأة صمت مازرفيلد، وكان يحدِّق في الأرض. وحين رفع نظرَه مرةً أخرى كان ينظر إلى هيثرويك.

وسأله: «ألم يَصِح جرانيت بأنه كان يعرف طبيبًا قريبًا حين كان يُهرع خارج القطار في محطة «تشارينج كروس»؟ أو أعطى انطباعًا أنه كان يعرف طبيبًا قريبًا على أي حال؟»

فأجابه هيثرويك: «لقد قال بوضوح إنه قريب. لماذا، هل تفكِّر ...»

قاطعه مازرفيلد بإشارة من يده، والتفت إلى الكيميائي مرة أخرى. وسأله فجأة: «أرأيت الدكتور تشارلز أمبروز هذا؟»

فأجابه ماكفيرسون: «أجل يا سيد مازرفيلد، رأيته الكثير والكثير من المرات. لكنني أدرك الآن إذ أفكِّر في الأمر أنني لم أرَه مؤخَّرًا.»

فسأله مازرفيلد: «متى كانت آخر مرة؟»

أجابه ماكفيرسون بعد وقت من التفكير: «أظن أن آخر مرة كانت حين أتاني وطلب مني أن أصنع له زجاجة أخرى من مستحضره. ربما قبل ستة أسابيع كما قلت الآن. لكن السجلات ...»

«دعك من تلك السجلات الآن. ما شكلُ ذلك الطبيب المدعو تشارلز أمبروز؟»

«رجل طويل وسيم ذو مظهر مميَّز؛ وأقول إنه في الأربعين من عمره. وهو رجل ذو شعر داكن وكذلك عيناه ولحيته. يصفِّف شاربه ولحيته على نمط ... أجنبي؛ الحق أنه يبدو إسبانيًّا أكثرَ مما يبدو إنجليزيًّا.»

«لكن، أهو إنجليزي؟»

«كنت أظنُّ دائمًا أنه إنجليزي؛ فهو يتحدَّث كالإنجليز؛ أعني يتحدَّث كإنجليزي من الطبقة العليا. وقد أخبرني ذات مرة أنه تخرَّج في «أوكسفورد»؛ إذ كنا نتحدَّث عن الجامعات.»

«أهو متأنق في ملبَسه؟»

«أجل، هو كذلك بالفعل! إنه رجل أنيق ووسيم.»

«هل رأيته من قبل يرتدي معطفًا كبيرًا داكنًا وكوفية حريرية كبيرة بيضاء يلفُّها حول رقبته والجزء السفلي من وجهه؟»

«أجل، رأيته بهذا الشكل! في الليالي الباردة. هذا شيء آخر أخبرني به بالفعل؛ أنه عرضة لنوبات الشُّعب الهوائية.»

سأله ماذرفيلد: «كان يغطي نفسه جيدًا، أليس كذلك؟»

«بلى، بالضبط! لقد أتى إلى هنا وهو يرتدي ما تصِفُ.»

التفت ماذرفيلد إلى هيثرويك وفي عينيه نظرةٌ ذاتُ مغزًى.

وصاح متعجبًا: «ذلك هو الرجل الذي التقى بهانافورد في محطة فيكتوريا في تلك الليلة! الرجل الذي رآه ليدبيتر، ولم يرَهُ أحد منذ ذلك الحين! أراهنك بكلِّ شيء على ذلك! والآن، مَن يكون ذلك الرجل؟»

علَّق هيثرويك: «أنت تعرف اسمه وعنوانه.»

ردَّ ماذرفيلد بإيجاز: «أجل، وأعرف أيضًا أن السيد ماكفيرسون لم يرَه مؤخَّرًا! والآن يا سيد ماكفيرسون، ما الوتيرة التي كنت تراه بها؟ أقصد، هل كنت تراه في أوقاتٍ أخرى غير تلك التي يأتي فيها إلى متجرك؟»

أجاب الكيميائي: «أجل، أجل! رأيته في الشارع بالخارج. ورأيته أيضًا وهو يتردَّد على متجر «رولز» وعلى متجر «رومانوز».»

علَّق ماذرفيلد قائلًا: «بصيغةٍ أخرى، كان الرجل معروفًا هنا في هذا الجانب من شارع «ستراند». لست واثقًا الآن من أنني لا أتذكر رجلًا بهذه الصفات: داكن البشرة، حريري الملبس وذقنه مشذَّب بعناية، ودائمًا ما يكون متأنقًا. غير أنَّ السيد ماكفيرسون لم يرَه مؤخرًا! همم! أتعرف إن كان يمارس الطب يا سيد ماكفيرسون؟»

«لا يمكنني أن أجزم بذلك يا سيد ماذرفيلد. لقد افترضت أنه كان يمارس الطب بناءً على تسميته لنفسه بالدكتور أمبروز، لكنني لا أعرف شهاداته أو مؤهلاته على الإطلاق.»

لمح ماذرفيلد صفًّا من الكتب التي كانت موضوعة على مكتبٍ في أحد جوانب الغرفة.

وسأله: «هل لديك دليل طبي حديث؟ جيد! لنبحث عن الرجل.» وأكمل يقول بينما سلَّمه الكيميائي مجلَّدًا: «فلتبحث عن اسمه يا سيد هيثرويك. أنت معتاد على الكتب أكثرَ مني. اعرف إن كان هناك أي شيء عنه.»

راح هيثرويك يقلِّب صفحات الدليل، وسرعان ما هزَّ رأسه.

وقال: «ليس هناك تشارلز أمبروز هنا. انظر بنفسك.»

رمق ماذرفيلد الموضعَ المشارَ إليه ولم يقُل شيئًا. وهنا أطلق ماكفيرسون صيحةً تنم عن التعجب والمفاجأة.

وعلَّق قائلًا: «حسنًا، ربما كان أجنبيًّا في النهاية. لكنني ما كنت لأظنه أجنبيًّا، وقد أخبرني بالتأكيد أنه تخرَّج في جامعة أوكسفورد.»

صرَّح ماذرفيلد وهو ينهض ممسكًا بعصاه بتعبير عن العزم والتصميم: «سواء أكان أجنبيًّا أم من خريجي أوكسفورد، سوف أعرف المزيد عنه! حسنًا يا سيد ماكفيرسون، نحن ممتنان لك، وإن نتج عن هذا أيُّ شيء، أنت تعرف! لكني أطلب منك في الوقت الراهن أن تتحلى بشيء من الحذر الذي تتميزون به أنتم، أيها الاسكتلنديون، حسنًا؟»

وفي الخارج، وضع ماذرفيلد يده على مرفق هيثرويك.

وقال بنبرة جادة: «يا سيد هيثرويك، نحن على الطريق؛ أخيرًا! أنا متيقن من هذا مثلما أنا متقين من أن اسمي ماذرفيلد، لقد وضعنا أقدامنا على الدرب! والآن سنذهب إلى شارع «جون» في أديلفي؛ وأراهنك بأي شيء على أن الرجل سيكون قد اختفى!»

الفصل الثامن عشر

البرقية

تبِع هيثرويك رفيقه عبر شارع «ستراند» ودخلا إلى أديلفي ثم إلى المنزل الذي يبغيان؛ وهو منزل كبير عتيق صار مقسَّمًا الآن إلى شققٍ. لم يكلِّف ماذرفيلد نفسَه عناء الصعود إلى الأقسام العليا منه؛ إذ بحث عن حارسٍ ووجده ووجَّه له سؤالًا. فهزَّ الرجل رأسه.

وأجاب يقول: «الدكتور أمبروز يا سيدي؟ أجل، أجل، الدكتور أمبروز يعيش هنا، في الشقة رقم ٣٨. لكنه ليس بالداخل يا سيدي؛ ليس بالمنزل في الواقع. إنه غائب منذ ثلاثة أسابيع أو ما يقرُب من ذلك؛ لا أعرف أين هو.»

وبنظرة ذات مغزًى لهيثرويك، أخذ ماذرفيلد الحارس جانبًا وتحدَّث له بضع لحظات؛ بعد ذلك التفت الرجل وهبط الدَّرج إلى الطابَق التحتي الذي استدعياه منه.

علَّق ماذرفيلد يقول وهو يغمز بعينه: «لا بأس. سيدعنا ندخل إلى شقة أمبروز. ألم أخبرك أننا لن نجد أمبروز هنا؟ لم نكن لنجده! ويسعني القول إنه قد اختفى!»

سأله هيثرويك: «ماذا لو أنه عاد بينما نحن هنا؟»

قال ماذرفيلد ضاحكًا: «ليته يفعل! إنه أكثر شخص أرغب في رؤيته! حسنًا، إن عاد فسوف أطلب منه أن يتمشَّى معي قليلًا، ليشرح لي بعض الأمور. لكنه لن يعود! ها هو ذا الرجل. لنصعد إلى الأعلى.»

ظهر الحارس من جديد ومعه مجموعة من المفاتيح وأرشدهما إلى شقةٍ في أعلى المنزل العتيق. ثم فَتح بابًا وتنحَّى جانبًا.

قال ماذرفيلد: «لستَ في حاجة لانتظارنا. سأغلق المكان مرة أخرى حين نغادر وسنعلمك. لا بأس.»

دلف إلى الشقة ومن خلفه هيثرويك، وفور أن ذهب الحارس وصارا بداخل الشقة، أغلق ماذرفيلد الباب بحذرٍ على نفسه وعلى رفيقه. وبعد نظرةٍ أولى ألقاها هيثرويك على

غرفة الجلوس التي دلفا إليها، والتي كانت غيرَ مرتَّبة وأثاثها رثٌّ بعض الشيء، توجَّه مباشرة إلى رفِّ المدفأة وأشار إلى صورة مؤطَّرة باهتة من أثر الزمن، كانت معلَّقة على الرف.

وصاح قائلًا: «هناك دليل بارز ودامغ يدينه في الحال! أتعلم ما هذا يا مازرفيلد؟»

نظر مازرفيلد في الاتجاه المشار إليه، وهزَّ رأسه نافيًا.

وأجاب يقول: «ليس لديَّ أدنى فكرة! أرى أنها صورة فوتوغرافية لكنيسةٍ ما أو شيء من هذا القبيل؛ هذا كل شيء.»

قال هيثرويك: «تلك كنيسة أبرشية سيليثوايت! إنها واحدة من أعرق الكنائس في إنجلترا! لقد رأيتها لكن من بعيد فحسب، حين كنت هناك. والآن، ماذا يفعل هذا الرجل بصورةٍ لكنيسة أبرشية سيليثوايت في شقته؟ لقد جاء هانافورد من سيليثوايت!»

وافقه مازرفيلد قائلًا: «هذا شيء ذو أهمية بالغة على أي حال. سنصل إلى شيء هذا الصباح!» ونظر بتمحيص أكثرَ في الصورة. وأكمل يقول: «مبنًى عتيق وضخم كما تقول. إنَّ حقيقة وضعه لهذه الصورة في مكانها هذا فحسب، توضِّح أنه يكنُّ بعض الاهتمام لذلك المكان. والآن لنبحث في الأرجاء.»

ظنَّ هيثرويك أنه لم يكن يوجد الكثير ليبحثوا فيه. كانت الشقة تتكوَّن من غرفة جلوس وغرفة نوم وحمام صغير. وكان أثاثها عتيقًا بسيطًا ورثًّا بعض الشيء؛ وكان المكان برُمَّته يوحي بأن قاطنه لم يكن ميسورَ الحال؛ فلم تظهر أية علامات على التَّرف إلا في أدوات التزيين الموضوعة على طاولة التزيين، وفي ثوب فخم أنيق، بالرغم من قِدَمه، معلَّق على حاجز السرير، وفي وجود الملابس المطوية بعناية والموضوعة في حجرة النوم. وكان هناك عدة كتب هي في معظمها أطروحات طبية على أرفف في حجرة الجلوس، وبعض الصور الشخصية التي يعود معظمها إلى مرحلة الجامعة ومجموعات المدرسة معلَّقة على الجدران، ومكتب في المنتصف يتناثر عليه المزيد من الكتب وأدوات الكتابة والورق. فبدأ مازرفيلد يقلِّب في تلك الأشياء.

صاح فجأة وهو يشير إلى تقويمٍ قابل للتحريك كان موضوعًا على الرف العلوي للمكتب: «أترى ذلك؟ أتلاحظ التاريخ؟ الثامن عشر من شهر مارس! هذا هو التاريخ الذي لقي فيه هانافورد حتفه. اليوم السابق لمقتله تحديدًا. فقد مات هانافورد في الواقع في يوم التاسع عشر؛ وكان ذلك في وقتٍ مبكر من الصباح في الساعة ... أيَّ ساعة كانت؟

في الصباح الباكر على أي حال. فما الذي يمكن استنتاجه من هذا؟ لم يأتِ أمبروز إلى هنا منذ الثامن عشر من شهر مارس. لذا ... مرحبًا!»

راح يقلِّب في الأوراق الطليقة التي كانت مبعثرةً على ورق التنشيف، فوقعت عينه فجأة على برقية، وبنفس الطريقة المفاجئة وضعها في يد هيثرويك.

وقال متعجبًا: «انظر! والآن، هذا اكتشاف! هذا أكبرُ ما توصَّلنا له حتى الآن!»

قرأ هيثرويك الرسالة التي يبدو في ظاهرها البراءة.

لا بأس. سنلتقي عند كشك كتب محطة فيكتوريا هذا المساء كما اقترحت.

هانافورد

قال ماذرفيلد في حماسة: «أترى ذلك التاريخ؟ الثامن عشر من شهر مارس! والآن وصلنا إلى السر! كان أمبروز هو الرجل الذي التقى بهانافورد في فيكتوريا؛ ذلك الرجل الطويل الملثَّم الذي رآه ليدبتر! هذا أمر مؤكَّد!»

وافقه هيثرويك قائلًا: «يبدو الأمر كذلك.» كان لا يزال يتفحَّص البرقية. وغمغم يقول: «أُرسلت من شارع «فليت» في الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة في ذلك اليوم. أجل، لا يبدو أن هناك شكًّا كبيرًا بشأن هذا. مَن يكون يا تُرى ذلك الرجل المدعو أمبروز؟»

قال ماذرفيلد في نشاط: «سنعرف ذلك قريبًا يا سيد هيثرويك! والآن، سأضع تلك البرقية في جيبي، وسأغلق هذه الشقة مرة أخرى، وسأتحدَّث مع ذلك الحارس مرة أخرى، وسأذهب للبحث عن المعلومات التي أشرت إليها. تعالَ معي! وفي وقت لاحق، سأستخرج مذكرة تفتيش، وسأجري فحصًا دقيقًا لتلك الشقة. لنتحرك الآن.»

وفي الطابَق السفلي، نادى ماذرفيلد على الحارس.

وسأله: «أتقول إنَّ الدكتور أمبروز ليس موجودًا منذ فترة؟ هل هناك أيُّ شيء غير اعتيادي بشأن هذا؟»

أجاب الرجل قائلًا: «ليس كثيرًا. فمنذ جاء إلى هنا قبل عامين أو ثلاثة أعوام وهو معتاد الاختفاءَ لبعض الوقت. أظن أنه كان يذهب إلى باريس. لكنني لا أتذكَّر أنه غاب أكثرَ من أسبوع من قبل.»

قال ماذرفيلد متسائلًا: «من الواضح أنه طبيب. هل أتاه مرضى لزيارته هنا من قبل؟»

فهزَّ الحارس رأسه نافيًا.

وأجاب قائلًا: «لا، لم يأتِه أحدٌ من قبل لزيارته هنا؛ لا أتذكَّر مجيء أحد، إلا إن كان أحدًا قد جاء معه في الليل ليدخِّنا معًا أو ما شابه. وكان في الغالب يخرج في الصباح مبكِّرًا، ويأتي في وقتٍ متأخر من المساء؛ في وقت متأخر للغاية.»

سأله مازرفيلد: «ماذا عن طعامه؟»

قال الحارس: «لم يكن يتناول أيًّا من وجباته هنا، إلا أن يصنع لنفسه كوبًا من القهوة أو ما إلى ذلك في الصباح. كان يتناول كل وجباته في الخارج، وفي ذلك الإفطار أيضًا. وكان ذلك في يوم العطلة وبقية أيام الأسبوع أيضًا. لم نكن نراه إلا قليلًا.»

فقال متسائلًا: «ومَن الذي يصعد إلى غرفته لترتيب السرير وما إلى ذلك؟»

فأجابه الحارس: «زوجتي. هي تفعل كل ذلك.»

«ومنذ متى وليس لديها ما تقوم به في شقته؟»

«ثلاثة أسابيع، أنا واثق من ذلك. لم يكن الرجل معتادًا قولَ أيِّ شيء قبل أن يغادر، بل يذهب فحسب. لكنه كان ينادينا حين يعود ويخبرنا بعودته. غير أننا لم نظن أبدًا أنه سيغيب مثل هذه المدة في هذه المرة. لقد كانت زوجتي تخبرني في هذا الصباح للتو قبل أن تأتيا، أن هذا الأمر يبدو غريبًا.»

«لماذا يبدو غريبًا؟»

«لأنه لم يأخذ شيئًا معه. فعلى الرغم من قِصَر الوقت الذي كان يغيبه قبل ذلك، كان دائمًا ما يأخذ معه حقيبة، وملاءة نظيفة وأدوات للحلاقة، وما إلى ذلك؛ كان الرجل أنيقًا للغاية في مظهره، ودائمًا ما كان متأنقًا في ملبسه كالأثرياء ويرتدي قميصًا نظيفًا كل يوم؛ كانت فاتورة الغسيل الخاصة به باهظة على أي حال!»

سأله مازرفيلد: «أكان يبدو عليه أنه ميسور الحال كثيرًا؟ أم أنه النقيض؟»

فأجابه الحارس: «لا أستطيع قول ذلك بالتحديد. كان الرجل دائمًا ما يدفع إيجاره، وراتبنا وفاتورة غسل الملابس بانتظام، لكننا لا نعرف شيئًا عن موارده المالية بخلاف ذلك. لكنه كان يبدو وكأنه من النبلاء بالطبع، مثلما أخبرتك.»

قال مازرفيلد: «فهمت! لا بأس، ستراني مرة أخرى بعد ظهر اليوم.»

وخطا بعيدًا نحو شارع «ستراند»، وهناك أشار إلى هيثرويك بدخول أول سيارة أجرة فارغة التقيا بها.

سأل هيثرويك بينما تبِعه مازرفيلد إلى داخل السيارة بعد أن تحدَّث إلى سائقها بكلمة: «إلى أين الآن؟»

فأجابه ماذرفيلد بسرعة: «سنذهب الآن يا سيدي إلى شارع «هالام»، حيث مقر المجلس الطبي العام. لديَّ خبرة في التحقيق بشأن سوابق رجال الطب، وأعرف أين يمكنني الحصول على جميع المعلومات المتعلقة بأيٍّ منهم. وسأعرف كلَّ شيء عن ذلك الدكتور تشارلز أمبروز؛ هذا بالطبع إن كان طبيبًا إنجليزيًّا.»

علَّق هيثرويك قائلًا: «هو ليس كذلك على الأرجح، مثلما أنَّ باسيفيري ليس كذلك أيضًا.»

قال ماذرفيلد متعجبًا: «آه، باسيفيري! لقد نسيت ذاك الرجل في الوقت الراهن! حسنًا، سوف نرى أيضًا إن كان بإمكاننا أن نعرف أيَّ معلومات عنه بينما نحن هناك. لقد قمنا بعمل جيد هذا الصباح يا سيد هيثرويك!» تابع وهو يفرك يده مع شعوره بالرضا: «لقد تأكدنا بصورة عملية من أن أمبروز كان هو الرجل الذي التقى بهانافورد في فيكتوريا، ونحن واثقان من أنه هو الرجل الذي أمدَّه ماكفيرسون بالزجاجة التي اكتُشِف السمُّ فيها في حجرة جرانيت. والآن نأمل أن ينقشع المزيد من الظلام!»

سرعان ما وجد هيثرويك نفسه جالسًا مع ماذرفيلد ومسئولٍ متجهِّم بدأ يراجع عدة كتب مَرجعية مختلفة بعد أن نظر في أوراق ماذرفيلد الرسمية واستمع إلى أسباب زيارته للتحقيق. وبعد ذلك غادر المسئول الغرفةَ وغاب بعض الوقت، ثم عاد ومعه ورقتان أعطاهما إلى ماذرفيلد.

وقال: «كتبت لك التفاصيل المطلوبة حتى يتسنى لك النظر فيها متى أردت. وأنا ...» ثم ابتسم ابتسامةً باردة وأكمل يقول: «أفهم أنك متلهِّف بعض الشيء على التواصل مع هذين الرجلين؟»

فأجابه ماذرفيلد بإيماءة هي أقرب كثيرًا إلى الغمز: «أظن أنه من المحتمل جدًّا يا سيدي أنني سأكون متحرقًا للتواصل مع هذين الرجلين قبل أن ينتهي اليوم! سأكون أكثرَ من متحرق لذلك!»

أومأ له المسئول المتجهِّم وابتسم له مرة أخرى، وغادر كلٌّ من هيثرويك وماذرفيلد. وفي الخارج نظر ماذرفيلد عن يمينه وشماله.

وقال: «سيد هيثرويك، لقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة، وقد تناولت إفطاري قبل الساعة الثامنة؛ أنا جائع! لندخل إلى أول مكان ملائم نمر به ونحصل لنا على طعام وشراب! ونراجع تلك الأوراق.»

بعد قليل، تقدَّم هيثرويك إلى صالة إحدى الحانات، وبعد أن ذكر أنه يريد تناول الجِعَة والخبز والجبن في مثل هذا الوقت من اليوم أحضرها لنفسه وانسحب إلى أحد الزوايا المريحة وتبِعه هيثرويك بشيء من الويسكي والصودا.

فقال مادرفيلد وهو يرفع كوب جِعَته: «بصحة نجاح مسعانا يا سيد هيثريوك! أنا الآن واثق من أننا نضيف حلقةً تلو الأخرى إلى السلسلة! لكن لننظر الآن فيما هو مكتوب هنا بهذا الخط السيئ.»

وضع الورقتين على الطاولة التي كانا يجلسان إليها؛ وانكب كلاهما يقرآن. لم يكن هناك الكثير من الكلام المكتوب، لكن هيثرويك رأى أنَّ هذه الكلمات القليلة المباشرة كاشفة بما يكفي.

تشارلز أمبروز، حاصل على بكالوريوس الطب (أوكسفورد). مسئول الصحة، كرايبورت، لانكشاير (١٩٠٣-١٩٠٤)؛ طبيب ممارس، وايتبرن، لانكشاير (١٩٠٤–١٩٠٩)؛ طبيب في الشرطة، سليثوايت، دبليو آر، يوركس (١٩٠٩–١٩١٢)؛ مارس المهنة في برودنزبيري، لندن، (١٩١٢–١٩١٨). شطبه المجلس الطبي العام من السجل لسلوكه غير المهني، ١٩١٨.

همهم مادرفيلد يقول بينما كان فمه منتفخًا بالخبز والجبن: «ها نحن أولاء قد انتهينا منه! كنت أخمِّن أننا سنجد شيئًا على هذه الشاكلة! والآن لننظر في أمر الآخر!»

سيبريان باسيفيري، حاصل على شهادة الكلية الملكية للأطباء، حاصل على شهادة الكلية الملكية للجراحين. مارس المهنة في برمنجهام (١٨٩٧–١٩٠٢)؛ وفي وايبورو، نورثامبتونشير، (١٩٠٢–١٩١١)؛ وفي دالستون، «إن» (١٩١١–١٩١٧)، أدانته المحكمة الجنائية المركزية بتهمة الاحتيال، ١٩١٧، وشطبه المجلس الطبي العام من السجلات في عام ١٩١٨.

هتف مادرفيلد: «مرحى! لقد خضع لمحاكمةٍ بالفعل إذن؟ حسنًا يا سيد هيثرويك، وما زلنا نكتشف أمورًا يا سيدي! وسنعرف أكثرَ من ذلك. باسيفيري مجرم مدان. كلا الرجلين قد شُطِب من سجلات الأطباء. ومن المؤكَّد أنَّ أمبروز كان في سيليثوايت؛ وذلك في وقت وقوع مسألة سيليثوايت طبقًا لتلك التواريخ. هذان زوج واعد لغايتنا! ما رأيك؟»

فأجابه هيثرويك: «أتساءل إن كان الرجلان يعرفان أحدهما الآخر.»

فقال مادرفيلد: «لا داعيَ للتساؤل بشأن ذلك. هما يعرفان أحدهما الآخر على الأرجح. ومن المرجَّح أيضًا أنهما متورِّطان معًا في تلك المسألة. ومن المرجَّح أنهما شريكان بالفعل، ومساعدان أحدهما للآخر. لكن الآن وبما أنني أعرف كلَّ هذه المعلومات عنهما، فيمكنني

أن أكتشف المزيد، خاصة عن أمبروز؛ لأنه كان طبيبًا في الشرطة. ويمكنني أن أعرف أيضًا الجريمة المحدَّدة التي ارتكبها باسيفيري. أظنُّ أنه احتال على مريضٍ لديه. على أي حال، سأعيِّن في عصر اليوم رجلًا أو رجلين للحصول على بعض التفاصيل والسجلات عن كلٍّ من باسيفيري وأمبروز، وسأعود بالطبع إلى الشقة الموجودة بشارع «جون» وأفحصها بدقةٍ وإمعان.»

فسأله هيثرويك قائلًا: «وهل ستعيِّن مجموعةً للبحث عن أمبروز في ظل الأدلة التي قدَّمها ماكفيرسون؟»

أجابه مازرفيلد: «بكل تأكيد! سنُصدِر إشعار «مطارد من الشرطة»، وسنفصِّل فيه صفاته بأفضل ما يمكننا. لكن أعتقد أن مهمة القبض عليه ستكون صعبة. وإن أردت رأيي الشخصي، فالأرجح أنه حصل على ذلك الاختراع السري من هانافورد وهرب عبر المحيط؛ ليحوِّله إلى أموال.»

فقال هيثرويك موافقًا: «هذا مرجَّح جدًّا. لكن ماذا عن باسيفيري؟»

قال مازرفيلد: «لا يشغلني كثيرًا في الوقت الراهن. يبدو لي أن أمبروز هو الرجل الذي أبحث عنه، أولًا على أيِّ حال. لكنني سأفعل ما بوسعي لألقي القبض على باسيفيري. لو أن بنتيني وأولئك الأشخاص من شركة بلينكنسوب أتَوا إلينا بدلًا من وضع الخطط بمفردهم، لكنا فعلنا شيئًا مفيدًا. ما كنت لأسمح لذلك الرجل أن يهرب!»

فعلَّق هيثرويك يقول: «في رأيي أن باسيفيري وأمبروز شركاء في هذه المسألة. فكيف لنا أن نعرف أنهما لم يلتقيا في دوفر وأنهما هربا معًا؟»

وفي صباح اليوم التالي، كان هيثرويك لا يزال يفكِّر في هذا السؤال، فذهب إلى «لينكولنز إن فيلدز» وطلب رؤيةَ أحد الشريكين. فأُدخِل إلى الحجرة التي أجرى فيها هو ومازرفيلد المقابلةَ في اليوم السابق. لكنه وجد الرائد بنتيني وحدَه. وقال الشريك الأصغر إنَّ بلينكنسوب لديه عملٌ في المحكمة في هذا الصباح.

فقال هيثرويك موضِّحًا سببَ زيارته: «أتيت لأسأل إن كنت قد حصلت على مزيدٍ من المعلومات عن اختفاء باسيفيري في دوفر.»

بدا الامتعاض على وجه بنتيني.

وأجابه قائلًا: «أنا في أشد حالات الانزعاج من هذا الأمر! كان ذلك التصرُّف غبيًّا للغاية ولا مبرِّر له من جانب رجلنا؛ وهو رجل كنا نرى قبل ذلك أنه يمكن الاعتماد عليه دومًا. لقد عاد الرجل عصرَ أمس خجِلًا وأخبرنا الأمرَ برمَّته، فلاقى من جانبنا توبيخًا

كبيرًا. كان يبلي بلاءً حسنًا في البداية. تعقَّب الرجل من قصر ريفرسريد وحتى دوركينج، ومن هناك إلى ريدهيل، ثم إلى دوفر، وذلك بعد تغيير واحد أو اثنين. نزل باسيفيري في فندقٍ نسيت اسمه الآن، لكنه يقع بالقرب من الميناء، ونزل رجلنا هناك أيضًا؛ إذ كان واثقًا من أن باسيفيري لا يدرك على الإطلاق وجودَ أحد يتبعه. ولم يحدث شيء. ورأى رجلنا باسيفيري في العشاء تلك الليلة، ورآه في غرفة التدخين بعدها، بل لعب معه البلياردو أيضًا، ورآه يعود إلى فراشه؛ إذ كانت غرفتاهما متجاورتين. كان الرجل واثقًا من أنه سيراه على الإفطار، لكنه حين نزل وجد أن الطائر قد طار؛ إذ قال الحارس الليلي إنه غادر مسرعًا قبل الساعة السادسة لكنه لا يعلم بوجهته. ولم يكن بمقدور رجلنا أن يتتبَّعه إلى محطةٍ من المحطات أو إلى الميناء أو إلى أيٍّ مكان.»

قال هيثرويك: «ذلك أسلوب مستهتر في المراقبة.»

فوافقه بنتيني قائلًا: «بل أكثر من مستهتر! لقد حصل الرجل كما قلت على الكثير من التعنيف. لكن الآن ...»

حينها دقَّ جرس الهاتف على مكتب بلينكنسوب. والتفت إليه بنتيني بعد أن اعتذر إلى هيثرويك. وبعد لحظةٍ انطلقت منه صيحةٌ مكتومة تنم عن المفاجأة، وتلاها بسرعة سؤال من جانبه. وفجأة التفت إلى هيثرويك.

وقال صائحًا: «يا إلهي! ما كل هذا؟ كانت هذه هي الليدي ريفرسريد. تقول إن أختها التي أتت أمس والآنسة فيذرستون قد اختُطِفتا! اختُطِفتا هذا الصباح!»

قفز هيثرويك على قدميه وصدرت عنه صيحةُ تعجُّب حادة، وقد توزَّعت مشاعره بين الدهشة وعدم التصديق. لكن أفكاره كانت مع رونا بالفعل؛ إذ كان يرى مخاطر هذا الموقف عليها على نحوٍ لا يمكن لبنتيني أن يراها به.

قال بنتيني: «مستحيل! اختُطِفتا! في وضح النهار؟ ومِن هناك؟»

لكن بنتيني كان لا يزال مشغولًا على الهاتف؛ إذ كان يتلقَّى إجابات سريعة ويجيب بمثلها.

كان يقول: «أجل، أجل! بكل تأكيد — الشرطة — أجل! سآتي إلى هناك على الفور — سيارة — أخبِر الشرطة أن يشرعوا في العمل.»

والتفت فجأة إلى هيثرويك ووضع السماعة من يده.

وقال: «يؤسفني أن ذلك ليس مستحيلًا! تقول الليدي ريفرسريد إنهما اختُطِفتا بينما كانتا في طريقهما من القصر إلى «الدار»؛ إذ سمعت شيئًا يشبه صوت سيارة كبيرة

وبها رجال غرباء. سأذهب إلى هناك حالًا؛ فهذا الأمر يحمل في طياته أكثرَ مما تراه العين للوهلة الأولى.»

قال هيثرويك: «سآتي معك. أين يمكن لنا الحصول على سيارة؛ سيارة سريعة؟»

فأجابه بنتيني وهو يمسك على عجلٍ بواحد من عدة معاطف كبيرة معلَّقة في فجوة في الحائط: «هناك مَرأب قريب من هنا، في كينجزواي. تفضَّل! البَس واحدًا من هذه المعاطف؛ أنت في مثل طولي تقريبًا، فالهواء سيكون قارسًا ونحن في السيارة. والآن هيا بنا، سنكون هناك في أقل من ساعة.» وأردف يقول وهما يغادران المكتب ويسرعان نحو كينجزواي: «أتعلم، أظن أنني أستشفُّ شيئًا من هذا الأمر بالفعل يا هيثرويك. الأرجح أن أولئك الرجال ظنوا أنهم اختطفوا الليدي ريفرسريد! فاختطفوا أختها خطأً. يريدون طلب فدية بالطبع! فشلت حيلة الابتزاز؛ والآن يحاولون القيام بهذه الحيلة. لا شك أنهم يائسون متهورون!»

أومأ هيثرويك في صمت مشيرًا إلى اتفاقه مع ذلك. كان يفكِّر فيما إن كان سيخبر بنتيني أن الآنسة فيذرستون التي تحدَّث عنها لتوه هي في الواقع حفيدة الرجل الذي كانت جريمة قتله الغامضة هي نقطة البداية للأحداث الراهنة الغامضة. بدا لهيثرويك أن هذه الحقيقة ستظهر علنًا عاجلًا أو آجلًا، ومن المحتمل أن يترتَّب على ظهورها تعقيدات، بل ربما يترتَّب عليها مشاكلُ أيضًا حين تكتشف الليدي ريفرسريد أنَّ رونا قد ذهبت للتجسُّس عليها. ألن يكون من الأفضل أن يثق في بنتيني ويشرح له الأمر؟ لكنه وبعد تفكير قرَّر أن ينتظر حتى يعرف حقيقة الموقف بالضبط في قصر ريفرسريد؛ فحتى الآن وعلى الرغم من الأخبار التي أفصحت عنها الليدي ريفرسريد، كان هيثرويك يشعر بصعوبةٍ في تصديق أنَّ امرأتين إحداهما، كما يعلم، فتاةٌ ذاتُ معرفة شخصية قوية وسَعَة حيلة، والأخرى سيدة من سيدات المجتمع معتادة السفرَ والمغامرة، قد اختُطِفتا في وضح النهار على مرأًى مباشر من منزلين كبيرين، بدا له هذا الأمر مستحيلًا.

الفصل التاسع عشر

طريق لندن

بعد مرورِ ما يقرُب من خمسين دقيقة، كانت السيارة الكبيرة القوية التي استأجرها بنتيني من كينجزواي تتوقَّف أمام قصر ريفرسريد. ووجد هيثرويك أنه لم يكن هناك مغالاة في رسالة الليدي ريفرسريد التليفونية. لقد أتت هي بنفسها تُهرع للقائهما؛ وكان هناك رجال يقفون حول الشرفة في الخارج وآخرون يمكن رؤيتهم في الحديقة؛ وتبِع الليدي ريفرسريد رجلان في زي شرطة رسمي، وقد خرجوا جميعًا من غرفة مكتبها، حيث خمَّن هيثرويك أنها كانت تتشاور معهما هناك. وكانت أولى نظرات الليدي ريفرسريد موجَّهة نحو هيثرويك؛ فخاطبته قبل أن يتمكَّن بنتيني من أن يقدِّمه لها بسرعة.

قالت مسرعةً في تعجُّب: «لقد رأيتك من قبل! كنتَ مع سكرتيرتي الآنسة فيذرستون في فيكتوريا صباح يوم الأحد. هل أنت خطيبها؟»

فأجابها هيثرويك: «لا! لكننا صديقان مقرَّبان.»

أكملت الليدي ريفرسريد تقول: «حسنًا، لقد اختُطِفت الآنسة فيذرستون، وكذلك أختي السيدة ليستوريل. هذا هو الأمر باختصار!» ثم أكملت وهي تلتفت إلى بنتيني: «لقد بدوت متشككًا تقريبًا حين اتصلت بك، لكن ليس هناك شك حيال الأمر؛ لقد اختُطِفتا من أمام نوافذ قصري. وليس لدينا دليل واحد، أو أي أثر حتى.»

فأجابها بنتيني في هدوء: «تقصدين حتى الآن. أخبريني الآن؛ أريد أن أسمع القصة كلَّها. ما التفاصيل؟»

قالت الليدي ريفرسريد متعجِّبة: «تفاصيل! لا نعرف أيَّ تفاصيل! كلُّ ما أعرفه هو الآتي: أتت أختي من هامبشاير مساء أمس لتمكث بضعة أيام. وهذا الصباح، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار، انطلقت هي والآنسة فيذرستون عبر الحديقة في طريقهما إلى

«الدار»، تاركتين إياي هنا، وكنت سأتبعهما في غضون دقائق قليلة. وقد فعلت! لم أمكث بعدهما أكثر من عشر دقائق. لكنني حين وصلت إلى الدار، لم أجدهما هناك، وقال ميتشل وهو الرجل الذي يقف على الباب إنهما لم تأتيا. لم تذهبا إلى هناك! أخيرًا، عُدت إلى هنا، لأرى إن كان أي شيء قد حدث وعادتا بطريقةٍ ما. لكني لم أجدهما هنا أيضًا. بدأت أستفسر عن الأمر. وقالت إحدى الخادمات، والتي كانت تنظر من النافذة العليا حينها، إنها رأت سيارةً تسير بسرعةٍ على الطريق الأوسط باتجاه الطريق السريع بعد برهةٍ قصيرة من مغادرة السيدة ليستوريل والآنسة فيذرستون للقصر. ما من شك في الأمر بالطبع؛ لقد اختُطِفتا في تلك السيارة! هذا من أعمال ذلك الرجل المدعو باسيفيري!»

علَّق بنتيني قائلًا: «لقد ذكرتِ شيئًا في الهاتف عن رجلَين غريبين رُؤيا في السيارة.»

أجابته الليدي ريفرسريد: «حسنًا، بشأن ذلك الأمر؟ أجل، لقد قالت الفتاة نفسها بأنها تعتقد أنها استطاعت رؤية رجلين يجلسان في السيارة. وهذان الرجلان غريبان بالطبع.»

التفت بنتيني إلى رجال الشرطة، بينما كان يربِّت على ذراع هيثرويك في اللحظة نفسها. وقال: «أظن أن من الأفضل أن نتفقد الحديقة ونرى بأنفسنا إن كانت هناك علامات على وجود مقاومة في مكانٍ محدَّد منها. لا أظن أنَّ أيًّا من السيدة ليستوريل أو الآنسة فيذرستون من النوع الذي يمكن أن يُختطَف من دون أن يبدي أيَّ مقاومة.» ثم أضاف سائلًا أكبرَ الرجلين: «هل تفقدتم أرضَ الحديقة بعدُ؟ أقصد الطريق الذي سارت منه المرأتان؟»

فأجابه الرجل: «ليس بعدُ يا سيدي؛ لقد وصلنا لتونا.»

قال بنتيني: «هيا بنا إذن.» تباطأ لحظةً حتى غادر رجلا الشرطة وهيثرويك الرَّدهة، وأسرَّ إلى الليدي ريفرسريد ببضع كلمات، ثم أسرع في المشي وتقدَّم المجموعة. فأكمل يقول وهو يتقدَّم هيثرويك على طول الشرفة: «من هنا، أعرف الطريق المعتاد إلى الدار؛ وهو طريق مباشر من هنا إلى هناك، عدا بقعة واحدة فيه، وفي رأيي أن أيًّا ما حدث قد حدث هناك!»

أَوْلى هيثرويك انتباهًا شديدًا إلى الطريق الذي تقدَّم بنتيني المجموعة فيه. كان الطريق يمر مباشرةً عبر الحديقة، من طرف الشرفة في القصر إلى ما يقارب مقدِّمة مدخل «الدار»، وبدا الطريق من القصر وكأنه مبسوط لا عائق فيه. لكن عند منتصفه تقريبًا بين المنزلين، كان هناك فاصل كبير لا يمكن للسائر أن يراه إلا حين يكون على مشارفه. كان هناك طريق غائر يقطع الحديقة من جنوبها إلى حدودها الشمالية، هو الطريق الأوسط الذي أشارت إليه الليدي ريفرسريد، ويحدُّه من الجانبين دَرَج مزيَّن قد انحدر من

الحديقة بالأعلى. أدرك هيثرويك في الحال أن أيًّا ما حدث في هذا الطريق لا يُمكن أن يُرى من الأرض العليا فوقه، إلا أن يراه شخص قريب من حافته. بالرغم من ذلك، فعلى بُعد مائتي ياردة أو ثلاثمائة أو ما يقرب من ذلك من الدَّرج الذي كان يشكِّل تكملة للطريق، كانت ضفتا الطريق الغائر تتسطَّح إلى الأراضي الأكثر انخفاضًا في الحديقة، ومن هناك يمكن رؤية الطريق من النوافذ العليا للقصر، ومن نوافذ «الدار» أيضًا.

توقَّف بنتيني على أعلى الدَّرج المزخرف.

وقال وهو يلتفت إلى رفاقه: «إذا كانت هاتان السيدتان قد اختُطِفتا، كما يبدو الأمر بالتأكيد، فهذه هي البقعة التي أشرتُ إليها! والآن، اسمحوا لي أن أشرح لكم تضاريس المنطقة. الطريق الرئيسي يحدُّ الحديقة من طرفها الشمالي، كما تعلمون. لكن هناك طريقًا جيدًا على الحدود الجنوبية منها، والطريق الغائر هذا يتفرَّع منه. يمكن لسيارةٍ أن تأتي من هناك، وتتوقَّف هنا، وتنتظر حتى تأتي السيدتان. تنزل السيدتان هذه الدرجات وتعبران الطريق وتصعدان الدَّرج على الضفة الأخرى لتصلا إلى النصف الآخر من الحديقة. والآن لنفترض أنهما قد أُجبرتا على دخول سيارةٍ تقف عند أسفل هذا الدَّرج، ثم تنطلق السيارة نحو الطريق الرئيسي وتختفي في غضون دقيقة أو اثنتين بعد وقوع الاختطاف! هناك تكمن الصعوبة! سيكون من السهل اختطافهما بالقوة. من المرجَّح أنَّ الأسيرتين قد أُرغِمتا على دخول السيارة باستخدام المسدسات.»

قال أكبر رجال الشرطة موافقًا إياه: «هذا صحيح يا سيدي! ليس هناك خيار في هذا الأمر، يا لهما من مسكينتين! وكما تقول، من الممكن أن يدخل الخاطفون ويهربوا بعيدًا قبل أن يعرف أحدٌ ما حدث.»

قال بنتيني: «لننزل ونلقِ نظرةً على الطريق.»

لم يكن هناك ما يمكن رؤيته عند أسفل الدَّرج. كان الطريق ممهدًا بطريقة مثالية، مثله في ذلك مثل كل الطرق والممرات التابعة لقصر ريفرسريد، حتى إن سطحه النظيف والممهَّد بالوسائل الصناعية لم يكن متسخًا حتى بذرة غبار واحدة؛ وبالطبع لم يكن هناك أيُّ آثار على وجود مقاومة أو نزاع.

قال بنتيني إلى هيثرويك معلِّقًا وهما يبحثان على الطريق: «هذا هو ما حدث، يمكنك أن تعوِّل على كلامي. كان الرجلان ينتظران هنا ومعهما المسدسات. وقد أجبراهما على ركوب السيارة والدخول بعدهما، بينما قام رجل ثالث هو شريك لهما، بالقيادة. لو أن لدينا معلومات مؤكَّدة ومحدَّدة عن السيارة ومَن كانوا فيها!»

قال هيثرويك معلِّقًا وهو ينظر حوله: «هناك رجل متقدِّم في السن قادم على الطريق ويبدو أنه ينظر إلينا. ربما كان لديه شيء يريد قوله. ففي نهاية المطاف، لا بد أن أحدًا من الناس في الأرجاء قد رأى السيارة!»

اقترب منهم الرجل المتقدِّم في السن الذي كان يبدو أنه عامل، وكان يقلِّب نظرَه بين الوقوف متسائلًا. كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول شيئًا عن الحادث.

قال الرجل متسائلًا وهو يقترب منهم: «هل تبحثون أيها السادة عن سيارةٍ كانت هنا هذا الصباح؟ سمعت أن هناك مَن يسأل عنها؛ لذا فقد أتيت إلى هنا.»

فأجابه بنتيني: «نحن مَن نسأل. هل تعرف أيَّ شيء؟»

أشار الرجل المتقدِّم في السن على طول الطريق الغائر حيث جزء من الحديقة يختفي بين الأشجار والأيكات.

قال الرجل: «أنا أعيش هناك، في كوخٍ لي، وهو يقع خلف تلك الأشجار بالضبط، على الجانب الآخر من الطريق الذي يمر من هنا؛ وحديقتي تمتد إلى حافة ذلك الطريق. وحين كنت أقوم بأعمال البستنة هذا الصباح، ربما كان ذلك عند الساعة التاسعة والنصف صباحًا، رأيت سيارةً تأتي من هذا الطريق، وتستدير إلى هذا الطريق الغائر هنا. ربما هذه هي السيارة التي تتحدثون عنها؟»

قال بنتيني موافقًا: «لا شك في ذلك. ونحن شاكرون لك كثيرًا. والآن ما نوع تلك السيارة؟ أكانت مغلقة أم مفتوحة؟»

قال العجوز: «كانت مغلقة كإحدى سيارات الأجرة القديمة التي لم نَعُد نراها الآن. على الرغم من ذلك، رأيت ما بداخلها. كان بها رجلان.»

كرَّر بنتيني يقول: «رجلان؟ هما فقط. وكان يوجد سائق في الخارج بالطبع.»

«أجل، أجل، كان هناك سائق بالخارج، بكل تأكيد. وكان يبدو من زيِّه أنه خادم لسيدٍ نبيل. كان رجلًا أنيق الملبس!»

«أيمكنك أن تصف أولئك الرجال؟»

«كلا بالتأكيد، لقد رأيت الرجلين من الخلف وهما جالسان! ورأيت السيارة أيضًا، وهي تنعطف إلى هذا الطريق، هنا بالتحديد.»

سأله بنتيني: «من أيِّ نوع كانت تلك السيارة؟ ما لونها؟»

«حسنًا، لقد فاجأتني بسؤالك هذا! ربما كان لونها يميل إلى الرمادي، أو ربما كان أصفر، أصفر فاتح، أو ربما كانت بلون بني باهت، لا أستطيع وصف لونها بالتحديد. لكنه كان لونًا فاتحًا.»

«كان لونها فاتحًا؛ رماديًّا أو أصفرَ أو بنيًّا باهتًا، شيئًا من هذا القبيل؟»

«بكل تأكيد! لم تكن السيارة داكنة اللون على أي حال. لكن الرجل الذي كان يقودها كان يرتدي ملابس داكنة؛ لقد لاحظته بصفة خاصة؛ لأنه كان أنيقًا جدًّا حتى إنني لم أرَ في مثل أناقته. كان زيه أخضرَ اللون وبه شريط ذهبي اللون. بدا الرجل وكأنه دوق! وحين سمعت أن هناك مَن يسألون عن أولئك الذين كانوا في الحديقة، رأيت أن آتي وأخبركم.»

كافأ بنتيني مخبرهم بعملات فضية، والتفت إلى رفاقه يهزُّ رأسه.

وقال معلِّقًا: «سيارة بلون فاتح وبها رجلان ويقودها رجل يرتدي زيًّا مميزًا أخضر اللون له شريط ذهبي! هذا هو كلُّ ما سنحصل عليه على الأرجح. وإذا كانت هذه المسألة قد أُعِدَّت جيدًا، فإن السائق سيغيِّر كسوته قبل أن يبتعدوا؛ فقد يرتدي معطفًا آخر مثلًا! على أية حال ...»

عادوا إلى القصر يتشاورون معًا؛ كان من الواضح أنه لا يوجد ما يمكنهم القيام به سوى إرسال التحريات في البلاد المحيطة. لكن بنتيني كان يشك في نجاح هذه التحريات.

فقال: «في ظل وجود آلاف السيارات التي يمكن رؤيتها في منطقة واحدة في صباح واحد، فكيف لنا أن نتوقَّع أن أيَّ شخص، وإن كان من الفلاحين البسطاء، سيولي اهتمامًا خاصًّا لسيارةٍ بعينها؟ لقد هربوا، لا شك في ذلك!»

بدا أنهم لا يستطيعون القيامَ بأي شيء عدا أن ينشروا عن عملية الخطف بشكل واسع من خلال الشرطة والصحافة. وفي الأرجاء المحيطة بالقصر، لم يبدُ أن هناك مَن رأى السيارة أو راكبيها عدا الخادمة والعجوز ساكن الكوخ. لكن في فترة العصر، وبينما كان هيثرويك وبنتيني يتجهَّزان للانطلاق إلى لندن، أتى رجل إلى المنزل وطلب مقابلة الليدي ريفرسريد. خرجت إليه الليدي ريفرسريد، وتبِعها الرجلان، ووجدوا عند باب الرَّدهة رجلًا متقدِّمًا في السن يبدو عليه الوقار أتى راكبًا عربةً خفيفة. قال الرجل إنه سمع بما حدث في قصر ريفرسريد ذلك الصباح، وإنه يعتقد أنه يستطيع الإدلاء بمعلومات؛ إذ كان واثقًا أنه رأى سيارةً كتلك التي كانت الشرطة تتحرى عنها تمر من أمام منزله.

سألته الليدي ريفرسريد: «وأين حدث ذلك؟»

«على بُعد ميلين في الجانب الآخر من دوركينج يا سيدتي، على طريق لندن. أنا مزارع متخصص في زراعة المحاصيل، واسمي توماس تشيلام. كنت خارج بوابة حديقتي هذا الصباح في الساعة العاشرة تقريبًا بحسب ما أعتقد، حين رأيت سيارة فاتحة اللون آتية من دوركينج تسير بسرعة كبيرة؛ بسرعةٍ أكبر كثيرًا من الحد المسموح لها أن تسير

به! رحت أرقبها بحذرٍ يا سيدتي. وبينما كانت تقترب من منزلي، كان هناك رجل يقود قطيعًا من الخراف خارج شارع جانبي على بُعد ياردات قليلة من حديقتي فكان حتمًا على السيارة أن تبطئ سرعتها. ورأيت مَن كانوا بها.»

قالت الليدي ريفرسريد: «حسنًا؟ ومَن كان فيها؟»

«كان بها رجلان يا سيدتي، على المقعد الأمامي، وسيدتان في المقعد الخلفي. كانت السيارة بالطبع مغلقة، لكنني رأيتهم بشكل واضح بما يكفي، رأيت أربعتهم. وبدا لي أنهم كانوا جميعًا يتشاجرون أو أنهم كانوا غاضبين؛ كانوا جميعًا يتحدثون بعضهم إلى بعض على أي حال. لكن بالرغم من أن السيارة كانت قد أبطأت سرعتها، فإنها كانت لا تزال تتحرَّك بسرعةٍ لا بأس بها، وبالطبع مرَّت من أمامي ورحلت، على طريق لندن في لحظة واحدة. لكن على أي حال، رأيتهم بوضوحٍ يكفي لأرى أنَّ واحدًا من الرجال بداخل السيارة هو شخصٌ رأيته من قبل.»

صاحت الليدي ريفرسريد متعجِّبة: «في الأرجاء؟»

أجابها تشيلام: «لا يا سيدتي. في لندن. الأمر على النحو التالي يا سيدتي: لديَّ أنا وزوجتي ابنة بالغة تعمل في «جروسفينور جاردنز» في لندن. وبين الحين والآخر نذهب لرؤيتها ونمضي ليلة أو اثنتين في الجوار. وبالطبع نتجوَّل في الأرجاء. وقد رأيت ذلك الرجل مرتين أو ثلاثًا في طريق محطة فيكتوريا، وتعرَّفت عليه فور أن رأيته هذا الصباح، و...»

قاطعه بنتيني قائلًا: «هلا تصفُ لنا شكله؟ بأدق ما يمكنك.»

«في الواقع يا سيدي، لست ماهرًا في ذلك، لكنه رجل طويل ووسيم ويرتدي ملابس أنيقة، وله شارب ولحية؛ هو أطول منك ومن الرجل الآخر هذا يا سيدي. رأيته في شارع «فيكتوريا»، وربما كان طوله هو ما جعلني ألاحظه.»

«وأنت واثق من أن ذلك الرجل هو الرجل الذي رأيته في السيارة هذا الصباح؟»

«لا شك في ذلك يا سيدي! أنا واثق من ذلك بقدر ثقتي من رؤيتي لك الآن. أجل!»

فطرح هيثرويك سؤالًا.

«وماذا عن الرجل الآخر في السيارة؟ هل رأيته؟ أيمكن أن تتذكَّره؟»

راح تشيلام يفكِّر برهةً.

وأخيرًا قال: «أتذكَّر أنه كان أبيض الوجه، وكان يرتدي قبعة عالية حريرية.»

حين غادر تشيلام، التفت هيثرويك إلى رفاقه.

وقال: «يبدو أن أحد الرجلين هو أمبروز، والآخر هو باسيفيري. إلى أيِّ شرٍّ يخططان الآن؟ يتحتم علينا أن نعود إلى لندن يا بنتيني!»

الفصل العشرون

مسالك متقاربة

كانت ساعة قد مرَّت حين توقَّفا عند مقر ماذرفيلد ودخلا يبحثان عنه. وبعد أن بحثا عنه لبعض الوقت عثرا عليه، وفرك ماذرفيلد يديه حين رآهما.

صاح بهما قائلًا: «جئتما في الوقت المناسب! لديَّ أخبار؛ عن أمبروز!»

من الواضح أن ماذرفيلد كان يتوقَّع من زائرَيه أن يُظهرا انتباهًا كبيرًا، إن لم يكن حماسًا مكتومًا، بصددِ ما أعلن عنه؛ فراح يحدِّق بهما متعجبًا لَمَّا رأى أنَّ وجهيهما لا يوحيان إلا بالكآبة والقلق.

هتف بهما: «لكنكما تبدوان كمَن سمع أخبارًا سيئة! أَوَقَعَ خطْبٌ ما؟»

فأجابه هيثرويك بعد أن أدرك فجأة أن ماذرفيلد لا يعرف شيئًا عن أحداث اليوم: «نسيت أننا كنا نستطيع الاتصال بك من قصر ريفرسريد. لكنني ظننت أن شرطة دوركينج ستفعل ذلك. وقع خطْبٌ ما! أجل، وربما يكون لأمبروز علاقة بالأمر؛ ذلك أننا سمعنا أخبارًا تشير إلى تورُّطه. سأقص عليك ما حدث.» بدأ يحكي لماذرفيلد سردًا مقتضبًا لأحداث اليوم. واختتم كلامه يقول: «هذا ما أردتَ معرفته! ليس لديَّ أدنى شك أن باسيفيري وأمبروز متورطان في الأمر؛ الاختطاف في وضح النهار. عليك أن تجدهم يا ماذرفيلد!»

كان ماذرفيلد يستمع باهتمامٍ بالغ لقصة هيثرويك، ثم راح يقلِّب نظره بينه وبين بنتيني، ومن بنتيني انتقل بعينه إلى ورقةٍ مطبوعة موضوعة على المكتب من جهته. علَّق قائلًا بعد أن سكت برهة: «أظن أنني أستشفُّ سببَ هذا، يظنُّ هذان الرجلان أنهما اختطفا الليدي ريفرسريد، أو كانا يظنان أنها هي مَن اختطفاه! أرادا احتجازها من أجل طلب فدية بالطبع. وقد أخذا الآنسة هانافورد إذ تصادف وجودها هناك. غير أنَّ مَن اختُطِفَت حقًّا هي أخت الليدي ريفرسريد، ويسعني القول إنَّ هذا الأمر ينطوي على أكثر

مما تعرفان به أيها السيدان! لكن الآن، وبالرغم من أنهما شقيقتان، بل توءم والشبه بينهما كبير للغاية، فستحين لحظةٌ بالطبع ينكشف فيها اختلاف الهوية بينهما. وبحلول الوقت الراهن، وربما قبل ذلك، لا بد أنَّ هذين الرجلين قد اكتشفا أنهما حصلا على المرأة الخطأ! ويصبح السؤال هو: كيف سيتصرفان حيال ذلك؟»

فقال هيثرويك: «يبدو لي أن السؤال الأكثر إلحاحًا هو: أين هما المرأتان؟ فكِّر في الخطر المحدِق بهما!»

أجابه مازرفيلد: «حسنًا، في الواقع يا هيثرويك، لا أظن أنهما معرضتان لأي خطر. لا شك أنهما في أيدي مجرمين، لكنني لا أعتقد أنهما ستتعرضان إلى أيِّ نوع من المعاملة السيئة أو القاسية؛ فلتطمئنا بشأن ذلك. ما عاد ذلك يحدث في هذه الأيام، بل الأمر يتم بهدوء ومراعاة تامة. أما عن مكانهما، فإنهما في مكانٍ ما في لندن! وهناك أكثر من سبعة ملايين شخص في لندن، ومئات آلاف فوق مئات آلافٍ المنازل المسكونة؛ هذا يعني الكثير من الإبر في مثل هذه الكومة من القش أيها السيدان!»

كرَّر هيثرويك في إصرار: «سيتحتم علينا أن نجدهما! ينبغي عليك أن تسخِّر كلَّ قوَّتك للعمل! لا يمكن لهذا أن ...»

قاطعه بنتيني قائلًا: «انتظر لحظة.» ثم التفت إلى مازرفيلد وقال: «قلت إن لديك أخبارًا عن أمبروز؟ ما تلك الأخبار؟»

نقر مازرفيلد على الورقة المطبوعة التي كانت موضوعةً على المكتب.

وأجاب قائلًا: «لقد طلبتُ بثَّ نشرةٍ في الإذاعة هذا الصباح. وساعدت الصحف بعد ذلك بالطبع. وقبل دخولكما بوقت ليس بالطويل، حدثني على الهاتف رجلٌ يُدعى كيلينر، وأخبرني أنه صاحب حانة «جرين آرتشر» في شارع «وود» بويستمنستر ...»

قال هيثرويك متعجبًا: «ويستمنستر مرة أخرى! يبدو أن هذه هي النقطة المركزية!»

قال مازرفيلد: «ومن الجيد أن لدينا نقطة مركزية يا سيد هيثرويك. فحين يضيق النطاق، يصبح لدينا فرصة أكبر في الوصول. حسنًا، كنت أقول إنَّ هذا الرجل هاتفني لكي يخبرني بأنني إذا ذهبت إلى هناك، فإنه يظن أن بإمكانه إمدادي ببعض المعلومات ذات الصلة بالإعلان عن الرجل المفقود. وقد قال إنَّ ما لديه من معلومات أطولُ من أن يقوله على الهاتف. فأجبته بأنني سأكون عنده بعد مدة قصيرة، وكنت أتجهَّز للرحيل حين وصلتما. لا أعرف ما سيخبرني به بالطبع، قد لا يكون مهمًّا، وقد يكون مهمًّا. ربما تودان أن تأتيا معي أيها السيدان لنسمع ما لديه؟»

فأجاب بنتيني: «أود ذلك، لكني لا أستطيع. لا بد أن أذهب إلى مكتبي وأرى إن كانت هناك أيُّ أخبار جديدة من الليدي ريفرسريد أو من الشرطة. لكن ابقَ على اتصالٍ بي يا ماذرفيلد، وأعلمني بما يخبرك به.»

قال هيثرويك: «سأذهب معك.» وغمغم مرةً أخرى حين ذهب بنتيني: «ويستمنستر! يبدو أن أمبروز كان معروفًا في ذلك الحي.»

قال ماذرفيلد موافقًا إياه: «على الأرجح! لكنَّ هناك مناطق غريبة في ذلك الحي يا سيد هيثرويك! فالذين يعرفون الأماكن الفخمة من ويستمنستر مثل كنيسة «آبي» ومجلسي البرلمان وشارع «فيكتوريا» وما إلى ذلك لا يعرفون أن هناك مناطقَ عشوائيةً عتيقة خلفها! سأريك حين نصل إلى هناك. سنذهب عبر أحد هذه الأماكن.»

كان ماذرفيلد يرتدي معطفه في أثناء الحديث، استعدادًا للرحيل، لكن قبل أن يغلق أزراره، دخل عليه شرطي ومعه بطاقة.

وقال: «يريد أن يراك تحديدًا وفي الحال. إنه ينتظر في الخارج.»

فأجاب ماذرفيلد: «أدخله مباشرة!» دفع بالبطاقة على المكتب باتجاه هيثرويك. وقال متعجبًا: «اللورد موراديل! مَن يكون؟»

أجابه هيثرويك بنبرة خفيضة: «خطيب السيدة ليستوريل. قطب من أقطاب هامبشاير.»

التفت ماذرفيلد نحو الباب المفتوح مترقبًا. دخل رجلٌ قصير وضخم بعض الشيء بدا أقرب في الشبه إلى رجال المدينة؛ إذ بدا عليه الثراء ويُسر الحال، دخل الرجل مسرعًا ورمق هيثرويك ورفيقه بنظرة ثاقبة متسائلة، ثم استقرت أنظاره في النهاية على ماذرفيلد.

وسأل يقول: «أيكما السيد ماذرفيلد؟ حسنًا! أنا اللورد موراديل؛ آه، لقد أرسلت بطاقتي بالطبع، حسنًا! في الواقع يا سيد ماذرفيلد، لقد حدثتني الليدي ريفرسريد بأمر غريب. اتصلت بمنزلي بشارع «هيل» هذا الصباح، لكنني كنت في المدينة، ولم أسمع برسالتها حتى عُدت في وقتٍ متأخر من عصر اليوم. وتقول إن أختها السيدة ليستوريل قد اختُطِفت! اختُطِفت؛ هذا غير معقول!»

فأجابه ماذرفيلد: «يؤسفني أن الأمر لا هو غير معقول ولا غير محتمل يا سيدي اللورد. أنا متأكد من أن السيدة ليستوريل قد اختُطِفت هي وسكرتيرة الليدي ريفرسريد، الآنسة فيذرستون. كنت في قصر ريفرسريد معظم أوقات اليوم، وليس هناك شك في ذلك؛ اختُطِفت المرأتان من هناك على يد ثلاثة رجال في سيارة سريعة، سارت باتجاه لندن. هذه حقيقة واقعة!»

صاح اللورد موراديل متعجبًا: «ليرحم الرب روحي! في وضح النهار! وفي القرن العشرين! وليس هناك أي دليل؟»

تابع ماذرفيلد يقول: «ليس لدينا دليلٌ بعد. لقد نشرنا عن المسألة بالطبع قدرَ ما أمكننا، وجميع أفراد قوَّتنا على أهبة الاستعداد. لكنها قضية صعبة. من المحتمل أن الجناة هُرعوا بالسيدتين إلى أحد المنازل في لندن وهما الآن في قبضة أسرهم. نحن نخمِّن بالطبع أن المختطِفين أخذوا السيدة ليستوريل بدلًا من أختها. ونخمِّن أنهم كانوا يريدون اختطاف الليدي ريفرسريد وأسْرها طلبًا لفدية.»

ضمَّ اللورد مراديل شفتَيه. ثم فرك ذقنه. وهزَّ رأسه. وأخيرًا رمق هيثرويك بنظرةٍ ثاقبة من أعلى رأسه إلى قدميه.

وقال: «أممم! آه! ماذا عن هذا المحترم؟ أظن أنه ليس من أفراد قوَّتك يا ماذرفيلد؟»

«لا سيدي اللورد. هذا المحترم هو السيد هيثرويك، من حي ميدل تيمبل، وهو شديد الاهتمام بأمورٍ ذات صلة بهذه المسألة. لقد ذهب السيد هيثرويك معي إلى ريفرسريد، ويمكن لمعاليك أن تتحدَّث بحرية أمامه.»

أومأ اللورد موراديل إلى هيثرويك بإيماءة تنم عن الود والقبول. ثم نظر إلى الباب، فأسرع ماذرفيلد لإغلاقه.

وقال اللورد موراديل: «أشكرك. من الأفضل أن نحافظ على خصوصيتنا. أممم! أظن أنه ينبغي لي أن أخبرك بشيءٍ ما يا ماذرفيلد. يسعني القول إن افتراضك هذا منطقي ومعقول؛ أن أولئك الملاعين أخذوا السيدة ليستوريل بدلًا من أختها. لكنني لا أظن أنه صحيح. أعتقد أنهم كانوا يعرفون جيدًا مَن التي يختطفونها. وليكن في علمك أنهم كانوا سيختطفون الليدي ريفرسريد أيضًا لو كانت هناك. لكنهم كانوا يريدون السيدة ليستوريل!»

فاقترح ماذرفيلد عليه قائلًا: «لو شرحت لي معاليك ما ...»

«سأشرح لك؛ فهذا هو ما جئت هنا لأجله! أظن أنني أستطيع أن أرشدك إلى الخيط الصحيح. ربما تكون قد سمعت أنني والسيدة ليستوريل على وشك أن نتزوج؟ هذا جيد، ومِن ثَم فقد علمت الكثيرَ عن شئونها. والآن، لا أعرف إن كنت تعرف أن السيدة ليستوريل تشتغل مباشرة بشراء المجوهرات وبيعها مقابل عمولة، أو الأحرى أنها كانت تفعل ذلك؟ هذه هي وظيفتها.»

أجابه ماذرفيلد: «سمعت شيئًا عن ذلك يا سيدي اللورد.»

«جيد جدًّا. ومنذ وقت قريب اشترت السيدة ليستوريل من باريس مجموعةً رائعة من الأحجار التي كانت مملوكة في أحد الأوقات إلى أحد أعضاء العائلة الإمبراطورية الروسية. وقد أحضرت تلك المجموعة إلى هنا في لندن لكي ترسلها في وقتٍ قريب إلى أمريكا أو تأخذها إلى هناك بنفسها لزبونها. لكن لسوء الحظ أنَّ أنباء هذه الصفقة تسرَّبت إلى الصحف. والآن، أعتقد أن أولئك الرجال اختطفوا السيدة ليستوريل من أجل الحصول على تلك المجوهرات. أفهمت؟»

قال مادرفيلد متعجبًا: «آه! فهمت يا سيدي اللورد! هذا يطرح أمامنا جانبًا جديدًا للقضية. لكن أنا واثق أن السيدة ليستوريل لم تكن لتحمل تلك الأحجار معها؟»

غمز اللورد موراديل بعينه عمدًا لمستمعيه.

وقال: «لا! لا؛ لم تكن لتحملها معها. لكن أولئك الأوغاد سيجدون حلًّا لذلك؛ فحين تكون في قبضة يدهم، سيكونون في وضعٍ يسمح لهم بإجبارها على تسليم تلك الأحجار، من خلال إجبارها على الإفصاح عن مكانها. وإن كانوا ملاعين يائسين، فليس من المرجَّح أن يلتزموا بأي شيء، وأعتقد أنهم سيجبرون السيدة على الانصياع لهم؛ ومِن ثَمَّ يقدِّمون لك فرصةً للقبض عليهم!»

سأله مادرفيلد بحماس قائلًا: «كيف ذلك سيدي اللورد؟»

رمق اللورد موراديل الرجلين بنظرةٍ تشي بأنه على وشك أن يأتمنهم على سرٍّ.

وأجاب يقول: «بالطريقة الآتية. لقد أودعت السيدة ليستوريل المجوهرات في «صناديق إمبريال للودائع» بهدف الحفاظ عليها. ذلك أنها تستأجر خزنةً لها هناك. والآن، ألا تريان ما أرمي إليه؟ قد يجبرها أولئك الرجال على إعطائهم المفتاح اللازم مع أمرٍ موقَّع موجَّه إلى العاملين في الخزنة ليسمحوا لحاملي تلك الورقة بفتح خزنة السيدة ويأخذوا منها حقيبةً بعينها تكون المجوهرات فيها. هذا في اعتقادي هو ما سيحدث. وما ينبغي عليك فعله هو زيارة مسئولي «صناديق إيمبيريال للودائع» في الحال، وتحذيرهم مما أشير إلى أنه قد يحدث، وأن تتخذ أنت من وسائلك ما يمكن لك مراقبة مَن سيحضر لمثل هذا الغرض، وتتبُّعه بعد رحيله. ما رأيك؟»

قال مادرفيلد: «أو إلقاء القبض عليه في التو واللحظة.»

صرَّح اللورد موراديل قائلًا: «لا، ما كنت لأحبذ ذلك! أنا لست شرطيًّا كما تعلم، لكنني أستطيع أن أشير على أحدهم. بدلًا من إلقاء القبض على الرجل، والذي ينبغي أن تتذكَّر أنه سيكون قد حصل على توقيعٍ كتابي من السيدة إذا سارت الأمور على النحو

الذي وصفته، فإنني أقترح تتبُّعه بحذر. ذلك أنه سيعود على الأرجح إلى مكان احتجاز السيدة والفتاة الشابة؛ تلك الآنسة التي نسيت اسمها الآن! أليس كذلك؟»

هزَّ مازرفيلد رأسه.

وأجاب: «أشك في ذلك يا سيدي اللورد! إن سارت الأمور كما اقترحت، وهي نظرية مرجَّحة جدًّا، فإن هذا هو آخر شيء قد يفعله! فحالما تكون المجوهرات في حوزته ...»

قاطعه اللورد موراديل قائلًا: «لقد نسيت شيئًا، وهو أنهم قد يستخدمون مُنفِّذًا للعملية بدلًا منهم! أليس كذلك؟»

فقال مازرفيلد مقرًّا: «في الواقع، قد يحدث ذلك بكل تأكيد. لكني سأحرص على تحذير المسئولين في «صناديق إمبريال للودائع»، وعلى أن تخضع المؤسسة لمراقبة شديدة صباح الغد. بالرغم من ذلك، قد يكون الأمر وقع بالفعل! فقد مرَّ وقت طويل منذ اختطاف السيدتين.»

فقال اللورد موراديل: «لا! لم يحدث شيء حتى الآن. فقد ذهبت إلى «صناديق إمبريال للودائع» وأنا في طريقي إلى هنا؛ وهم لم يروا السيدة ليستوريل ولم يحصلوا على أيِّ شيء منها اليوم. والآن أغلقوا المكان لهذه الليلة.»

فسأله مازرفيلد: «فهل حذرتهم إذن؟»

أجاب اللورد موراديل: «كلا. رأيت أنه من الأفضل أن آتيك أولًا. وسيكون من الأفضل كثيرًا أن يأتي التحذير وما يليه من جانبك.»

فقال مازرفيلد: «جيد للغاية يا سيدي اللورد. أنا ممتن لمعاليك لزيارتك إياي، سنترك لك خبرًا في منزل شارع «هيل» إن حدث أيُّ شيء.» وأكمل بعدما غادر اللورد المكتب: «والآن يا سيد هيثرويك، سنذهب إلى ويستمنستر، إلى حانة «جرين آرتشر» ومالكها كيلينر.»

تبيَّن أن حانة «جرين آرتشر» هي حانة لائقة وبها قاعة مشرب كبيرة. وخلف النوافذ الزجاجية لتلك الحانة وجدا رجلًا متوسط العمر ثاقب النظر فتح باب غرفة خلفية فور أن وقعت عينه على زائريه وأرشدهما إلى الداخل حيث المزيد من الخصوصية. أشار الرجل في صمتٍ إلى نسخة من إعلان يطلب أخبارًا عن أمبروز.

قال مازرفيلد: «أجل! بالضبط. لقد وصلتني رسالتك. أتعتقد أنك تعرف هذا الرجل؟»

أجاب صاحب الحانة: «من الوصف المذكور عنه في الإعلان، أجل، أظن أنه رجل أو سيد محترم مما يبدو على مظهره، قد اعتاد المجيء إلى حانتي بانتظام خلال الأشهر

الستة المنصرمة. منذ نهاية الصيف الماضي وحتى ما قبل ثلاثة أسابيع تقريبًا على ما أعتقد.»

سأله ماذرفيلد: «لم ترَه منذ تلك المدة إذن؟ منذ ثلاثة أسابيع؟»

«تقريبًا. لم يأتِ طَوال هذه المدة تقريبًا. لكنه كان يأتي قبل ذلك أربع مرات أو خمسًا في الأسبوع. إنه رجل وسيم وأنيق؛ لقد وصفتموه بدقة هنا في الواقع. لم أعرف هوية ذلك الرجل قط؛ إذ اعتدت تمضيةَ الوقت معه فحسب. كان دائمًا ما يأتي في الموعد نفسه؛ من الواحدة إلى الواحدة والنصف. وكان يطلب في بعض الأحيان كوبًا من الجِعَة المُرة وشطيرة أو اثنتين، وفي بعض الأحيان كان يطلب الويسكي والصودا وبسكوتتين أو ثلاثًا. كان الرجل يتوقَّف ويتناول وجبته السريعة ويمضي. لم يتحدَّث كثيرًا. ظننت أنه رجل لديه عمل في الأرجاء ويريد وجبةً سريعة وشيئًا من شراب في منتصف يومه، ويأتي هنا ليحصل على ذلك. لكنني لا أعرف نوعَ العمل الذي يمكن أن يكون لديه هنا. فلم يكن يبدو عليه مظهر التجَّار. يسعني القول إنه كان رجلًا يعمل في مهنةٍ احترافية من نوعٍ ما. فدائمًا ما كان حسن الملبس أنيقًا كما تعلمان. لكنني لاحظت فيه شيئًا واحدًا بعينه.»

سأله ماذرفيلد: «ما هو؟ كل شيء يمكن أن يساعدنا!»

قال صاحب الحانة: «في الواقع، لاحظت أن يده وأصابعه كانت ملطَّخة بألوان كثيرة. وفي بعض الأحيان كانت تلك البقع تبدو ظاهرة أكثرَ من أوقات أخرى. لكنها كانت موجودة على الدوام.»

علَّق ماذرفيلد يقول: «أممم!» وتبادل نظرة تنم عن الفهم مع هيثرويك. وبعد عدة دقائق، حين غادرا الحانة التفت إليه يريد طمأنته. فقال: «بدأت أستشعر النهاية! بدأت أشعر بها، ولو أنني لا أراها. أصابع ملطَّخة، أتتذكَّر؟ لقد سمعنا بها من قبل يا سيد هيثرويك. وسأخبرك بشأنها. في مكانٍ ما هنا تحديدًا، يوجد مكانٌ يُجري فيه الرجال التجارب باستخدام المواد الكيميائية، ويحدث ذلك سرًّا على ما أعتقد، وأمبروز هو أحدهم، وربما كان باسيفيري أيضًا، وذلك هو المكان الذي كان فيه هانافورد وذلك الرجل المدعو جرانيت تلك الليلة، وقد سُمِّما، ولا شك أيضًا أن هاتين السيدتين هناك في هذه اللحظة! والآن؛ فلتمر بشقتي في الصباح الباكر.»

غادر هيثرويك حائرًا فيما يفعله بعد في تلك الليلة، فتناول عشاءه، وحين انتهى منه سار عائدًا إلى شقته. كان هناك ضوء في صالة شقته، وحين فتح الباب وجد مابيرلي منتظرًا إياه بالطبع، وكان معه شاب يهودي مجعَّد الشعر له أنف كبير وعينان مستديرتان صغيرتان تلمعان بالخبث.

الفصل الحادي والعشرون

الأمر المكتوب

أدرك هيثرويك في الحال أن مابيرلي لديه أخبار، وأنه كان ينتظره من أجل أن يُطلِعه عليها. لكنه لم ينظر إلى مابيرلي كثيرًا بقدرِ ما كان ينظر إلى رفيقه. إن مابيرلي، وكما أشار هيثرويك إلى أكثر من شخص في سياق تلك الأحداث، يخفي فطنته تحت مظهر خارجي مألوف للغاية؛ إذ كان يبدو كشاب نادرًا ما ترتفع أفكاره عن مستوًى منخفض للغاية. أما اليهودي فقد كان مختلفًا عن ذلك؛ لم يكن هيثرويك واثقًا تمامًا مما إن كان الرجل واشيًا أو مخبرًا. كانت حدة الذهن والبراعة تبدو في جميع ملامحه، من عينيه المستديرتين اللامعتين إلى أصابعه الطويلة الرفيعة المتسخة، وقبل أن يتحدَّث مابيرلي شعر ربُّ عمله أن موظَّفه وجد في ذلك الإسرائيلي شريكًا ذا قيمة.

قال هيثرويك متعجبًا: «مرحبًا يا مابيرلي! أتنتظرني؟ أعتقد أن لديك بعض المستجدات، أليس كذلك؟»

أشار مابيرلي بإصبعه في جديةٍ ورسمية إلى اليهودي.

وقال: «السيد إسيدور جولدمارك يا سيدي. صديق لي. طلبت منه بعض المساعدة في مسألة باسيفيري وفيفيان هذه. وفي الواقع يا سيدي، السيد هنا يعرف نادي «فيفيان»، أليس كذلك يا إيسي؟»

أجاب السيد جولدمارك بابتسامة: «بعض الشيء!»

أكمل مابيرلي يقول: «ويعرف باسيفيري أيضًا. يعرفه شكلًا على أي حال. لذا طلبت منه، مقابل تعويض مادي، أن يترقَّب ظهور باسيفيري التالي في ذلك المكان، وأن يراقبه حين يأتي، أو يخدعه في الواقع. وقد رآه إيسي الليلة يا سيد هيثرويك، وتبِعه. بعد ذلك أتاني وأحضرته أنا إلى هنا.»

قال هيثرويك: «جيد! اجلسا كلاكما، وسأسمع منكما عن الأمر.» ارتمى في كرسيه الوثير وراح ينظر مرة أخرى إلى اليهودي فقرَّر أنه شاهِد يُعتد به على الأرجح. فسأله قائلًا: «ماذا تفعل في نادي «فيفيان»؟ أأنت موظَّف هناك؟»

نظر السيد جولدمارك إلى مابيرلي وابتسم مستفسرًا. فأومأ إليه مابيرلي.

وقال مطمئنًا إياه: «كل حديثك سرِّي يا إيسي. لن يُنقل إلى أيِّ شخص سوانا.»

فعلَّق هيثرويك يقول: «بالطبع هذا الحديث كله سرِّي، وسنتكتَّم عليه. إنما أريد أن أعرف على وجه التحديد طبيعة العلاقة التي تجمعك بنادي «فيفيان» يا سيد جولدمارك.»

فأجابه اليهودي: «إنها علاقة شبه رسمية يا سيدي. في الواقع، أنا أقوم ببعض أعمال السمسرة لزبائن نادي فيفيان، كالسباقات كما تعلم. لكنني أدخل وأخرج في المساء. هل فهمت الآن؟»

قال هيثرويك: «فهمت، لا بأس! وهل تعرف باسيفيري؟»

أجابه السيد جولدمارك: «كما أعرف أنفي.»

«منذ متى وأنت تعرفه؟»

«أعرفه منذ بعض الوقت.»

«أتعرف ماذا يعمل؟»

«ليس لديَّ فكرة يا سيدي، ولا أحدَ ممن أعرفهم لديه أيُّ فكرة أيضًا! إذا كنت تريد رأيي، فأنا أعتقد أنه يعيش على ثروة. ثروة من طريق غير مشروع!»

«ولا تعرف أين يقطن؟»

«لا يا سيدي! كلُّ ما أعرفه أنه يأتي إلى نادي «فيفيان» بين الحين والآخر.»

«هل رأيته الليلة؟»

«رأيته يا سيدي الليلة مثلما أراه دائمًا!»

«كم كانت الساعة؟»

«الثامنة تقريبًا يا سيدي، بحسبِ ما أتذكَّر.»

«حسنًا، ماذا حدث؟»

«حدث الآتي يا سيدي. أتى باسيفيري في غضون الثامنة كما قلت. كنت هناك أقوم ببعض الأعمال مع عميل آخر. لكن باسيفيري لم يُطل مكوثَه. لم يمكث في المكان إلا ثلاث دقائق، وحين كان هناك بدا لي قلِقًا بعض الشيء كأنه مرتاب. كان ينظر حوله في حذر. غادر بعد ذلك فتبعتُه. وذلك بناء على تعليمات من مابيرلي.»

«وإلى أين ذهب؟»

«حسنًا يا سيدي، سأقصُّ عليك كلَّ ما حدث بالتفصيل؛ فحين أتولَّى مهمة مثل هذه أؤديها على أكمل وجه. استدار باسيفيري من ممر «كاندلستيك» إلى شارع «لين»، وتناول مشروبًا في حانة هناك. وبعدها ذهب إلى نفق ميدان «ترافلجار». كنت بالقرب منه من خلفه حين كان يحجز ...»

«لحظة. أيعرفك هو؟»

«ربما يعرفني بالشكل يا سيدي، لكنه لا يعرفني بما يكفي لأثير أيَّ شكوك في رأسه إن رآني هناك خلفه. لم أتعامل معه من قبل قط، ولم أتحدَّث إليه قط.»

«حسنًا، أكمل. إلى أين حجز؟»

«شارع «وارويك» يا سيدي. وفعلت مثله بالطبع. وحين وصلنا إلى هناك تبِعته إلى الخارج من مسافة آمنة. تحوَّل هو بعد ذلك إلى القناة، فعبر الجسرَ وذهب إلى «سانت ماريز مانزيونز». وهناك دلف إلى إحدى الشقق.»

نظر هيثرويك إلى مابيرلي. فسمح مابيرلي لنفسه أن يغمز لرب عمله بشيء من الاحترام، لكن أيضًا بإشارة على الفهم.

قال هيثرويك: «ذهب إلى «سانت ماريز مانزيونز»، إذن؟ دخلها مباشرة؟»

«مباشرة يا سيدي، من المدخل الأمامي. رأيته من الجانب الآخر من الطريق وهو يتحدَّث إلى الرجل الذي يرتدي الزي الرسمي؛ الحارس أو أيًّا كان. كنت أستطيع رؤيته من خلال الأبواب الزجاجية. ورأيت كلا الرجلين يصعد إلى الشقة. لذا انتظرته في الخارج بعض الشيء، لأرى إن كان سيخرج أم لا. وقد خرج.»

سأله هيثرويك: «هل خرج بسرعة؟»

«غاب في الداخل ما يقرب من عشر دقائق. وخرج بعد ذلك. وحدَه. وفي هذه المرة ذهب في الاتجاه المقابل. تبعتُه عبر بادينجتون جرين إلى نفق طريق إدجوير، وهناك، في الواقع، ولكي أكون صريحًا يا سيدي، فقدت أثره هناك! كان هناك الكثير من الناس في الأرجاء، وكنت متأكدًا من أنه كان سيتَّجه جنوبًا. لكن لا بد أنه توجَّه غربًا. على أي حال، فقدتُ أثره تمامًا.»

قال هيثرويك: «في الواقع، أظن أنك رأيت بما يكفي لمساعدتنا. والآن، احتفظ بهذا لنفسك يا جولدمارك.» أشار إلى مابيرلي ليدخل غرفة أخرى وأعطاه أموالًا من أجل مساعده، وانتظر حتى غادر اليهودي الذي أرشده الموظف إلى طريق الخروج. وقال معلِّقًا وهو ينظر إلى ساعته بينما دخل عليه مابيرلي: «إنها الحادية عشرة! يا مابيرلي! سنخرج

إلى «سانت ماريز مانزيونز». وبعد أن نصل إلى هناك، ونُجري اتصالًا هاتفيًّا من الأفضل أن تعود معي وتنام هنا مؤقتًا في هذه الليلة؛ إذ إنني سأكون في حاجةٍ لك في الصباح، هذا إن لم أكن مخطئًا.»

كان من بين أفضل صفات مابيرلي أنه مستعد دومًا للذهاب إلى أيِّ مكان وفعْل أيِّ شيء، وفي الحال تبِع هيثرويك إلى أول شارع «ميدل تيمبل»، ووجد سيارةَ أجرة في غضون خمس دقائق، وأعد نفسَه للنوم لدى هيثرويك مؤقتًا في هذه الليلة والليلة التالية إن لزم الأمر.

وعلَّق قائلًا بينما انطلقا بالسيارة بعد إخبار السائق بإيصالهما إلى «بادينجتون جرين»: «أظن أننا اقتربنا من النهاية يا سيدي. يبدو أن الأمور بدأت تشير إلى أحدهم.»

«أجل، لكنني لا أظن أنك تعرف كلَّ شيء.» ثم شرع يقصُّ لموظفه تلخيصًا لأحداث اليوم كما حدثت معه، وأنهى حديثه بنظرية ماذرفيلد التي ذكرها بعد أن غادرا حانة «جرين آرتشر». وأضاف قائلًا: «أنت رجل ذكي يا مابيرلي. فماذا تظن في ذلك؟»

أجاب مابيرلي: «يمكنني تفهُّم وجهة نظر ماذرفيلد. وأستطيع تصوُّر طريقةِ تفكيره. إنه يفكِّر كالآتي: حين أتى هانافورد إلى لندن، أراد أن يبيع وصفته للحبر الجديد بما يحقِّق منفعته. فتواصل مع أمبروز الذي كان يعرفه بالطبع من قبل في سيليثوايت. وقدَّمه أمبروز إلى بعض الرجال الذين يتاجرون في المواد الكيميائية أو يُجرون التجاربَ عليها، والذين لا شك أن منهم باسيفيري الذي يبدو أنه يمتلك معملًا أو شيئًا من هذا القبيل في مكانٍ ما في حي ويستمنستر. وفي ليلةِ مقتله التقى أمبروز بهانافورد بناءً على موعد مسبق في فيكتوريا وأخذه إلى هناك. ومن المحتمل أن يكون هانافورد قد ترك الخطاب المغلق مع أولئك الرجال، والذي كان قد فُتِح آنذاك. ومن المحتمل أيضًا أنه أخبرهم حين كان هناك، على سبيل المزاح غالبًا، بما اكتشفه عن هوية السيدة ويتينجهام والسيدة ليستوريل. والآن يأتي دور جرانيت!»

أطلق هيثرويك صيحةً لا تنم عن شيء واحد، بل اثنين أو ثلاثة من بينها الدهشة. فقال: «آه! جرانيت! بكل تأكيد! كنت قد نسيت أمر جرانيت!»

علَّق مابيرلي بابتسامة ساخرة: «لكنني لم أنسَه. جرانيت ومقتله يمثِّلان عاملًا أساسيًّا. فأنا أرى أننا نعرف أن هانافورد التقى بأمبروز في محطة فيكتوريا في ذلك المساء المهم للغاية. ولا شك أن أمبروز أخذه إلى المكان الذي أشرت إليه لتوي، والذي يظل موقعه المحدَّد غير معروف. أظن أن هانافورد مكث هناك حتى فترةٍ متأخرة من ذلك المساء. لكني أظن أيضًا أنه عاد إليه مرة أخرى! مع جرانيت!»

صاح هيثرويك: «آه! فهمت!»

وأكمل مابيرلي يقول: «نعرف أن جرانيت ذهب ذلك المساء لرؤية الكيميائي الذي قدَّم معلوماتٍ عنه؛ ونعرف أيضًا أنه ذهب والكيميائي لكي يتناولا مشروبًا معًا، وافترقا عند موعد الإغلاق، وطبقًا لكلام الكيميائي، فقد ذهب جرانيت نحو شارع «فيكتوريا». والآن أظن أن جرانيت التقى حينها بهانافورد عَرَضًا. ذلك أنهما كانا يعرفان أحدهما الآخر في سيليثوايت. تحدَّثا وأخبر جرانيت هانافورد أن حظه كان عاثرًا. ومن الواضح أنَّ هانافورد رجل طيب القلب، وأظن أنه فعل شيئًا لجرانيت بدافع العطف والطيبة. أعطاه ورقة الخمسة جنيهات تلك ...»

قاطعه هيثرويك بسرعة: «لكنها أُخِذَت من نادي «فيفيان»!»

أقرَّ مابيرلي قائلًا: «بكل تأكيد! لكننا نعرف أن هانافورد كان في نادي فيفيان، مع باسيفيري بالطبع. أخذه باسيفيري هناك، الأمر الذي يجعلني متأكدًا أنه كان على اتصال مع كلٍّ من باسيفيري وأمبروز كليهما على مدى يومين أو ثلاثة قبل وفاته. حصل هانافورد على ورقة الجنيهات الخمسة تلك من نادي «فيفيان» بقية لحسابه. فأعطاها لجرانيت لدى سماع قصَّته. لكنه فعل شيئًا آخر؛ شيئًا أكثر أهمية بكثير بالنسبة إلينا!»

فسأله هيثرويك: «وما هو؟»

ردَّ عليه مابيرلي في ثقة: «عاد إلى المكان الذي كان قد غادره لتوه، وأخذ جرانيت معه! كان يعرف أن جرانيت كيميائي مدرَّب ومؤهَّل؛ وفكَّر أنه يمكن أن يحصل له على وظيفة مع أولئك الرجال الذين من المفترض أنهم سيتولون أمرَ اختراعه. كانت الساعة حينها تتجاوز العاشرة والنصف بقليل. فأي مكان آخر يمكن لهانافورد وجرانيت أن يكونا فيه بين ذلك الوقت والوقت الذي ركِبا فيه عربة القطار في «سانت جايمس بارك»؟ بالطبع كانا هناك، مع أمبروز وباسيفيري.»

قال هيثرويك: «هذا محتمل جدًّا كما تقول. ساعتان ونصف؛ ماذا كان يفعلان خلال هذا الوقت؟»

قال مابيرلي: «آه، والآن نأتي لأهم مسألة! أعتقد أن هانافورد سُمِّم بسمٍّ قاتل حين ترك هذين الرجلين للمرة الأولى! كان لديهما غايتان تبرِّران تسميمه، أو يمكننا القول إنَّ هانافورد كان قد أسرَّ إليهما بسرين؛ أحدهما عن السيدة ليستوريل، والآخر عن الاختراع. أراد الرجلان أن يحتفظا بالسرين لنفسيهما وتحقيق أرباح منهما. لا شك أن للاختراع قيمةً مادية كبيرة، كان هانافورد يظن ذلك على أي حال. وظنَّ الرجلان أن باستطاعتهما

ابتزازَ السيدة ليستوريل وأختها الليدي ريفرسريد. لذا وقبل أن يتركهما هانافورد للمرة الأولى، سمَّمه الرجلان بكل مهارة وبراعة ومكر؛ إذ كانا يعرفان أن وقتًا طويلًا سيمر قبل أن يسري مفعول السُّم، وأنه في ذلك الوقت سيكون هانافورد في سريره في الفندق وسيموت خلال نومه. لكنه عاد إليهم مرة أخرى، وأخذ رجلًا آخر معه! لذا؛ كان يتحتم أن يموت ذلك الرجل أيضًا!»

راح هيثرويك يفكِّر برهةً في صمت.

وأخيرًا قال: «هذه نظرية جيدة للغاية يا مابيرلي. لكنها قد لا تكون شيئًا سوى محض نظرية. لماذا هرب جرانيت في تشارينج كروس؟»

فأجابه مابيرلي بسرعة: «لأن جرانيت كان يعرف أن أمبروز يقطن في شارع «جون» بالجوار. ربما كان يعلم ذلك من قبل؛ وربما لم يعرف ذلك إلا في تلك الأمسية. لكن جرانيت كان يعرف ذلك! الأرجح أنه ظن أن أمبروز عاد إلى منزله من ذلك المكان في ويستمنستر: فربما كان أمبروز قد غادر من هناك قبل أن يغادر كلٌّ من هانافورد وجرانيت. على أي حال، يمكننا التأكُّد بدرجة كبيرة من أن جرانيت حين تركك مع الرجل القتيل أو الذي كان يُحتضَر، أنه هُرع إلى شقة أمبروز، التي تبعُد عن ذلك المكان بضع دقائق.»

فسأله هيثرويك: «ولماذا لم يَعُد؟ إنما أريد بذلك فقط أن أقف على الاحتمالات فحسب.»

فردَّ مابيرلي: «فكَّرت في ذلك أيضًا. أظن أنه وجد أمبروز بالخارج. لكنه بحلول ذلك الحين كان لديه وقتٌ للتفكير. كان يعرف أن هناك خطْبًا ما. وكان يعرف أنه إذا عاد، فسيجد الشرطة هناك، وسيتم استجوابه. وربما يكون مشتبهًا به. ومِن ثَمَّ؛ فقد عاد إلى منزله، ومعه الزجاجة التي وضع له فيها أمبروز شيئًا من الويسكي. ومات الرجل في أثناء نومه، على النحو الذي ظنَّا أن هانافورد سيموت به.»

هنا تساءل هيثرويك: «ولماذا كانت تلك الزجاجة مع أمبروز في ويستمنستر؟»

فردَّ عليه مابيرلي متسائلًا: «ولماذا لا تكون معه؟» وأكمل يقول: «إن الرجل الذي يتناول المنشطات يتناولها على الأقل ثلاث مرات يوميًّا بصورة منتظمة. لذا فإن الزجاجة ستكون معه. وعلى الأرجح هناك عدة زجاجات فارغة مشابهة لها في ذلك المكان.»

فصاح هيثرويك متسائلًا: «لكن أين هو ذلك المكان؟ أين؟»

قال مابيرلي بينما توقَّفت السيارة الأجرة. «سنجده. لكن، ها نحن أولاء قد وصلنا!»

تقدَّم هيثرويك رفيقه عبر بادينجتون جرين ثم إلى المنزل الذي راح يراقب منه الشقق المقابلة له هو ومازرفيلد. وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرًا، فقد كان حارس

العقار مستيقظًا، واستمع بإمعان إلى طلب هيثرويك بأن يذهب معه إلى صديقه الحارس في تلك المنازل. وكان ذلك الأخير يتناول وجبةَ عشائه. واستمر في تناولها بينما كان هيثرويك يشرح له الأمور ويحصل في أثناء ذلك على دعم حارس العقار، فالتفت الرجل بخديه المنتفخين من الطعام الذي لم يبتلعه إلى زائره، وكانت ملامحه تنم عن الدهشة والإدراك لأمرٍ ما.

وصاح يقول وهو يضرب الطاولة بمقبض سكينه: «كنت سألقي باللوم على نفسي لو أنني لم أتساءل ما إن كانت الأمور على ما يُرام مع ذلك الرجل! فبالرغم من أنه كان رجلًا محترمًا وهادئًا، إلا أنني كنتُ مرتابًا في أمره بشكلٍ ما! ومع ذلك، فقد كان يتحدَّث بصورة صريحة ومباشرة: قال إنه أتى إلى هنا نيابةً عن السيدة ليستوريل، ليحصل على شيء من شقتها، وكان معه مفاتيحها، وأعطاني رسالة صغيرة منها تقول أن أسمح لحاملها بأن يصعد إلى شقتها! كيف كان لي أن أتوقَّع أكثرَ من ذلك؛ وماذا كان باستطاعتي أن أفعل في ظل هذه الظروف؟ أخبرني!»

فتساءل هيثرويك: «أكان معه رسالة صغيرة، فعلًا؟ بخط يد السيدة؟»

وضع الحارس السكين من يده، ودسَّه في جيب صدريته، وأخرج منه مظروفًا وقدَّمه في صمت إليه. كان المظروف بلون أزرق فاتح ونوعية الورق المصنوع منها جيدة للغاية، كالذي لا يُباع إلا في متاجر الأدوات المكتبية الراقية، وكانت الورقة الموجودة داخل المظروف تطابقه من حيث جودة الورق واللون. غير أنَّ هيثرويك قد لاحظ في الحال أن هناك خطْبًا ما بشأن تلك الورقة، وحدث الأمر نفسه مع مابيرلي الذي كان ينظر إليها من خلف مرفق هيثرويك. ذلك أنَّ جزءًا بمساحة بوصة ونصف تقريبًا قد قُطِع من أعلاها؛ فكان من الواضح أنَّ هذا الجزء المفقود كان يحتوي على عنوانٍ ما، محفور أو منقوش أو مطبوع. أما بشأن ما كان مكتوبًا على الورقة، فلم يكن كثيرًا، بل أمرٌ بسيطٌ للحارس بأن يسمح لحامل هذه الورقة بالصعود إلى شقة السيدة ليستوريل.

فسأله هيثرويك: «هل هذا هو خط السيدة ليستوريل؟»

فأجاب الحارس: «أجل، هذا هو خطُّها، بالفعل! رأيت خطها ذات مرة. ولا عجب في ذلك! أنا لم أرتَد المدارس! لكنني على دراية كافية لأن أعرف أن محاولة تقليد ذلك الخط من جانب أولئك المزورين الذين تقرأ عنهم أمرٌ صعب؛ كانت الرسالة لتبدو وكأنها مكتوبة بعصا خشبية لا قلم عادي! لكن هذا هو خطُّها.»

أعطى هيثرويك المظروف والرسالة إلى مابيرلي، الذي كان يمد يده.

وقال: «حسنًا، آمل أن تسمح لي بأن ألقي نظرة على شقة السيدة. هناك خطْب خطير، و...»

فردَّ حارس المكان بسرعة: «يمكنك أن تفعل ذلك، ما دمتُ سأبقى معك.» نهض من مكانه وتقدَّمهم متجهًا ناحية اليسار، ثم أشار إليهم ليدخلوا شقة أنيقة وأضاء المصابيح الكهربائية. وقال معلِّقًا: «لا أرى أيَّ خطْب هنا. لم يمكث الرجل هنا لعشر دقائق، ولم يكن يحمل شيئًا ثقيلًا عند رحيله، فأيًّا كان الذي أخذه، فقد وضعه في جيبه.»

نظر هيثرويك ومابيرلي حولهما. بدا كل شيء متناسقًا وفي مكانه، وكانت الأجواء المحيطة بهم تشير إلى ذوق امرأة مثقفة ومولعة بالفن، ومن الواضح أنها كانت تحب الترتيب والنظام. بالرغم من ذلك، فعلى مكتب كان في وسط غرفة الجلوس كان هناك دُرج مفتوح منه، وأمام ذلك الدُّرج كان هناك عدة أوراق متناثرة من دفتر السيدة ليستوريل الخاص وعليه كان عنوانها وشارتها محفورين. وبالقرب من تلك الأوراق كان هناك عدة مظاريف تحمل نفس العلامة. وبفكرة خطرت فجأة على باله، أمسك هيثرويك بورقة أو اثنين من تلك الأوراق وبمظروفين ووضعهما في جيبه.

وبعد عدة دقائق، وفي سيارة الأجرة التي كانت تنتظرهما وكانت تنطلق الآن في طريقها إلى شارع «هيل» حيث أمر هيثرويك سائقها بالتوجُّه، التفت مابيرلي إلى ربِّ عمله وهو يبتسم ابتسامةً ماكرة، ورفع شيئًا في مواجهة مصابيح الشارع التي كانت تمر بهم.

فسأله هيثرويك: «ما هذا؟»

أجابه مابيرلي وهو يضحك: «الأمر الذي كتبته السيدة ليستوريل. لم يلاحظ الحارس أنني أخذته، بالمظروف وكل شيء، أمام عينيه! لكنني فعلت، وها هو ذا!»

فسأله هيثرويك: «ماذا تريد أن تفعل به؟ ما خطتك؟»

لكن مابيرلي ضحِك مرةً أخرى ومن دون أن يقدِّم له أيَّ إجابه أعاد المظروفَ ذا اللون الأزرق الفاتح ومحتوياته إلى جيبه.

الفصل الثاني والعشرون

المحامي المرموق

كان اللورد موراديل الذي ظل يحافظ على عادات الريف البسيطة حتى في لندن قد خلد إلى الفراش حين وصل هيثرويك ومابيرلي إلى منزله، لكنه لم يمكث طويلًا حتى ظهر في ملابس نومه ورداء منزلي، واستمع بإمعان ولهفة إلى رواية هيثرويك عما حدث للتو.

فغمغم يقول وهو يومِئ برأسه عند كل تقدُّم في القصة: «أجبروها! أجبروها! لقد استخرجوا ذلك منها بالإجبار. هذا إن كان الأمر أصليًّا.»

أخرج مابيرلي الورقةَ التي كان قد سرقها من أمام أعين الحارس وسلَّمها إليه في صمت.

فصاح اللورد موراديل متعجبًا: «آه، هذا هو خط يد السيدة ليستوريل! إنه خط يدها بلا أدنى شك. من الصعب تقليده بالطبع. أجل، إنه خطُّها! حسنًا، هذا يثبت ما قلته للتو يا سيد هيثرويك: إنهم أجبروها! إنها تحت إمرتهم، ومعها الآنسة الشابة، الآنسة ... الآنسة ... فيذرستون، هذا أكيد، وقد أجبروها على كتابة هذه الورقة. وبعد ذلك، سيجبرونها على كتابة أمرٍ إلى «صناديق إمبريال للودائع». لا بد أن نكون هناك قبلهم. في وقت مبكر، في وقت مبكر من هذا الصباح بقدْر ما يمكننا. قابلاني عند ماذرفيلد؛ أظن أنه متحمس لذلك. ليرحمني الرب! يا لهم من مجموعة من الأوغاد! والآن أتساءل أين تكون هاتان السيدتان عاثرتا الحظ من بين لندن بأكملها؟»

فعلَّق هيثرويك قائلًا: «من المفترض أن يساعدنا كلُّ ذلك على معرفة الإجابة عن هذا السؤال على وجه التحديد. أنا لست قلقًا جدًّا على الأشياء الثمينة التي يسعى خلفها أولئك الرجال بقدْرِ ما أنا قلق على سلامة ...»

فرمقه اللورد موراديل بنظرة سريعة تنم عن تفهُّمه له.

وقال: «الآنسة فيذرستون، صحيح؟ فهمتك، فهمتك! وأنا أيضًا قلق على سلامة السيدة ليستوريل. وكما تقول، ينبغي لهذا أن يساعدنا. لكن اسمعا: ينبغي علينا أن نلزمَ الحذر، الحذر الشديد! ينبغي ألا نسمح لمادرفيلد بأن يندفع كثيرًا؛ فأنتما تعرفان كيف هم رجال الشرطة. إذا أتى أحد إلى الخزنة، فمن المرجَّح أنه سيغادرها إلى حيث أولئك المجرمون. لذا ينبغي علينا أن نتَّبعه، نتبعه فقط!»

قال هيثرويك: «أوافقك.»

فاختتم سعادة اللورد حديثه قائلًا: «إذن لنلتقي في التاسعة صباحًا عند مادرفيلد. لعلنا نحصل على رائحة قوية للطريدة، رائحة مثيرة، ولعل صيدنا يفلح!»

وبتلك العبارة الرياضية تتردَّد في آذانهم، عاد هيثرويك ومابيرلي إلى حي ميدل تيمبل واستراحا بقية الليل، فخلد أحدهم إلى الفِراش، وافترش الآخر أريكةَ غرفة الجلوس. لكن حين استيقظ هيثرويك على ساعة المنبِّه في السابعة والنصف وأطلَّ برأسه داخل الغرفة الأخرى ليوقظ موظفه، وجد مابيرلي قد اختفى. كانت الوسائد والمفارش والأغطية التي خلد إليها ليلة أمس مطوية ومرتَّبة بعناية، وفي أعلاها وجد ورقة مشبوكة بها رسالة قصيرة مكتوبة بقلم أزرق.

> لن تكون في حاجة لي هذا الصباح؛ ذهبت لأتبع فكرة مهمة واتتني. انتظر رسالة مني قرب الظهيرة.
>
> م.

غمغم في نفسه أنه لا يملك أدنى فكرة عما كان موظفه بصدده، فارتدى ثياب الخروج بسرعة، وتناول إفطاره بنفس السرعة وهُرع ليقابل مادرفيلد واللورد موراديل. فوجدهما معًا، وكان معهما فرد ثالث هادئ تبدو في وجهه الرصانة ويرتدي ملابس داكنة للغاية، وقد قدَّمه مادرفيلد على أنه الرقيب المحقِّق كويجمان. ودخل مادرفيلد في صلب الموضوع مباشرة.

فقال: «أخبرني سعادة اللورد عن مغامرتك ليلة أمس يا سيد هيثرويك، وبدأت أكوِّن بعض التنبؤات عما سيحدث على الأرجح. كان باسيفيري بالطبع هو مَن ذهب إلى شقة السيدة ليلة أمس، وهذا مؤكد. لكن لماذا ذهب في رأيك؟»

فأجابه هيثرويك وهو يرمق الآخرين: «لا يسعني القول بأنني توصَّلت إلى إجابة ذلك، لكنني أتخيَّل أنه ذهب إلى هناك لكي يحصل على مفاتيح معينة مثلًا، وذلك بعد أن

أجبروا السيدة ليستوريل على إخبارهم بمكانها. أظن أنه ذهب من أجل مفاتيح صندوق الإيداع.»

فردَّ عليه مازرفيلد وهو يهزُّ رأسه بطريقة تنم عن المعرفة وبابتسامة طفيفة لكويجمان: «لا! لا، ليس هذا هو السبب. سأخبرك بسبب ذهابه إلى هناك؛ لقد ذهب من أجل شيء بسيط للغاية. ذهب ليحصل على بعض أوراق الرسائل الخاصة بالسيدة! كان يعلم جيدًا أنه إن أراد أن يأخذ أمرًا لصندوق الودائع من شأنه أن يسمح لحامله بالوصول لخزنة السيدة، فإن ذلك ينبغي أن يكون وفقًا لما يُطلِق عليه الفرنسيون «وفقًا للمتَّبع» صحيح؟ ينبغي أن يكون الأمر مكتوبًا على ورقها الخاص وبخط يدها شخصيًّا وما إلى ذلك. فهمت الآن؟»

قال هيثرويك: «أظن أنك محق، وأظن أنه حصل على مبتغاه. كان هناك درج في مكتبها يحتوي على صناديق أدوات مكتبية، وكان الدُّرج مفتوحًا وبعض محتوياته متناثرة على المكتب. الحق أنني وضعت بعض الأوراق والمظاريف منها في جيبي، رغم أنني لم أكن أعرف لمَ فعلتُ ذلك، وها هي ذي الأوراق! راودتني فكرة مبهمة بأنها قد تفيدنا بطريقةٍ ما.»

فقال مازرفيلد مؤكِّدًا وهو ينظر في الورق الذي أخرجه هيثرويك: «في الواقع، هذه هي الخطة بالفعل. ليس لديَّ أدنى شك أن شخصًا ما يُمثِّل السيدة ليستوريل ويحمل منها تفويضًا مكتوبًا على ورقها الخاص وبخط يدها سيقدِّم نفسه إلى «صندوق إمبريال للودائع» هذا الصباح. لكن هذا الشخص لن يكون باسيفيري! ولن يكون أمبروز!»

فسأله هيثرويك: «سيكون شخصًا غريبًا، أليس كذلك؟»

أكمل مازرفيلد وهو يرمق الساعة بعينه: «سنرى. والآن سنذهب إلى مسرح العمليات. يقع «صندوق إمبريال للودائع» في كينجزواي بمدينة هولبورن، وهو موقع ملائم تمامًا لمهمتنا؛ إذ إنه قريب من محطة الأنفاق، وسيكون هناك الكثير من الناس في الأرجاء، فلن نَلفت لنا انتباه أحد. سأخبركم بالطريقة التي سيسير بها الأمر: سندخل أنا وسعادة اللورد إلى صندوق الودائع، وسنقابل المسئولين وسنشرح لهم الأمر وسنجعلهم يخبروننا في الحال إن ظهر ذلك المرسال المتوقَّع ووقت وصوله. وسنسمح له ...»

فقاطعه كويجمان بنبرة جادة: «أو لها.»

فقال مازرفيلد موافقًا: «صحيح يا صديقي؛ فربما تكون امرأة. هذا محتمل أيضًا! سنسمح له أو لها بأن يأخذ ما يريد من الخزنة ويغادر، وسنتبعه نحن الأربعة عن كثب. وفي حين أكون أنا واللورد موراديل في الداخل، ستكون أنت يا سيد هيثرويك وكويجمان

في الخارج تتحدَّثان بصورة اعتيادية. وحين نخرج بينما تراقبان رَدهة الدخول جيدًا، سنعطيكما إشارةً إلى الشخص المحدَّد الذي نتبعه، وستذهبان إلى أيِّ مكان يذهب إليه ذلك الشخص. لكن لا تقتربا منَّا؛ فسنغطي نحن أحدَ جانبي الشارع، وتغطيان أنتما الجانب الآخر. وإن أخذ ذلك الشخص سيارة أجرة أو حافلة، فسيتحتم علينا أن نفعل مثله. لكنني أعتقد أن الشخص سيلتزم بالسير!»

سأل هيثرويك: «كيف سنذهب؟ سنذهب جميعًا معًا؟ إنها مجرد فكرة واتتني يا مازرفيلد، لكن كيف ستعرف ما إن كان أولئك الأشخاص يراقبونك أنت أيضًا؛ إذ يبدو أن هناك أكثر من شخص معني بالأمر؟»

فأجابه مازرفيلد: «لقد فكَّرت في ذلك. وسنذهب فرادى. إنها التاسعة والربع الآن. و«صندوق إمبريال للودائع» لا يفتح أبوابه إلا في العاشرة؛ فلن يستطيع أحد الدخول حتى تلك الساعة على أي حال. سنخرج نحن الأربعة من هذا المكتب فرادى. وسيذهب كلٌّ منا في طريقه الخاص إلى كينجزواي. وحالما أصل إلى هناك، سأدخل مباشرة وسأطلب رؤية المدير. وسيتبعني اللورد موراديل فور أن يصل وسنجتمع معًا في غرفة المدير. أما بالنسبة إليكما، فافعلا هناك ما شئتما؛ فلتطيرا إذا أردتما، أو تجوَّلا في الشوارع الجانبية. لكنكما ستلتقيان في العاشرة تمامًا أمام باب مدخل صندوق الودائع، وتحت غطاء اللقاء والحديث الاعتيادي، راقبا الباب باستمرار ولاحظا كل شخص يدخل ويخرج. أهذا واضح؟ بعد ذلك ننسحب جميعًا؛ واحدًا تلو الآخر.»

لما صار هيثرويك في الخارج وله أن يفعل كما يريد، فقد سار قليلًا ثم أشار إلى سيارة أجرة. ابتسم له ابتسامة ودودة. وقال وهو يركب السيارة: «يمكنك أن تساعدني في قضاء أربعين دقيقة. تجوَّل في الأرجاء، في أي مكان تحب، وتجوَّل ذهابًا وإيابًا، على أن توصلني عند زاوية مطعم هيلبورن عند العاشرة إلا دقيقتين بالتمام. أفهمتني؟»

أدرك السائق غايته، وبدأ رحلة متمهلة حول عدة شوارع رئيسية وطرق عامة. وقبل العاشرة بدقيقتين توقَّف عند زاوية شارعي هولبورن وكينجزواي وابتسم إلى راكبه.

وقال: «في التوقيت بالثانية تمامًا يا سيدي.» وأشار إلى ساعة مجاورة لهما.

فقال هيثرويك وهو يعطيه مبلغًا يفوق الأجرة المطلوبة: «أحسنت يا رجل!» ثم واتته فكرة. فأكمل يقول بنبرة خفيضة: «اسمع! ربما أحتاج، أنا وشخص آخر، إلى تتبُّع شخصٍ ما من هنا، وسيكون ذلك عما قريب. فقط سِرْ بالسيارة في الشارع هنا، وأبقِ رايتك منخفضة، وانتظر، وإن أردتك فسأكون بجوارك.»

عبَّر السائق عن فهمه بإيماءة وغمزة من عينه ثم تحرَّك بالسيارة قليلًا نحو رصيف الشارع. وراح هيثرويك يسير ببطء في الجانب الغربي من شارع «كينجزواي». وحين دقَّت الساعة معلنةً تمام العاشرة رأى اللورد موراديل يأتي من أحد الاتجاهات ويدخل مبنى «صندوق الودائع» مهيب المظهر، والذي كان قد فتح أبوابه للتو، ورأى ماذرفيلد يظهر من الجانب الآخر، وحين نظر حوله مرة أخرى تعرَّف على كويجمان الجاد عند زاوية شارع «باركر» وهو آتٍ نحوه. فذهب هيثرويك للقائه.

وتحسُّبًا لوجود أيِّ عيون معادية تراقبه قال بأداء تمثيلي بعض الشيء: «ها أنت ذا! في موعدك بالضبط! من الأفضل أن نبدو وكأننا نتجاذب أطراف الحديث، أليس كذلك؟ لقد دخل الآخران لتوهما.»

فأجابه كويجمان وهو يتوقَّف على الرصيف، بينما كان اهتمامه منصبًّا على كل شيء آخر عدا المهمة التي كان يؤديها فعلًا: «رأيتهما يا سيدي. آه! لكن السؤال هو: متى سيخرجان؟ قد يكون ذلك بعد بضع دقائق مثلًا. وربما يستغرقان عدة ساعات طويلة!»

علَّق هيثرويك على حديثه قائلًا: «يبدو أنك سوداوي بعض الشيء.»

فغمغم كويجمان: «هذه مهمة سوداوية! المراقبة ليست مجالي في العمل. لكن ماذرفيلد أرادني أن أشترك في هذه المهمة تحديدًا.»

سأله هيثرويك: «لماذا؟»

فأجاب كويجمان: «لديَّ معرفة فريدة بالمحامين وموظفيهم في هذا الجزء من لندن. ذلك هو مجالي في العمل. ويعتقد ماذرفيلد أنَّ محاميًا هو مَن سيقدِّم أمرَ فتح الخزنة.»

فقال هيثرويك متعجبًا: «يا إلهي! أحقًّا؟ يا للعجب! لكن ...»

فأشار كويجمان قائلًا: «سيكون عونًا كبيرًا لأولئك الرجال إذا تمكنوا من استخدام محامٍ للقيام بهذه المهمة بدلًا منهم، ألا ترى ذلك؟ فمن ذا الذي سيشك في محامٍ بالمحكمة العليا؟» وأكمل يقول فجأة: «وحيث إنني أعرفهم جميعًا تقريبًا، فهناك واحد أعرفه آتٍ من الجانب الآخر من الشارع. ذلك الشاب الطويل النحيف ذو الوجه الشاحب، أتراه؟ انظر إليه من دون أن يبدو عليك أنك تنظر. أهو يا تُرى الشخص المنشود؟»

نظر هيثرويك إلى الاتجاه الذي أشار إليه. فرأى شابًّا يافعًا يرتدي نظارة وقبعة حريرية ومعطفًا صباحيًّا وإضافات أخرى من الملابس تتماشى مع مهنته، وكان يسير بسرعة من جنوب الشارع إلى شماله. كان يبدو كشخص لطيف دمث، وليس كأحد الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا ضالعين في مؤامرات خبيثة وغايات غامضة، فذكر هيثرويك ذلك.

فقال كويجمان بنبرة كئيبة: «أجل، لكن في الواقع، ما يدريك! بيْدَ أنني أعرفه كما أخبرتك. السيد جارويل: السيد أوكتافيوس جارويل، محامٍ يقطن في شارع «سانت مارتن». يمارس المهنة منذ أربع سنوات تقريبًا. إنه شاب لطيف! وهادئ. وها هو ذا يدخل، أتراه؟»

نظر هيثرويك باتجاهه. كان هناك العديد من الأشخاص، رجالًا ونساءً، يدخلون إلى صندوق الودائع، لكنَّ قبَّعَةَ السيد جارويل الحريرية وكتفَيه المتحدرتين جعلت تمييزه سهلًا.

فعلَّق كويجمان وهو يتنهَّد: «يسعني القول إنه هو!» ثم أردف يقول: «إنه من نوعية الأشخاص الذين يمكن خداعهم! رجل بريء وغير متشكك. لكن ربما لا يكون هذا صحيحًا. فالكثير من الأشخاص يستخدمون صناديق الودائع في هذه الآونة.»

اختفى السيد جارويل. وراح المراقبان ينتظران. مرَّت خمس دقائق، وعشر، وخمس عشرة دقيقة، وعشرون، ثم خرج السيد جارويل. خرج مثلما يخرج أيُّ رجل بعد أن أتم عمله، خرج في هدوء. لم يتبعه أحد، ولم يبدُ أن هناك مَن يراقبه، من داخل صندوق الودائع. لكن هيثرويك لاحظ في الحال أنه خرج الآن وهو يحمل صندوقًا مربَّعًا صغيرًا مغلفًا بالجلد في حين أنه دخل ولم يكن يحمل شيئًا سوى مظلته. وبذلك الصندوق في يده اليُسرى عبر جارويل الطريق وتقدَّم مباشرة نحو هيثرويك وكويجمان.

فهمس المحقِّق قائلًا: «لسنا في حاجة لأن نتحرك يا سيدي. حاول أن تتابعه بعينك دون أن تَلفت الانتباه.»

بدا السيد جارويل عن كثب، شارد الذهن. بالرغم من ذلك، فقد تصادف أنه رفع نظره بينما كان يضع أولى خطواته على الرصيف، فالتقت عينه بعينَي كويجمان الذي لامس قبَّعته.

فقال المحقِّق: «صباح الخير يا سيد جارويل. عساه صباحًا جميلًا يا سيدي.»

فأجابه جارويل: «صباح الخير يا كويجمان. عساه صباحًا جميلًا!»

أومأ وهو يبتسم وأكمل طريقه، ثم استدار عند زاوية الشارع ودلف إلى شارع «باركر». نظر كويجمان إلى هيثرويك وهزَّ رأسه.

وقال: «ليس هو! ماذرفيلد لا يتبعه. وكما قلت، قد نضطر للانتظار لساعات طويلة!»

لكن بعد مرور عشر دقائق أخرى خرج ماذرفيلد وموراديل معًا من رَدهة الدخول المواجهة لهما. وكان هناك مسئول من المكان يتحدَّث إليهما ويبتسم وهو يصحبهما حتى

عتبة الباب، وحين تركاه عبرا الشارع مباشرةً. فكان من الواضح لهيثرويك أن كلًّا منهما كان في حالة من الذهول، بل ربما في حالة من الحيرة. حيَّاهما ماذرفيلد فور أن أصبح على مسافة من مسامعهما.

وقال: «إنها مسألة غريبة! أرأيتم شابًّا يبدو أنه موظَّف محترف يخرج الآن ويحمل صندوقًا مغلفًا بالجلد؟»

فأجاب كويجمان: «رأينا السيد جارويل، وهو محامٍ من شارع «سانت مارتن». إنني أعرفه. ذهب يسير في شارع «باركر».»

فقال ماذرفيلد مقرًّا: «كان جارويل، أنا أيضًا أعرفه.» ثم التفت إلى هيثرويك وقال: «في الواقع، هذه مسألة غريبة. إنهم يعرفون جارويل في صندوق الودائع، لقد أتى إلى خزنة السيدة ليستوريل بناءً على أمرٍ منها من قبل. لقد دخل إلى هناك الآن، ومعه التفويض المعتاد، على ورقها الخاص، وذهب إلى الخزنة، وحصل على الصندوق الصغير، وخرج. جارويل أحد المحامين الجديرين بالكثير من الاحترام!»

فسأله هيثرويك: «لماذا لم توقفه وتطرح عليه بعض الأسئلة؟»

تبادل ماذرفيلد النظرات مع اللورد موراديل.

وقال: «ليس هناك! يبدو ... في الواقع، يبدو أن السيدة ليستوريل قد أرسلته بالفعل! لإنجاز عمل خاص بها.»

فقال هيثرويك متعجبًا: «بالطبع أرسلته! تحت وطأة الإكراه! الأمر برُمَّته مكيدة حاذقة! الأرجح أن أولئك الرجال يعرفون أنها كانت تستعين بخدمات جارويل بين الحين والآخر، وأجبروها على كتابة خطابٍ له، مخولةً إياه أن يأتي إلى هنا مرةً أخرى، ويحتوي ذلك الخطاب على أمر للمسئولين في «صندوق الودائع»! ألا ترى ذلك؟»

قال اللورد موراديل: «يا إلهي، ثمَّة خطْب بخصوص هذا الشأن يا ماذرفيلد! لكن هذا لم يخطر ببالي! أقسم بشرفي، كنت أظن حقًّا أنه أتى بناءً على أمرٍ مباشر منها. لم أستطِع أن أفكِّر في سببِ ذلك على وجه التحديد، لكن مثلما يقول ماذرفيلد، إنه محامٍ جدير بالكثير من الاحترام، أليس كذلك؟»

فصاح ماذرفيلد فجأة: «سنسوِّي الأمر عما قريب! سنذهب إلى مكتب جارويل. من الأفضل أن نناقش المسألة هناك بدلًا من أن نتطرَّق لها هنا. على أي حال، سيكون معه الصندوق المربَّع. أشرْ إلى سيارة أجرة يا كويجمان!»

قال هيثرويك: «ثمة رجل ينتظرني هنا.» وأشار إلى سائقه السابق الذي أتى مسرعًا. وأكمل يقول بينما كان أربعتهم يتخذون مجلسهم والسيارة تنطلق بهم: «على الرغم من

أي شيء نعرفه، ربما يكون جارويل قد غادر مباشرة إلى مكانٍ ما ليسلِّم ذلك الصندوق! كان علينا أن نتبعه.»

فأجاب ماذرفيلد: «لا أظن ذلك. الأمر برُمَّته غريب ولم يكن كما توقعته مطلقًا. يقول اللورد موراديل إنه لم يسمع من قبلُ أن السيدة استعانت بخدمات جارويل، لكن المسئولين في «صندوق الودائع» يقولون إنه أتى مرتين أو ثلاثًا من قبلُ لأغراضٍ لها. لكننا سنحصل على الإجابات بعد قليل.»

الفصل الثالث والعشرون

صاحبة العقار في شارع «ليتل سميث»

تبيَّن أن مكتب جارويل يقع في الطابق الثاني في شارع «سانت مارتن». كان الدَّرج مظلمًا وباليًا ولم يلحظ واحد من الأربعة الذين يصعدونه أنَّ ساعي مكتب كان يُهرع نازلًا على الدَّرج في اندفاع، وأنه كان يحمل معه طردًا صغيرًا خرج به من الباب مسرعًا وسار به في الشارع. كان الأربعة يفكِّرون بالطبع في جارويل، وفي غضون خمس دقائق كانوا جميعًا في غرفته الخاصة. ولمدة خمس دقائق أخرى، راح ماذرفيلد يشرح الأمر على مسامعه، ومن الواضح أنه كان مذهولًا ومشدوهًا.

اختتم ماذرفيلد حديثه قائلًا: «هذا هو الوضع الآن، ولا شك أن لديك تفسيرًا يا سيد جارويل. والآن ...»

فبادره المحامي قائلًا: «لكنكم فاجأتموني! لقد استعانت السيدة ليستوريل بخدماتي في أمرين أو ثلاثة؛ إذ أحضرت لها من قبل أشياء من خزنتها مرتين أو ثلاثًا. ولم أرَ أيَّ شيء مثير للريبة في خطابها الذي أرسلته لي صباح اليوم. ها هو ذا الخطاب! يمكنكم الاطلاع عليه. ورقُها الخاص المعتاد، وخط يدها بكل تأكيد، وأعتقد أنه ما من أحد قد ينجح في تقليد هذا الخط. أنتم ترون ما تقوله في الخطاب، كان من المقرَّر أن أذهب بالتفويض إلى المسئولين في صندوق الودائع وأُخرِج صندوقًا صغيرًا مربَّع الشكل مغلَّفًا بغلاف جلدي بلون بني من الخزنة ثم أرسله في الحال إلى السيد سي بيسنج في مكتب البريد، في ساوثامبتون باستخدام البريد السريع. ما من شيء غريب في كل ذلك. وقد نفَّذت لها رغبتها بالطبع. لكن اطَّلِعوا على الخطاب.»

كان الرجال الأربعة يطالعون الخطاب. وقد وجدوه على النحو الذي وصفه جارويل، وسواء ما إذا كان مكتوبًا تحت وطأة الإكراه أم لا، فإن أسلوب الكتابة كان حازمًا ومباشرًا. لكن ماذرفيلد أمسك بالخطاب، وبعد أن طالعه بتمعنٍ أشار إلى ختم البريد.

فصاح يقول: «أترون هذا! أُرسِل من حي إس دبليو، في وقتٍ متأخر من ليلة أمس. إن كانت السيدة ليستوريل في منزلها في بادينجتون لكان ختم البريد مختلفًا. لكن الصندوق المربَّع الصغير يا سيد جارويل! الصندوق معك بالطبع، أليس كذلك؟ أتعرف أن هذا الصندوق يحتوي على الأرجح على مجوهرات بقيمة ...»

فهتف جارويل: «الصندوق؟ معي؟ بالطبع لا! لقد أرسلته! ذهب ساعي المكتب به إلى مكتب البريد، قبل أن تصلوا تمامًا.»

غمغم اللورد موراديل: «يا إلهي! حسنًا؛ سنذهب إلى مكتب البريد في الحال يا ماذرفيلد!»

لكن ماذرفيلد ضحك فجأة، وأشار بكلتا يديه وكأنه قد نزل عليه الإلهام فجأة.

وقال: «لا يا سيدي اللورد، لا! لا! سيكون الصندوق آمنًا بما يكفي في مكتب البريد. سوف يُرسَل إلى السيد سي بيسنج في مكتب البريد في ساوثامبتون. وحين يذهب السيد بيسنج ليحصل عليه، حينها سيجدني أنا!»

كانت النبرة التي تحدَّث بها ماذرفيلد تنم عن قناعة بالظفر والانتصار، وبدا دافعه الشديد لاتخاذ إجراء فوري في طريقة إخراجه لكتيب إرشادي لخطوط السكة الحديد من جيبه، وتقليب صفحاته بسرعة. غير أنَّ هيثرويك واللورد موراديل كانا ينظران كلٌّ منهما إلى الآخر. ورأى كلٌّ منهما أن الآخر كان مترددًا.

فقال اللورد موراديل ببطءٍ: «أجل، أممم، لا شك يا ماذرفيلد. لكن في رأيي أنَّ هذه الجواهر لا تُقدَّر بثمن! ربما كانت الجواهر في مأمن في أيادي سلطات البريد؛ إذ إنها هناك الآن، لكن لا أحد يدري ما قد يحدث كما تعلم، و...»

فأشار هيثرويك قائلًا: «يمكنك أن تضع ثقتك في سلطات البريد. فهؤلاء الأشخاص يعرفون كل أنواع الحيل الماكرة ...»

حينها راح ماذرفيلد يضحك في هدوء. كانت ضحكة رجلٍ يعرف ما يفعل جيدًا، ولا يُطيق النقد من أحد.

وأجابهم قائلًا: «أنا أعرف ما أفعل أيها السادة. اتركوا لي شأن التعامل مع المسئولين في مكتب البريد. يمكنني أن أفعل ما يضع الأصفاد في يد باسيفيري أو أمبروز، أو ربما في يد كليهما!» ثم أكمل يقول وهو ينظر للمرة الأخيرة إلى الجدول في يده: «إنني أرى الأمر بالشكل الآتي. هذان الرجلان يحتجزان السيدة ليستوريل والفتاة السكرتيرة الشابة في مكان آمن في لندن. وقد أجبرا السيدة ليلة أمس على كتابة هذا الخطاب إلى السيد جارويل،

ونحن نعرف ما أجبراها على كتابته. بعد ذلك، حصل السيد جارويل على الصندوق الصغير الذي يحتوي على الجواهر، وقد أرسله بالفعل إلى ساوثامبتون عن طريق البريد السريع. وسيصل الصندوق الصغير إلى هناك في وقت مبكر من مساء اليوم، وسيكون أحد هذين الرجلين هناك ليتسلَّمه. فلو ذهب باسيفيري، سيكون أمبروز منتظرًا إياه عند إحدى زوايا الشارع، وإن ذهب أمبروز ليتسلَّمه، فسيكون باسيفيري في الجوار. والأرجح أنهما الآن في ساوثامبتون بالفعل؛ سيكونان قد ذهبا هذا الصباح من أجل أن يكونا حاضرين وقت وصوله. وفور أن يحصلا على الصندوق، سيهربان إلى أوروبا على الأرجح عن طريق القطار من ساوثامبتون إلى هافر. لن يحاولا الهروب عبر المحيط؛ فسوف تمثِّل رحلة الأيام الخمسة مخاطرة كبيرة. بعد ذلك، سيتجهان إلى فرنسا. لكنهما لن يذهبا إليها؛ إذ سيجدان نفسيهما في السجن في ساوثامبتون قبل موعد خلودهما إلى النوم! سترون أن هذا هو ما سيحصل أيها السادة، وأنا متأكد من ذلك بقدْرِ ما أنا متأكد من اسمي. والآن يا كويجمان، ستأتي معي. لدينا ما يكفي من وقتٍ لنلحق بقطار الواحدة والنصف ونتواصل مع شرطة ساوثامبتون ونضع خططنا وترتيباتنا. ستتلقون أخبارًا مني أيها السادة في وقتٍ ما من مساء اليوم!»

بعد ذلك، استحثَّ ماذرفيلد كويجمان على المغادرة، وراح الرجال الثلاثة الباقون ينظرون بعضهم إلى بعض. كان من الواضح أن السيد جارويل شديد القلق، فكانت يده النحيفة المضطربة ترتجف حين بدأ يرتِّب الأوراق الموجودة على مكتبه.

وقال: «هذا أمر مزعج للغاية أيها السادة. من المؤلم كثيرًا لي أن أرى أنني كنت أداة في جريمةٍ بهذا الشكل، وإن كنت بريئًا! لكن أنَّى لي أن أعرف أن السيدة ليستوريل كانت مجبرةً على كتابة هذا الخطاب؟ ففي ظاهر الأمر ...»

فقاطعه اللورد موراديل قائلًا: «حسنًا، ليس هناك لائمة تُلقى عليك يا سيد جارويل! فالخطاب في ظاهر الأمر غير زائف. لكنني أردت أن أسألك سؤالًا: ماذا تعرف عن السيدة ليستوريل؟ أقصد، كم مرة استعانت بخدماتك؟»

فأجابه جارويل: «مرتان أو ثلاث فقط. لقد أتت إليَّ أول مرة بشأن اتفاق كان عليَّ أن أرسله إليها نيابةً عن موكِّل آخر. وقد بدت حينها ودودة للغاية، ولطيفة جدًّا لتقول إنها ستتذكَّر الاستعانة بخدماتي في المرة التالية التي تكون فيها في حاجة إلى إنهاء أعمال قانونية؛ إذ ليس لها محامٍ محدَّد تتعامل معه بصفة منتظمة.» ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامةً لا تخلو من التحسُّر: «أظن أنها رأت أنني كنت في بداية العمل، ولم يكن لديَّ أعمال كثيرة.»

فقال اللورد موراديل وهو ينظر حوله إلى أثاث المكتب المتواضع: «فهمت. وكم مرةٍ ذهبتَ إلى مؤسسة «صندوق الودائع» تلك نيابةً عنها؟»

«مرتان. وفي كلتيهما كانت السيدة ليستوريل قد أرسلت إليَّ بالتعليمات من خارج البلاد. ففي إحدى المرات كانت في باريس. والأخرى كانت في نيس. وكانت التعليمات متشابهة في كلتا المناسبتين: كنت أذهب إلى صندوق الودائع وأحصل على طرد أو غرض معيَّن وأرسله إلى عنوان تعطيه لي. في المرة الأولى أرسلت طردًا صغيرًا إلى أمستردام، ولديَّ العنوان والاسم بالضبط، وفي المرة الثانية أرسلت الطرد إلى نيويورك. لذلك حين وصلني خطاب السيدة ليستوريل صباح اليوم، لم أرَ فيه بالطبع أيَّ شيء غير عادي.»

فقال اللورد موراديل موافقًا إياه: «بالطبع! لم تكن لتعرف شيئًا. في الواقع، آمل أن يضع ماذرفيلد الأصفاد في أيدي هذين الرجلين اللذين أجبراها على كتابة الخطاب! أليس كذلك يا هيثرويك؟»

فردَّ عليه هيثرويك: «آمل ذلك من كل قلبي! لكنني أيضًا أريد أن أطرح سؤالًا على السيد جارويل.» وأكمل يسأله: «كم مضى على وجودك هنا في شارع «سانت مارتن»؟»

أجابه جارويل: «حسنًا، أربع سنوات أو خمس.»

«إذن أنت تعرف هذا الحي جيدًا بالطبع. فهل صادفت رجلًا سأحاول أن أصفه لك؟» وأردف يعطي وصفًا دقيقًا لباسيفيري، وإن كان موجزًا. واختتم حديثه قائلًا: «يُرى ذلك الرجل في الأرجاء هنا في بعض الأوقات.»

فأومأ جارويل.

وقال: «أنا أعرفه! في الواقع، لقد كان في هذه الغرفة بالتحديد؛ يريد لقائي. لكنني لا أعرف اسمه، ولا أعرف الكثير عنه. كان رجل آخر قد أحضره إلى هنا ولم يمكث سوى بضع دقائق.»

فسأله هيثرويك: «ماذا تعرف عنه، حتى ولو كان أقل القليل؟»

«أعرف عنه الآتي. لعلك تعرف أن الأشخاص الذين يخترعون أشياء يأتون إلى المحامين من أجل الحصول على استشارات قانونية، وفي بعض الأحيان من أجل الحصول على معلوماتٍ فيما يتعلَّق بأفضل طريقةٍ لبيع اختراعهم. وقد أتاني رجلٌ قبل تسعة أشهر يدَّعي أنه اخترع زجاجة تقطير؛ أي زجاجة يمكنك أن تقطِّر بها قطرةً واحدة بقطرة واحدة مما بداخلها. وقال بأن هناك حاجة كبيرة لشيء من هذا القبيل، وأن هذا الاختراع من المفترض أن يدرَّ أموالًا كثيرة. وكان يريد أن يعرف أفضل طريقة لطرحه في الأسواق. ولم تكن لديَّ معرفة بذلك، لكنني ذكرت الأمر لبعض الأشخاص، فقال رجل أعرفه — أو

كنت أعرفه حينها؛ إذ مات للأسف — بأنه يعرف رجلًا يعمل وسيطًا تجاريًّا للاختراعات، كان يأخذ الأفكار ويقدِّمها كما تعرف، ووعد بأنه سيُحضِر الرجل للقائي. وقد أحضره، وكان الرجل الذي أحضره هو الذي وصفته أنت بلا شك. لم يُذكر اسمه، لكنني واثق أنه ذلك الرجل. ولا أعرف مهنةَ ذلك الرجل الذي وصفته، لكنني كنت شبه متأكد من أن الرجل الذي أتحدَّث أنا عنه يعمل طبيبًا، أو كان يعمل طبيبًا فيما سبق.»

صاح هيثرويك متعجبًا: «آه! ما حملك على أن تظن ذلك؟»

«من محادثته؛ من التعليقات والملاحظات التي ذكرها عن الزجاجة. لم يأخذها؛ إذ قال إن موكلي قد تأخَّر كثيرًا، وإنَّ معلوماته عن الصفقة خاطئة؛ إذ كان هناك شيء آخر مماثل لتلك الزجاجة في السوق بالفعل وبجودة أفضل. غادر حينها، وكما قلت، لم أعرف اسمه أبدًا ولم أرَه مرة أخرى.»

قال هيثرويك: «هذا هو الرجل الذي نبتغيه! لو يتمكَّن ماذرفيلد من إلقاء القبض عليه! لكننا سنعرف المزيد بحلول الليل.»

وفي الخارج، التفت هيثرويك إلى اللورد موراديل وهو يهزُّ رأسه.

وهتف قائلًا: «لم نقترب من معرفة مكان السيدتين بأي شكل!»

فأجابه اللورد موراديل: «حسنًا، لا أعرف! أظن أننا اقتربنا. ذلك أنه إذا تمكَّن ماذرفيلد من اعتقال هذين الرجلين، أو واحد منهما حتى، فسيرى أحدهما أو كلاهما أن اللعبة قد انتهت، وسيستسلمان ويعترفان بمكان أسراهما. يا له من أمر غريب يا هيثرويك، أن يتم اختطاف أشخاص وحبسهم في وضح النهار في لندن!»

فأجابه هيثرويك باقتضاب: «لا أظن أن هناك شيئًا مستحيلًا أو غريبًا في لندن. لو كان لدينا أدنى فكرة عن الحي الذي توجَّهت إليه تلك السيارة، لكنا تمكنَّا من فعل شيء!»

فردَّ عليه اللورد موراديل باقتضاب مماثل: «يوجد الكثير من الأحياء الفرعية في كل حي، وأحياء فرعية أخرى في كل حي فرعي. يستغرق تمشيط هذه المدينة وقتًا طويلًا! لا! أظن أن علينا أن نثقَ بماذرفيلد. في الحق أنه ليس لدينا شيء آخر يمكن أن نضع ثقتنا فيه.»

لكن هيثرويك تذكَّر مابيرلي فجأة. وبدأ يفكِّر فيما كان موظفه يسعى إليه، وخطته من وراء ذلك. وتذكَّر تنبيه مابيرلي له بأن ينتظر منه رسالة في ذلك الوقت، وبعد أن استأذن اللورد موراديل ليغادر، قفز إلى إحدى الحافلات وذهب إلى حي تيمبل. وهناك في صندوق المراسلات، وجد برقية:

قابلني في فيكتوريا في الثالثة. مابيرلي.

انطلق هيثرويك إلى فيكتوريا من فوره. لكن الساعة كانت لا تزال الثانية والربع حين وصل إلى هناك، وحيث إنه لم يكن قد تناول غداءه بعدُ، دلف هيثرويك إلى المطعم. وهناك، وحيث كان في منتصف وجبته، وجده مابيرلي فجلس في كرسي بجواره قبل أن يلحظ هيثرويك وجوده.

قال مابيرلي: «خمَّنت أنني قد أجدك هنا يا سيدي.» كان الرجلان وحدهما في زاوية هادئة، لكن الموظف أخفض صوته حد الهمس. وأكمل يقول وهو يميل على الطاولة: «في الواقع، لقد قمت بشيءٍ ما، على أي حال.»

سأله هيثرويك: «ماذا تعني؟»

أخرج مابيرلي من جيب صدره بعض الأوراق، واختار من بينها مظروفًا؛ ذلك المظروف ذا اللون الأزرق الفاتح الذي كان قد أخذه من فوق طاولة الحارس في «سانت ماريز مانزيونز».

وقال بابتسامة خفيفة: «أتميِّز هذا؟ أنت تعرف مصدر حصولي عليه. هذا هو المظروف الذي أخذه باسيفيري إلى الحارس، وكان به أمر دخوله إلى شقة الليدي ليستوريل. كما تعرف أنني أخذته من أمام عيني الرجل ليلة أمس. لكنك لم تعرف لماذا فعلت ذلك. لقد ضحكتُ فقط حين سألتني.»

فسأله هيثرويك: «حسنًا، لماذا إذن؟»

أجابه مابيرلي: «لهذا السبب، كلانا لاحظ أن الورقة التي كتبت السيدةُ الأمرَ عليها كانت قد قُصَّت، وأنَّ عنوانًا منقوشًا أو مطبوعًا قد قُصَّ منها دون شك، وبطريقة غير متقنة أيضًا. أقول إن كلينا لاحظ ذلك. لكنني لا أظن أنك لاحظت شيئًا أكثرَ أهمية بكثير — بكثير جدًّا — شيئًا ذا صلة بغايتنا.»

قال هيثرويك مقرًّا: «لا، لم أفعل. ما هو؟»

فقال مابيرلي وهو يقلِّب لسان المظروف المقطوع: «هذا. لم تلحظ أنَّ اسم بائع هذه الأدوات وعنوانه مكتوبان هنا على المظروف! الاسم: دبليو إتش كالكن، والعنوان: ٨٥ برودواي، ويستمنستر. أنت لم ترَ ذلك يا سيد هيثرويك، لكنني رأيته!»

بدأ هيثرويك يستوعب الأمر. وابتسم، مقرًّا بالامتنان.

وهتف يقول: «هذا ذكاء منك يا مابيرلي! لقد فهمت! وهل ذهبت إلى هناك؟»

فأجابه مابيرلي: «ذهبت إلى هناك. ورأيت فرصةً لتعقُّب هذين الرجلين. لم أتمكَّن من العثور على كالكن إلا حين اقترب وقت الظهيرة، لكنني كنت مشتعلًا من الحماسة

حين عثرت عليه.» ثم أردف يقول: «أترى، أولًا: تلك الورقة ذات صبغة لونية غير معتادة. وثانيًا: جودتها فائقة ومميزة، رغم أنها في غاية النحافة؛ إذ إنها مصنوعة بشكل رئيسي للمراسلات الخارجية. وثالثًا: ثمنها مرتفع. والآن، كنت أشعر بشكل شبه مؤكَّد أن استخدامها محدود، وما أردت معرفته من بائع الأدوات المكتبية هو الشخص الذي باعها إليه. وكان ذلك سهلًا. تعرَّف الرجل على الورقة والمظروف في الحال. أما عن خط اليد المكتوب على الورقة، وهو خط السيدة ليستوريل كما تعلم، فقال إنه لم يرَه قط. لكنه قال إنه باع تلك الورقة والمظروف بعينهما إلى ثلاثة أشخاص، وكان قد أعدَّ لكل شخص منهم قالبَ سبك لينقش به العنوان. وقد تمَّت عملية النقش في متجره، وقد أراني عينات من كلٍّ منها. كانت إحداها للأرملة الليدي ماركنتري التي تقطن في ١٢٠ «جروسفينور جاردنز». وكان ذلك دون جدوى. أما الثاني فكان للآنسة تشيلاندري التي تقطن في ٨ شارع «إيبوري». ولم تكن هناك جدوى من ذلك أيضًا. لكن الشخص الثالث الذي بِيعت له تلك الأدوات كان هو مَن أريد. كان العنوان هو ٥٦ شارع «ليتل سميث»، إس دبليو، ١. وفور أن رأيت العنوان، عرفت أنني على الطريق الصحيح.»

فقال هيثرويك: «أكمل!»

فأكمل مابيرلي يقول: «لم يعرف البائع كالكن اسم الرجل الذي طلب هذه الورقة وقدَّم ذلك العنوان. لكنه كان يعرفه بما يكفي كزَبون لديه، فوصفه لي. كان هو باسيفيري بلا أدنى شك! ويقول كالكن إن باسيفيري اشترى منه خلال الشهور القليلة الماضية عدة أدوات مكتبية تتنوَّع بين الدفاتر وورق النسخ، ومستلزمات المكاتب وما إلى ذلك. لم يكن كالكن يعرف اسم زبونه قط، لكن لأنَّ الرجل كان يشتري كلَّ تلك الأشياء ويدفع لقاءها نقدًا، فلم يكن ذلك مهمًّا. لقد باعه كالكن عشر رزم من هذا الورق والظرف قبل شهرين. هذا هو ما عرفته! لقد ذهبت إلى هناك، وقد تأكدت أخيرًا من أن مكان اختباء باسيفيري السري يقع في العنوان: ٥٦ شارع «ليتل سميث»!»

قال هيثرويك: «جيد، جيد! ماذا بعد؟»

فأجابه مابيرلي وهو يبتسم: «حسنًا، رأيت أننا يمكن أن نستفيد من بعض المساعدة. لذا فقد تركت كالكن، بعد أن تعهَّد بالحفاظ على السرِّية بالطبع، واتصلت بإيسي جولدمارك. إيسي هو الشخص المناسب تمامًا لمثل هذه المطاردات! فأتى إيسي، وأخذت معه جولةً في الأرجاء. أتعرف شارع «ليتل سميث»؟»

فأجابه هيثرويك: «لا أعرفه. لم أسمع به من قبل!»

قال مابيرلي: «حسنًا، إنه شارع فحسب. وهو يقع بين شارعي «جريت سميث» و«تفتون»، خلف مقر كنيسة «تشرش هاوس»، وليس ببعيد عن كنيسة «آبي». عشوائي بعض الشيء ذلك الحي وكذلك ما حوله، إنه أحد الأحياء الذي شهد أيامًا أفضل بلا شك. بالرغم من ذلك، توجد به بيوت جيدة في بعض المناطق، والمنزل رقم ٥٦ واحد منها. من الخارج، يبدو أنَّ الدخول إلى المنزل صعب؛ فهو مظلم وهادئ ونوافذه مغطاة بستائر ثقيلة، إنه من نوعية المنازل التي يمكنك أن تقتل أحدًا فيها بكل هدوء. بابه الأمامي قوي ومتين لونه أخضر داكن، به مطرقة نحاسية عتيقة الطراز، هذا هو المنزل. لقد فحصناه جيدًا.»

فسأله هيثرويك: «هل رأيت أيَّ شيء؟»

أجابه مابيرلي: «لا شيء أكثر مما أخبرتك به؛ فالمكان يبدو مقفرًا. ومع ذلك، فبعد أن رأيته مرة، لم أكن لأتركه من دون مراقبة؛ لذا عيَّنت إيسي لمراقبة المكان، من نافذة شباك حانة عامة، وذهبت لأبعث لك برقية. إيسي هناك الآن، إما في الحانة أو يتجوَّل في الأرجاء. والآن علينا أن نذهب لنرى إن كان لديه أية مستجدات. وإن لم يكن لديه مستجدات؛ فماذا بعد؟»

قال هيثرويك: «بالضبط، هذا هو السؤال: ماذا بعد؟ لكن قبل أن نفعل أيَّ شيء على الإطلاق يا مابيرلي، من الأفضل أن أُطلِعك على ما حدث في مكانٍ آخر هذا الصباح.» وبعد أن انتهى من سرده، تابع قائلًا: «إذا كانت نظرية ماذرفيلد صحيحة، وذهب باسيفيري بالفعل إلى ساوثامبتون ليحصل على الطرد لدى وصوله، وإذا كان أمبروز قد ذهب معه، فلن نجد باسيفيري في هذا العنوان. لكن، يمكن لنا أن نستفسر عما إذا كان معروفًا هناك، أم لا.»

راح مابيرلي يفكِّر برهةً. ثم بدا أنَّ ثمة فكرةً تطرح نفسها أمامه.

فقال: «ادفع فاتورتك يا سيدي، ولنذهب إلى «دليل مكتب البريد» القريب منا. سنحصل على اسم ساكن المنزل رقم ٥٦ من شارع «ليتل سميث».»

وفي غضون عشر دقائق كانا ينظران إلى أعمدة الأسماء الطويلة في الدليل، ثم أشار مابيرلي فجأة إلى ما كانا يريدان.

فقال: «ها هو ذا ما نبحث عنه! السيدة هانا ماليت، مالكة نُزُل.»

قال هيثرويك: «هيا بنا! سنذهب لرؤية السيدة ماليت على أي حال.»

عند وصولهما إلى شارع «ليتل سميث»، نظر مابيرلي حوله أولًا بحثًا عن صديقه السيد جولدمارك. وفجأة حضر السيد جولدمارك، من العدم على ما يبدو، وابتسم.

وقال في أدب إلى هيثرويك: «طابت ظهيرتك يا سيدي! الطقس جميل، صحيح؟ لم أرَ شيئًا يا مابيرلي، أيها الصديق القديم! لم يخرج أحد من ذلك المنزل أو يدخل إليه منذ أن غادرتَه! يبدو لي أن المكان موصد.»

علَّق هيثرويك قائلًا: «سنرى بخصوص ذلك. تعالَ معي يا مابيرلي. امكث أنت هنا يا جولدمارك. وابقَ منتبهًا كما كنت من قبل.»

ثم تقدَّم بشجاعة وخلْفه موظفه نحو باب المنزل رقم ٥٦، وراح يطرق بصوتٍ عالٍ على اللوح السميك، ودعَّم ذلك بدق الجرس. تكرَّر ذلك الأمر مرتين، من دون نتيجة.

همس مابيرلي فجأة: «هناك شخص آتٍ! المكان موصد بالمزلاج ومغلق بالمفتاح من الداخل!»

تمكَّن هيثرويك من تمييز صوت مزلاج قويٍّ يُسحَب، ثم سمع صوت التفافةِ مفتاح. فُتح الباب شيئًا قليلًا لكنه كان كافيًا لأن يروا منه وجه امرأة وجسدها؛ كانت المرأة ضخمة بشكل غير عادي، ومظهرها يوحي بأنها أمازونية، ولها عينان وشفتان قويتان، وكانت تحدِّق فيهما بارتياب، وفور أن أدركت وجود اثنين من الطارقين، قامت بتضييق المساحة التي كانت تنظر من خلالها إلى زائرَيها. لكن هيثرويك وضع يده على الباب وقدَمه على عتبته.

وتساءل بصوتٍ عالٍ عن عمد: «السيدة ماليت؟ هذا أنتِ! هل الدكتور باسيفيري بالداخل؟»

كان الرجلان ينظران إلى المرأة في ترقُّب، ورأيا أنها فُوجئت بعض الشيء وبصورة لا إرادية. لكنها هزت رأسها نافية بحسم.

وأجابت: «لا يوجد أحد بهذا الاسم هنا!»

كانت المرأة ستغلق الباب، لولا قدَم هيثرويك، التي مدَّها إلى مسافةٍ أبعد وراح ينظر إلى السيدة ماليت نظرةً متفحصة ثاقبة.

وقال: «ربما تعرفين الدكتور باسيفيري باسم آخر؟ لذا؛ هل السيد بيسنج موجود؟»

لكن هزة الرأس جاءت ردًّا من جديد، وصارت عيناها الصارمتان أكثرَ صرامةً وارتيابًا.

وقالت: «لا أحد بهذا الاسم أيضًا هنا! لا أعرف أحدًا بهذه الأسماء.»

فأصرَّ هيثرويك قائلًا: «أظن أنكِ تعرفين.» التفت إلى مابيرلي عمدًا وقال: «سيتحتم علينا أن نُحضِر الشرطة ...»

فصاح مابيرلي وهو ينتزع ذراع هيثرويك: «انتبه يا سيدي! أصابعك!»

كانت المرأة قد أغلقت الباب بعنف، ولم تخطئ يد هيثرويك إلا بمسافة ضئيلة؛ إذ كان قد قرَّبها من حافة الباب، وفي ثانية سمعا صوت المزلاج يعود إلى موضعه والتفافة المفتاح. ففهم هيثرويك الأمر بإدراك سريع، والتفت فجأة إلى موظَّفه.

وصاح يقول: «مابيرلي! أنا متيقن تمامًا! هاتان السيدتان بالداخل! محبوستان!»

فوافقه مابيرلي قائلًا: «لا عجب يا سيدي. وكما تقول، الشرطة ...»

وقال هيثرويك: «لنعُد إلى جولدمارك.»

سار الرجال الثلاثة في الشارع وانسحبوا إلى ملاذٍ لهم تحت مدخل أحد الأبواب، وكانوا يتشاورون فيما بينهم، حين قطع المشورة فجأة صيحةُ تعجُّب من اليهودي الذي كان لا يزال مثبِتًا ناظريه على المنزل:

فقال: «المرأة تغادر المنزل! ها هي ذي! إنها هناك! توصد الباب خلفها أيضًا! تسير باتجاه أول الشارع!»

نظر هيثرويك فرآها، فدفع بجولدمارك خارج المدخل.

وقال: «اتبعها! ولا تضيِّعها هذه المرة، أرجوك!»

الفصل الرابع والعشرون

منزل الباحة

انطلق اليهودي في هدوء وسرعة خلف المرأة المسرعة، وبعد فترة قصيرة، اختفت المرأة ومتعقِّبها عند إحدى الزوايا.

قال هيثرويك: «هذه نتيجة زيارتنا يا مابيرلي! لقد ذهبتْ إلى مكانٍ ما؛ لتخبرَ أحدَهم!»

فقال مابيرلي موافقًا: «على الأرجح! لكن أيًّا كان المكان الذي ستذهب إليه، سيلحقها إيسي جولدمارك إليه. إنه يتمتَّع ببصر الوشق.»

علَّق هيثرويك يقول: «لكنه ترك باسيفيري يفلت منه في تلك الليلة.»

فقال مابيرلي: «أولًا، هناك عذر لذلك؛ إذ كانت التعليمات الموجَّهة إليه هي معرفة المكان الذي سيذهب إليه باسيفيري فحسب، وهذا هو ما فعله في النهاية! لكنه لن يدَع تلك المرأة تفلت منه. إنَّ تعقُّبها سهلٌ بسبب ضخامتها.»

قال هيثرويك: «ليتني أعرف ما تركت في ذلك المنزل. سيتحتم علينا أن نعرف ذلك، بطريقةٍ ما!»

فأجابه مابيرلي: «تلك هي مسئولية الشرطة. لا يمكننا الدخول إلى منازل الناس من دون مذكرة. ثم إنك تقول إن مادرفيلد يتتبَّع خيطًا آخر، أليس كذلك؟ على أية حال، أعتقد أن تلك المرأة غادرت الآن لتجد أحد المسئولين عن الأمر بصفة أساسية؛ إذ بدت خائفة حين رأتني.»

فغمغم هيثرويك يقول: «إنها متورطة في هذا الأمر بشكلٍ ما.»

«يبدو هذا المنزل غامضًا بما يكفي. سنراقبه بدقةٍ على أي حال حتى يعود جولدمارك، مهما طال ذلك.»

لكن اليهودي عاد في غضون عشرين دقيقة. وهكذا فعلت المرأة. أتت المرأة أولًا تسير في الشارع بسرعةٍ أكبر من تلك التي سارت بها وهي تغادر. وبقدرِ ما تمكَّن المراقبان

من رؤيته من نقطة المراقبة التي كانت تبعُد عن منزلها عشرين ياردة، فقد بدت لهما مرتبكة وقلقة ومستاءة. ومن بعدها، أتى السيد إيسي جولدمارك على الرصيف المقابل واضعًا يديه في جيبيه.

دخلت المرأة المنزل مرة أخرى؛ وسمعا الباب وهو يُغلق بقوة. وبعد لحظة استدار اليهودي إلى المدخل الذي يقف فيه مابيرلي وهيثرويك، حيث كانا مختفيَين عن الشارع. وابتسم ابتسامة غامضة.

وسألهما قائلًا: «أرأيتماها تعود إلى المنزل؟ لقد تبِعتها. ورأيت أين ذهبت أيضًا.»

فسأله هيثرويك في نفاد صبر قائلًا: «أين ذهبت؟»

هزَّ جولدمارك رأسه في الاتجاه الذي أتى منه.

وقال: «عندما تنعطف عن تلك الزاوية، تجد نفسك في حي فقير. شوارعه وعطفاته وممراته ضيقة. وفي أحد تلك الشوارع يوجد مكان ضيِّق به ما هو أشبه بسوق مفتوح، وبه كذلك جدار، وفي الجدار باب موصد بالحديد، لقد دلفت المرأة إلى هناك، دخلت بمفتاح أخرجته من جيبها. وفور أن دخلت المرأة، ألقيتُ نظرةً أقرب على المكان. الباب موصد بالحديد أو الصلب كما قلت، وأقفاله قوية جدًّا. وليس على الباب أيُّ أسماء، وكذلك ليس به فتحة مفتاح يمكن لك أن تنظر من خلالها. ارتفاع الجدار تسع أقدام أو عشر، ومغطًّى من أعلاه بزجاج مكسور. ليس بمكان لطيف يدخله أحد على أي حال!»

فسأله هيثرويك: «وبعد ذلك؟ بعد أن دخلت؟»

«دخلت المرأة كما قلت يا سيدي، وأُغلِق الباب خلفها. وبعد أن ألقيت نظرة على الباب، اتخذتُ لي موقعًا خلف أحد الأكشاك الموجودة في الشارع ورحت أراقب. خرجت المرأة مرةً أخرى بعد ما يقرب من عشر دقائق، وبدت لي وكأنها لم تقضِ وقتًا لطيفًا بالداخل. كانت منزعجة! بعد ذلك، انطلقت المرأة عائدة إلى هنا، وكانت تسير في طريق العودة أسرعَ مما كانت تسير في ذهابها. والآن دخلت المرأة إلى منزلها مرةً أخرى، كما رأيتما بالطبع. هذا كل شيء.» أنهى إيسي كلامه قائلًا: «لكنني لو كنت مكانك يا سيدي، فسأحاول أن أعرف ما يوجد خلف ذلك الباب وتلك الجدران؛ ينبغي عليَّ ذلك!»

قال مابيرلي مرة أخرى: «هذه هي مهمة الشرطة. لو كان ماذرفيلد معنا، لأمكننا ...»

هنا توقَّف هيثرويك يفكِّر. وأكمل يقول بعد أن واتته فكرة مفاجئة: «اسمع يا مابيرلي. أنا أعرف ما سنفعل! أوقفْ سيارةَ أجرة بأسرع ما يمكنك. واذهب إلى قسم الشرطة حيث ألتقي بماذرفيلد عادة. أعرف رجلًا آخرَ هناك، وهو ضليع في هذه الأعمال، وهو المحقِّق

الرقيب روبمور. اطلب أن تلتقي به. وأخبره بما وجدنا، واطلب منه أن يعود معك وأن يحضر معه رجلًا لو رأى في ذلك ضرورة. والآن يا جولدمارك! أخبِر مابيرلي بموقع ذلك المكان بالضبط.»

أشار اليهودي بإصبعه إلى أول منعطف في الشارع.

وقال: «عند تلك الزاوية. أول منعطف على اليمين، ثم أول منعطف على اليسار، ثم أول منعطف إلى اليمين، هذا هو المكان. ستجد الكثير من الأكشاك الصغيرة هناك؛ إنه مكان شديد الازدحام.»

سأله مابيرلي بشيء من التأنيب: «ألم تلحظ اسم الشارع؟»

فابتسم جولدمارك وقال: «لقد لاحظته بالفعل! شارع «بينكوف». لكن من الأفضل أن أصفه لك على أن أسميه. ولا تطلب من سائق الأجرة أن يدخل بك إلى هناك بالسيارة! لأن المكان لا يتسع لذلك!»

لم يعلِّق مابيرلي على تلك النصيحة؛ وانطلق باتجاه شارع «فيكتوريا»، ثم التفت هيثرويك إلى اليهودي.

وقال: «سنذهب ونلقي نظرة أخرى على المكان يا جولدمارك. لكننا سنذهب منفصلَين؛ ما دمنا في ذلك الشارع على أي حال. اذهب أنت باتجاه المنعطف الأول وسأتبعك.»

عبر هيثرويك الشارع الذي سار فيه اليهودي، وألقى نظرة أخرى على البيت الصغير الذي اختفت المرأة فيه. كان المنزل مغلقًا بالمزاليج وستائره مسدلة؛ فكان تجسيدًا للغموض. وللحظة، تردَّد هيثرويك بشأن ترك المنزل من دون مراقبة. لكن وصف الجدار والباب في شارع «بينكوف» كان قد ألهب مخيِّلته، فأكمل مسيره وانعطف عند الزاوية ولحِق بجولدمارك. تقدَّم جولدمارك في الحال يرشده عبر متاهة من الشوارع القذرة الشديدة الازدحام، وانعطف به في النهاية إلى شارعٍ أضيقَ بكثير من الشوارع الأخرى، ويوجد على كلا جانبيه أكشاكٌ أشبه بالخيام بها جميع أنواع السلع الرخيصة يعرضها للبيع تجَّارٌ خشِنو الصوت. رأى هيثرويك من فوره أن ذلك المكان هو أحد الأسواق المفتوحة التي توجد في الكثير من المناطق الفقيرة من لندن، والتي يمكن للمرء أن يشتري منها مقلاة بستة بنسات بالسرعة التي يشتري بها ورقةً من السمك المقلي، أو وشاحًا مبهجًا للرقبة مع برتقالة فاسدة.

خطا هيثرويك خلف إيسي بين الأكشاك المزدحمة والمتاجر البائسة التي تصطف على الرصيف، وبعد قليل وصل إلى الجدار الذي أخبره عنه اليهودي. كانت المتاجر والمنازل

حوله عتيقة ومتداعية، أما الجدار فإما أنه كان حديث البناء أو أنه بُني من جديد وأُعيدَت تقويته. كان الجدار يمتد بين منزلين منخفضين؛ أحدهما يُستخدم متجرًا لبيع الخضراوات، والآخر متجر لبيع المعدات. بلغ طول الجدار ما يقارب ثلاثين قدمًا؛ أما ارتفاعه فكان يقارب عشر أقدام، وكانت قمَّته مغطاة بالكثير من الزجاج المكسور مثلما ذكر جولدمارك. أما الباب الذي كان ملاصقًا للمباني المجاورة، فكان صلبًا قويًّا، له واجهة حديدية وحديث الطلاء وكان من الواضح أن القفل من النوع الممتاز. هنا أدرك هيثرويك فجأة حقيقة مهمة؛ ألا وهي أنه لم تكن هناك إشارة على وجود جرس أو مقبض للطرق.

فسأل هيثرويك حين توقَّف هو وإيسي: «أتقول إن المرأة دخلت إلى هنا؟»

أجابه إيسي: «هذا هو المكان يا سيد هيثرويك؛ لقد دخلت إلى هنا. رأيتها تُخرِج المفتاح من جيبها.»

نظر هيثرويك إلى قمة الجدار.

وغمغم يقول: «ماذا يا تُرى يوجد خلفه؟ لا شك أن وراءه مبنًى ما.» التفت إلى صاحب الكشك الذي يقع أمام الباب المبهم، والذي لم يكن مشغولًا بشيء في تلك اللحظة. وسأله: «أتعرف أيَّ شيء عن هذا المكان؟ أتعرف ماذا يوجد خلف ذلك الجدار؟ أيُّ مبنًى هو؟»

راح صاحب الكشك يقلِّب بصره في هيثرويك في صمت ودقة. وبعد أن تأكد من أنه شخص مدني وليس رجل شرطة بزي مدني، بدأ يتحدث.

فأجابه: «لا أعرف أيها السيد. ليس لديَّ أدنى فكرة! أنا آتي إلى هنا وأتجوَّل في الأرجاء منذ ثلاث سنوات أو أكثر، لكنني لم أرَ ما خلف ذلك الجدار قط، ولم أدخل من ذلك المدخل. أقسم على هذا!»

فقال هيثرويك: «لكنني أعتقد أنك رأيت أناسًا يدخلون ويخرجون من الباب، أليس كذلك؟ لا بد أنه يُستخدم لغرضٍ ما!»

«أظن ذلك أيها السيد، لكنني لا أتذكَّر أحدًا الآن، لكن من المؤكَّد أنني رأيت امرأةً تخرج منه قبل برهة؛ كانت المرأة ضخمة عريضة الفكَّين. لكنني لا أتذكَّر رؤيةَ أيِّ شخص آخر، وإن كان هذا يبدو غريبًا. أنا آتي إلى هنا في العاشرة صباحًا أيها السيد، وأحزم أشيائي وأغادر في الخامسة؛ إذا كان هناك أشخاصٌ يدخلون ذلك المكان ويخرجون منه، فلا بد أن ذلك يحدث في الصباح الباكر أو في ساعة متأخرة من الليل؛ فلا أستطيع رؤيتهم. لكنني أظن أن الجدار والباب هما مدخل خلفي لمبنًى ما واجهته من الجانب الآخر.»

قال هيثرويك وهو ينظر إلى جولدمارك: «هذه فكرة جيدة. لنلتف حول المكان.»

لكن لم تكن هناك طريقة للالتفاف حول المكان. فعلى الرغم من أنهما حاولا السير في عديد من الممرات والشوارع التي ينبغي لها أن تكون موازية لشارع «بينكوف»، فإنهما لم يتمكَّنا من إيجاد أيِّ مكان قد يكون واجهةً لذلك الجدار المبهم وبابه الموصد. لكن فطنة اليهودي أعلنت عن نفسها.

فقال: «يمكننا رؤية ما هو خلف الجدار يا سيدي بصورة سهلة إذا ما جعلنا أحد أولئك البائعين المواجهين له يسمح لنا بأن نصعد إلى طابقه الأول. انظر عبر الشارع هناك، بعد تلك الأكشاك وغيرها، انظر إلى هناك.» ثم أكمل يقول وهو يشير إلى متجرٍ لبيع الخضراوات كان مواجهًا للباب الموصد: «لنجرِّب ذلك. أخبِره أننا نقوم بمسح للأرض؛ وهذا حقيقي!»

قدَّم هيثرويك طلبه؛ فصحبته زوجة البائع هو وجولدمارك إلى الطابَق العلوي إلى غرفة صالونٍ بها نافذة على شكل قوس، كانت الشقة هي إحدى تلك الشقق الكئيبة التي لا تُستخدم إلا أيام الآحاد من أجل إضافة المزيد من الكآبة على يوم كئيب بالفعل. علَّقت المرأة قائلة بأن هناك مظهرًا لطيفًا لكلا جانبي الشارع من تلك النافذة، لكن هيثرويك اقتصر بفحصه على الواجهة. الآن صار يرى ما وراء الجدار بسهولة كافية. ولم يكن هناك الكثير مما يُرى. كان الجدار يحدُّ باحةً يحدُّها من اليمين واليسار جدرانُ المنازل المتاخمة، وفي الجانب الآخر البعيد منها كان يحدُّها مبنًى عريض منخفض مصنوع من الطوب الأحمر، وكان ذلك المبنى ينتصب في الجهة الخلفية لجدارٍ يقع أمامه ولا نوافذ له. كان من المستحيل أن يعرف المرء فيما يُستخدم ذلك المبنى القصير ذو السقف المسطَّح من النظر إليه فحسب. لكن بابه المغلق كان واضحًا، وكانت النوافذ الموجودة على كلا جانبَيه واضحةً أيضًا. بالرغم من ذلك، فقد كان من السهل رؤية أن تلك النوافذ كانت معتمة من نصفها السفلي بطلاء داكن اللون. لم يكن المبنى يحمل أيَّ علامة، ولا أيَّ إشارة من الخارج تدل على الغاية منه. غير أنَّ الباحة كانت تحتوي على أقفاص وصناديق وزجاجات محفوظة في صناديق من الخوص، وبرزت من السقف مدخنةٌ غريبةُ الشكل كانت تدل على وجود تنُّور أو مصهر للمعادن تحتها. وبعد أن ألقى هيثرويك نظرةً أخرى، أدرك يقينًا أنه كان ينظر إلى المكان الذي أُخِذ إليه هانافورد وسُمِّم ببراعة.

هزَّ جولدمارك ذراع هيثرويك فجأةً وأومأ إلى الشارع المزدحم بالأسفل.

وهمس قائلًا: «هذا مابيرلي! ومعه رجلان!»

نظر هيثرويك إلى الاتجاه الذي أشار إليه، ورأى روبمور ورجلًا آخر في زيهما المدني يتقدَّمان عبر الشارع، بين الأكشاك والمتاجر. وكان معهما هناك ضابط يرتدي الزي الرسمي ويحدِّثهما. فالتفت هيثرويك من أجل أن يغادر الغرفة، لكن جولدمارك أمسك بمِرفقه.

وقال: «قبل أن نذهب يا سيدي، ألقِ نظرةً أخرى فقط على ذلك المكان المواجه لنا، وما يحيط به. يمكنني أن أرى المكان الذي نستطيع أن ندخل منه يا سيد هيثرويك، فالجدار بين تلك الباحة والمنزل المجاور، ذلك الجانب الأيمن منه، منخفض بعض الشيء عند الطرف الأقصى منه. فماذا لو سمح لنا الرجل في ذلك المنزل بأن نذهب من خلال باحته الخلفية؟»

قال هيثرويك: «فهمتك! سنحاول ذلك. لكن سنذهب إلى روبمور أولًا، هيا بنا.»

دسَّ هيثرويك بعض العملات الفضية في يد زوجة تاجر الخضراوات، ونزل إلى الشارع. وقدَّم إلى المحقِّقين بعض التعليلات الموجزة التي أضافت إلى المعلومات التي قدَّمها لهم مابيرلي، فأومأ روبمور إلى الشرطي المتلهِّف المنتبه الذي كان يقف بجانبهم.

وقال: «كنا نتحدَّث إليه يا سيد هيثرويك. في بعض الأحيان يكون في الخدمة هنا نهارًا، وفي أحيان أخرى يكون في الخدمة خلال الليل. يقول الشرطي إنه كان يفكِّر في أمرِ هذا المكان كثيرًا، ومن الغريب أنه لم يرَ أحدًا يدخل من ذلك الباب أو يخرج منه رغم أنه يعرف هذا الحي منذ أكثر من عام، وليس لديه أدنى فكرة عن العمل التجاري الذي يجري في الداخل، هذا إن كان يمثِّل عملًا تجاريًّا!»

فأيَّد الشرطي كلامه قائلًا: «لم أرَ أيَّ شيء أو أيَّ أحد! لم يحدُث ذلك في أيِّ وقت من الأوقات سواء أكان ليلًا أو نهارًا. حين أتيت إلى هذا المكان للمرة الأولى، ربما قبل خمسة عشر شهرًا، كان ذلك الباب حديث التركيب والطلاء، وكان الزجاج قد وُضع لتوه على قمة الجدار. لكن الحق أنني لم أرَ أحدًا يدخل هذا المكان أو يخرج منه!»

فقال هيثرويك: «أقترح أن ندخل. أظن أن لدينا الكثيرَ من الأسباب، نظرًا لما نعرف. ربما كانت المرأتان المفقودتان في الداخل. لقد ألقيت نظرةً على الباحة، ويمكننا أن ندخل إلى هناك بسهولة عن طريق الدخول من خلال متجر بائع الخضر ذلك، على الجانب الأيمن، ثم نتسلق الجدار من الجانب الخلفي من متجره. ما رأيك يا روبمور؟»

فقال روبمور موافقًا: «أجل، أوافقك الرأي! الآن وقد بدأنا هذه المهمة، سوف نكملها. من الأفضل أن تَدَعني أتعامل مع التاجر يا سيد هيثرويك؛ سأتحدَّث معه أولًا ثم أنادي عليكم.»

انتظر الآخرون بينما دخل روبمور إلى المتجر وتحدَّث مع مالكه. رآه الآخرون وهو منخرطٌ في الحديث لبضع دقائق، ثم أتى إلى الباب وأشار إلى البقية بأن يتقدموا.

وقال في حديثٍ جانبي إلى هيثرويك: «لا بأس. يمكننا أن ندخل من خلال باحته الخلفية، وسيعيرنا سلَّمًا لنصعد به على الجدار. لكنه أخبرني أنه يعرف الرجلين اللذين يملكان المكان في الباحة المجاورة، ومن وصفه لهما، ليس هناك أدنى شك في أن أحدهما هو باسيفيري والآخر هو أمبروز. يقول الرجل إنهما حصلا على المكان منذ ما يقارب ثمانية عشر شهرًا، ويظن الرجل أنهما يستخدمان المكان كمختبر؛ مختبر كيميائي أو شيء من هذا القبيل. لكنه يقول إنهما لا يظهران إلا نادرًا؛ ففي بعض الأحيان لا يراهما لأيام أو حتى لأسابيع. وعادة ما يكونان هناك ليلًا؛ إذ رأى أن المكان يكون مضاءً في جميع ساعات الليل. هيا بنا!»

تقدَّمت مجموعةُ المحقِّقين الصغيرة عبر المتجر الصغير المظلم إلى باحة في الجزء الخلفي منه، ودخل مساعد التاجر أمامهم وهو يحمل سلَّمًا ثبَّته جيدًا قبالةَ الجدار الفاصل عند أدنى ارتفاع له. تسلَّق الرجال الستة، واحدًا تلو الآخر يتقدَّمهم الشرطي ذو الزي الرسمي، ونزلوا في الجانب الآخر. بدا المكان مهجورًا خاليًا إلا منهم. ومثلما لاحظ هيثرويك حين نظر من نافذة تاجر الخضر، وجد أن النوافذ كانت معتمة بطبقات كثيفة من الطلاء؛ لكنَّ اثنين أو ثلاثة من الرجال تقدَّموا على أية حال ليحاولوا إيجاد موضعٍ يكون الطلاء مخدوشًا فيه، في محاولة لرؤيةِ ما بالداخل. لكن الشرطي الذي كان أكثر جرأة وإقدامًا، تقدَّم مباشرة نحو المدخل.

وقال متعجبًا: «الباب مفتوح! ليس مغلقًا على الإطلاق!» فتح الباب على مصراعيه ودلف إلى المبنى وأتى البقية محتشدين خلفه. صاح الشرطي: «مرحبًا! مرحبًا!»

لم يكن هناك من ردٍّ على تحيته. فسار الشرطي عبر الرَّدهة التي كانوا يقفون فيها جميعًا، وفتح بابًا داخليًّا. رأى هيثرويك في الحال أن حدس التاجر بشأن الغرض من ذلك المكان كان صحيحًا؛ إذ كان مختبرًا كيميائيًّا ومُعَدًّا بأجهزةٍ حديثة أيضًا. لكن لم يكن هناك أيُّ أثر على وجود حياة فيه.

غمغم أحد الرجال يقول: «يبدو أنه لا أحد هنا. تبخَّروا!»

تقدَّم روبمور نحو باب آخر، وبعد أن فتحه تكشَّفت أمامه غرفةٌ مفروشة كالمكتب. كان بها مكتب قابل للطي، وأوراق ووثائق ملقاة عليه؛ فبدأ هو وهيثرويك يفحصانها ويقلِّبانها. وفجأةً رأى هيثرويك حلقةَ الوصل بين هذا المكان الغامض والمنزل الذي ذهب

إليه في وقت مبكِّر من الظهيرة. فأمام عينيه كان هناك بضع من الأوراق ذات اللون الأزرق الفاتح التي تعقبها مابيرلي من خلال العنوان المنقوش عليها، والذي أخبره به بائع الأدوات المكتبية.

قال هيثرويك: «لا شك أننا وصلنا إلى المكان المنشود في نهاية المطاف. أتمنى لو كان ماذرفيلد معنا هنا. لكن ...»

وقبل أن يتمكَّن من نطق كلمة أخرى، صدرت عن جولدمارك صيحةٌ مفاجئة، حيث ذهب بمفرده في شجاعة وصعد الدرجات المنخفضة إلى الطابق العلوي فيما كان الآخرون يفحصون الحجرات السفلية.

فنادى قائلًا: «سيدي! سيد هيثرويك! اصعد إلى هنا؛ اصعدوا جميعًا. ثمَّة رجل هنا، يجلس في كرسي؛ يا إلهي، إنه متصلِّب في مكانه وميِّت!»

الفصل الخامس والعشرون

ميت!

بعد أن سمع بقية القائمين بالبحث صيحةَ الفزع من اليهودي، توجَّهوا جميعًا نحو الجزء العلوي من المبنى. وصل إليه روبمور وهيثرويك أولًا؛ كان يقف عند باب حجرة شبه مغلق، وكان يحدِّق في داخلها بعينين قلقتين. فاندفعا من جانبه ودخلا إلى الغرفة.

ميَّز هيثرويك مظهرَ الغرفة العام ومحتوياتها من نظرة واحدة. استنتج من بعض الأدلة الصغيرة أنَّ الغرفة قد جُهِّزَت حديثًا لتكون غرفة نوم وجلوس في الوقت نفسه. كان بها سرير صغير قابل للطي والنقل في إحدى الزوايا، ومغسلة وطاولة زينة ومجموعة من الأدراج وصورتان أو ثلاث، ورفٌّ من الكتب، وسجادة مربَّعة الشكل صغيرة في منتصف الأرضية التي كانت الحواف الخارجية منها قد لُطِّخَت حديثًا. وعلى السرير كانت هناك حقيبة موضوعة ومفتوحة، وكانت معبَّأة بالفعل بالملابس وفُرُش السرير، وبجوارها كان هناك معطف كبير وقبعة وقفازات ومظلة؛ كان من الواضح أن الرجل الذي تعودُ إليه ملكيةُ هذه الأشياء قد أنهى استعداده للرحيل، ولم يكن أمامه شيء يفعله سوى إغلاق الحقيبة، وارتداء معطفه وقبَّعته وأخذِ الأشياء الأخرى والرحيل.

لكن ماذا عن الرجل نفسه؟ كان هناك كرسي وثير كبير الحجم عتيق الطراز عند أحد جوانب السرير، وكان فسيحًا ومريحًا. وكان ثمة رجل يجلس عليه، أو بالأحرى يرقد فيه على نحوٍ يوحي بأنه سقط على الكرسي من إعياء مفاجئ، وأسند رأسه للخلف على الوسادة المبطَّنة، وراح في النوم. لكن الرجال عرفوا جميعًا؛ إذ تجمَّعوا داخل الغرفة، أن ما دخلوا عليه لم يكن شخصًا نائمًا، بل ميتًا. كان هذا الرجل ميتًا كما لاحظ اليهودي سريعًا؛ كان ميتًا بالفعل!

وقد ميَّزه هيثرويك سريعًا كما ميَّز الأشياء المحيطة به. كان رأسه يستند في هدوء إلى بطانة الكرسي، وكان يميل قليلًا نحو كتفه اليسرى، وكان وجهه واضحًا بالكامل.

بالنسبة إلى هيثرويك، كان ذلك وجهَ رجل غريب؛ فهو لم يُوصَف إليه من قبل في أثناء أيٍّ من التحقيقات التي أجراها هو ومانذرفيلد. لكنه كان متأكدًا من أنه يشبه الرجل الذي يعرفونه ويشتهر لديهم باسم أمبروز. كان الرجل متنكرًا بالطبع؛ إذ حلق ذقنه وشاربه الداكنين اللذين كانا يعرفانه بهما، وتمكَّن هيثرويك من أن يلاحظ في الحال أن التخلُّص منهما أحدث اختلافًا ملحوظًا في مظهره. لكن لا شيء كان بإمكانه أن يخفي طوله وبنية جسده بصفة عامة. فمن دون شك، كان هذا هو الرجل الذي يلاحقه هو ومانذرفيلد، الرجل الذي التقى بهانافورد في فيكتوريا، والذي اختفى من الشقة في أديلفي، الرجل الذي كان على معرفة بباسيفيري، والذي …

غمغم روبمور يقول وهو ينحني ليقترب من الجسد الجامد: «ميت ومتصلِّب! ومضت على وفاته مدة أيضًا! بضع ساعات على أي حال. جثته متصلِّبة! أتعرفه يا سيد هيثرويك؟»

قال هيثرويك ما كان يظنه. وأشار روبمور إلى الأشياء التي كانت على السرير.

وعلَّق قائلًا: «يبدو وكأنه أصابته نوبة بينما كان يستعد لينطلق إلى مكانٍ ما.» ثم أردف يقول: «في الواقع، إن كان هذا هو الدكتور أمبروز الذي كنا نبحث عنه … لكن لنرى أولًا ما إذا كان يحمل أيَّ شيء يثبت هويته.»

وبينما وقف بقية الرجال يشاهدون، مد روبمور يده إلى داخل جيب صدر الرجل المتوفَّى الذي كان يرتدي بزة جديدة رمادية من قماش التويد، وتذكَّر هيثرويك فيما بعد كيف أنَّ جدتها قد بدت له متناقضةً مع الأجواء بشكلٍ ما، ثم أخرج منه دفترًا صغيرًا. لمس روبمور مرفق هيثرويك وأشار إليه أن يتبعه، ثم ذهب إلى النافذة وترك البقية يحدِّقون في استغراب إلى الرجل الميت.

وهمس روبمور بينما ابتعدا عن الجمع: «هذه مسألة غريبة يا سيد هيثرويك. أتظن أن هذا هو الدكتور أمبروز الذي نلاحقه؟»

فأجابه هيثرويك: «أنا واثق من ذلك! لقد حلق لحيته وشاربه، ولا شك أن هذا أحدث اختلافًا كبيرًا في مظهره، لكنك تستطيع الوثوق بكلامي؛ هذا هو الرجل! لكن ما الذي تسبَّب في وفاته المفاجئة؟»

ثم ومضت في ذهنه ذكرى قوية واضحة، فالتفت بسرعة وراح يحدِّق في الجسد الجامد القابع في الخلفية.

فسأله روبمور في فضول: «ماذا؟ أتفكِّر في شيء؟»

فأشار هيثرويك إلى هيئة الرجل الميت.

وهمس قائلًا: «تلك ... تلك هي الهيئة التي بدا عليها هانافورد حين مات في عربة القطار! فبعد أن ظهرت عليه العلامات الأولى، استلقى للخلف ومات. بهذه الهيئة تمامًا، وكأنه استغرق في النوم بكل هدوء. أيمكن، أيمكن أن يكون ...»

غمغم روبمور: «أعرف ما تفكِّر فيه. مات مسمومًا! حسنًا، ماذا عن ذلك الرجل الآخر؟»

قال هيثرويك متعجبًا: «باسيفيري!»

فقال روبمور: «لمَ لا؟ ليتخلص من شريكه في الجريمة! لكن، لدينا هذا الدفتر. لنرَ ما بداخله. لا يبدو أن به الكثير بناءً على سُمكه الرقيق.»

ومن إحدى دفَّتي الدفتر، سحب روبمور رزمة من عملات نقدية مطوية بعناية، فراح يَعدُّها بسرعة.

وعلَّق يقول: «مائة وخمسون جنيهًا. وما هذه الورقة، حوالة على أحد بنوك نيويورك بقيمة مائتي جنيه. نيويورك؟ إذن كانت تلك وجهته؟» ثم أكمل يقول وهو يقلِّب الدفة الأخرى: «آه! أترى هذا يا سيد هيثرويك؟ لقد حجز رحلته البحرية على متن السفينة «ماراتيك» التي ستبحر الليلة. أممم! وقد ذهب ماذرفيلد إلى ساوثامبتون في أثر باسيفيري. بدأتُ أدرك الأمر الآن، على ما أظن.»

فسأله هيثرويك: «ماذا ترى؟»

«حسنًا، يبدو لي وكأن باسيفيري قد ذهب أولًا ليحصل على ذلك الصندوق الذي يحتوي على الجواهر على أن يلحق به أمبروز هناك، حين يكون باسيفيري قد أمَّن غنيمتهما، وأنهما بعد ذلك كانا سيهربان بما اغتنما! لكن، أتلحظ هذا، الاسم الذي حُجِزت به الرحلة؟ ليس بأمبروز، بل السيد المحترم تشارلز أندروز. أندروز! وباسيفيري هو بيسنج. بيسنج وأندروز. والآن أتساءل إن كانا يجريان الأعمال هنا باستخدام هذين الاسمين؟»

قال هيثرويك: «هذه تفصيلة غير مهمة. الأمر المهم بكل تأكيد هو، هذا! كيف لقي هذا الرجل منيَّته؟»

فأجاب روبمور يقول: «لكنني لا أظن أن هذا مهم للغاية في الوقت الراهن. فقد مات على أي حال، وسواء أمات نتيجة لنوبة مفاجئة، أم كان باسيفيري قد سمَّمه ببراعة قبل أن يغادر، فهذا سؤال سيتعين علينا أن نجد إجابته في وقت لاحق. لكنني سأخبرك بأمرٍ ما يا سيد هيثرويك: أراهن بأي شيء على أنه لم يُسمِّم نفسه! انظر حولك، لا توجد إشارة

واحدة على وجود أيِّ شيء كان يتناول منه الشراب. لا يا سيدي، بل فعل الرجل الآخر هذه الفِعلة. وإذا حالف ماذرفيلد الحظ في إلقاء القبض عليه الليلة ... آه! لكن الآن، ما الذي أخبرنا به موظفك مابيرلي عن تلك السيدة صاحبة المنزل الكائن في شارع «ليتل سميث» والتي أتت إلى هنا ظهر اليوم؟»

أجاب هيثرويك: «تعقَّبها جولدمارك إلى هنا. رآها تدخل بمفتاحٍ أخرجته من جيبها. ومكثت بالداخل بضع دقائق، ثم خرجت وهي تبدو منزعجة للغاية، ثم هُرعت نحو منزلها.»

فقال روبمور: «والآن سنُهرع أنا وأنت خلفها. ففي نهاية المطاف، هي على قيد الحياة، وسنجعلها تجد طريقة للكلام. لقد أتت المرأة إلى هنا بالطبع وهي تتوقَّع أن تجد هذا الرجل، وأن تخبره أن هناك مَن يبحث خلفهم. فوجدته ميتًا! تعالَ معي في الحال يا سيد هيثرويك.»

التفت بعد ذلك إلى المحقِّق الآخر والشرطي، وبعد أن أعطاهما التعليمات همسًا، غادر الغرفة، وتبِعه هيثرويك بعد أن تحدَّث بكلمة مع مابيرلي. لكن وقبل أن يصلا إلى الباب الخارجي، سمعا صوت أقدام في الباحة، وفجأة ظهر أمامهما عند المدخل رجلان.

وإذا كان هيثرويك ورفيقه قد نظرا إليهما بنظرات استفهام، فقد نظر الرجلان من جانبهما أيضًا إلى روبمور وهيثرويك بالطريقة نفسها. كان الرجلان شابَّين؛ وقد حدَّد هيثرويك أنهما حِرَفيَّان يرتديان ملابس محترمة. كان من الواضح تمامًا أن روبمور وهيثرويك قد فوجئا بمقابلتهما عند الباب حيث كان أربعتهم يقفون؛ والحق أنَّ شعورهما بالمفاجأة كان كبيرًا للغاية حتى إنهما توقَّفا تمامًا، وراحا يحدِّقان في صمت. لكن روبمور تحدَّث. فسأل بنبرة حادة: «أتبحثان عن أحد؟»

تبادل الرجلان النظرات، ثم أجاب الأكبر سنًّا فيهما على ما يبدو:

فقال: «لا، في الواقع! لا نعرف بوجود أحد هنا. لكن أيمكن لنا أن نطرح السؤال نفسه عليكما؟ وكيف دخلتما إلى هنا؟ لأن هذا المكان في الواقع ملك لنا!»

صاح روبمور متعجبًا: «لكما! مِلك لكما؟»

فأجابه الرجل: «إن كان شراؤه ودفْعُ ثمنه وأخْذُ قسيمة شراء وأوراق يجعل منه مِلكًا لنا! لقد اشتريناه هذا الصباح، ودفعنا كامل ثمنه أيضًا، على أي حال.»

أخرج روبمور بطاقةً مهنية وسلَّمها لهما؛ فسُقِط في أيدي الرجلين وهما يقرآنها. ثم رفع أكبرهما عينه سريعًا.

وقال بقلق: «آمل أنه لا يوجد خطْب ما أيها المحقِّقان، أثمَّة خطْب؟ لقد دفعنا مبلغًا كبيرًا من المال في هذا المكان، ووضعنا فيه مدخراتنا كذلك و...»

فأجابه روبمور مطمئنًا إياه: «لا أعتقد أن هناك خطْبًا ما بهذا الشكل. لكنْ ثمة خطْبًا كبيرًا جدًّا من جوانب أخرى، والآن اسمعا، مَن أنتما، وممن اشتريتما هذا المكان؟»

فأجابه المتحدِّث عنهما: «اسمي مارشال، واسمه ويلكنسن. نحن نبدأ عملًا تجاريًّا خاصًّا بنا كمهندسَين كهربائيَّين. وقد نشرنا إعلانًا عن مكانٍ مشابه لهذا في الأرجاء، وأتانا السيد أندروز بشأن هذا الإعلان، وقال إنه هو وشريكه السيد بيسنج سيغادران ويريدان بيعه، بالحالة التي هو عليها تمامًا. فأتينا لنلقي نظرة عليه، وحيث إنه المكان المناسب للبداية، اتفقنا على شرائه. وقد قالا بأن المكان ملكيتهما الخاصة، ولكي نوفِّر أتعاب المحامين أتممنا عملية الشراء فيما بيننا. لقد دفعنا ثمن المكان هذا الصباح، وحصلنا على الأوراق والمفاتيح.»

فسأله روبمور: «كم كانت الساعة؟»

أجاب مارشال: «العاشرة صباحًا تقريبًا. كان هذا موعد لقائنا هنا.»

«هل رأيتما كلا الرجلين؛ بيسنج وأندروز؟»

«كلاهما! في تلك الحجرة الصغيرة على اليمين. أتممنا عملية البيع، ودفعنا الأموال نقدًا، وسوينا كلَّ شيء. سرعان ما تم الأمر، ثم قدَّم لنا الرجلان مشروبًا وسيجارًا، وخرجا.»

فقال روبمور فجأة: «قدَّما لكما شرابًا؟ أين؟»

«هنا! لقد أخرج بيسنج زجاجة شمبانيا كبيرة وعلبة سيجار، وقال إننا سنشرب نَخْب الصفقة. فتناول كلٌّ منَّا كأسًا، ويلكنسن وأنا، ثم تركناهما لينتهيا من الزجاجة، كنا على عجلٍ من أمرنا. لكن؛ هل هناك خطْبٌ ما؟»

فأجابه روبمور: «الخطْب أيها الرجل أن الرجل الذي تعرفونه باسم أمبروز يرقد في الطابق العلوي ميتًا! مات مسمومًا على الأرجح، على يد شريكه. لكن مثلما قلتُ الآن، لا أعتقد أن هناك خطْبًا في شرائكما لهذا المكان، بشرط أن تتمكَّنا من تقديم برهان على ذلك؛ أتقولان إنَّ الأوراق اللازمة في حوزتكما؟»

فربَّت مارشال بيده على جيب معطفه.

وقال: «لديَّ الأوراق كلها هنا. لكن، أتقول إن أندروز مات مسمومًا؟ لقد كان على قيد الحياة حين تركنا الرجلين معًا. كانا ينهيان الزجاجة ...»

فقاطعه روبمور قائلًا: «اسمعا، انتظرا هنا حتى نعود، لدينا عملٌ مهم في الجوار. هناك رجال لنا في الطابق العلوي؛ أخبِراهم أنني قلت إنكما ستنتظران هنا. والآن يا سيد هيثرويك.»

التفت روبمور إلى رفيقه خارج الباحة في الشارع وكان يضحك ضحكةً ساخرة.

وقال: «شمبانيا؛ ليشربا نَخْب الصفقة! تركاهما ينهيان الزجاجة؟ لا شك أن ما قضى على أمبروز كان في هذه الشمبانيا ودسَّه باسيفيري فيها حين أعطاه ظهره. سأخبرك بأمرٍ يا سيد هيثرويك، ذلك الرجل بارع للغاية وهو يكمل ما بدأه حتى النهاية وعلى أكمل وجه! إنما آمل فقط ألا يستعصي على مازرفيلد في ساوثامبتون! لن يبارحني القلق حتى أسمع المستجدات.»

فسأله هيثرويك: «أمن الممكن له أن يهرب من مازرفيلد؟ كيف له ذلك؟ في رأيي أنه الآن في قبضة مازرفيلد بالفعل! لا بد أنه سيذهب إلى مكتب البريد ليحصل على الصندوق.»

فقاطعه المحقِّق قائلًا بضحكة ساخرة أخرى: «حقًّا؟ لستُ واثقًا جدًّا من ذلك. لا شك أن باسيفيري محتال بارع، وفي جَعبته الكثير والكثير من الخدع! سأخبرك بما يشغل ذهني: هل سيذهب ذلك الطرد فعلًا إلى مكتب بريد ساوثامبتون، حيث يمكن الحصول عليه؟»

فسأله هيثرويك في إلحاح: «ماذا تقصد؟ إنه في مكتب البريد! لقد أُرسِل صباح اليوم.»

فوافقه روبمور باقتضاب قائلًا: «لا شك في ذلك. عن طريق التوصيل الخاص، صحيح؟ وحين يصل الطرد إلى محطة ساوثامبتون، ينبغي أن يُؤخذ إلى مكتب البريد الرئيسي، أليس كذلك؟»

سأله هيثرويك: «وبعد؟»

فأجابه روبمور: «بين الكأس والشفة مزالقُ كثيرة كما يُقال في المَثَل القديم. وقد يتعرَّض ذلك الطرد لأحدها. لكن أليس هذا هو الرقم الذي ذكره موظفك؟»

بدا باب منزل السيدة ماليت موصدًا أكثرَ من ذي قبل؛ إن كان هذا ممكنًا. ولم يأتِ ردٌّ على العديد من دقات الجرس والطَّرْق. وبعد ذلك أمسك روبمور بمقبض الباب؛ ففُتِح الباب في يده.

فصاح يقول: «مرحبًا! الباب مفتوح! يبدو هذا غريبًا بعض الشيء. لندخل!»

وللمرة الثانية في ظهر ذلك اليوم، كان هيثرويك يدخل إلى مكانٍ يبدو مهجورًا تمامًا.

الفصل السادس والعشرون

واترلو

دخل المحقِّق الذي كان يتقدَّم رفيقه بعض الشيء إلى طاولة الرُّواق وطرقَ على سطحها المصقول طرْقًا عاليًا. لم يأتِه أيُّ رد. فتقدَّم أكثر نحو مقدمة درابزين السُّلم الذي كان من الواضح أنه يؤدي إلى مطبخ القبو، ومرة أخرى طرقَ على لوحٍ مجاور بصوتٍ أعلى من ذي قبل، ومرةً أخرى لم يأتِه أيُّ ردٍّ. وحينها التفت عائدًا إلى الرُّواق، وفتح باب الحجرة التي تطل على الشارع، ونظر فيها هو وهيثرويك. كانت ستائر الحجرة مغلقةً ورائحتها عفنة، أشبه بغرفة استقبالٍ لا تُستخدم إلا قليلًا في أيام الآحاد، فبدت باردة لا تبعث على الراحة. لكن الحجرة التي تليها، والتي توجَّه إليها روبمور بعد ذلك، كان بها إشارات تدل على وجود حياة، وأنَّ هناك مَن كان يقطنها حديثًا. كانت المدفأة لا تزال موقدة، وكان هناك كرسي وثير بالقرب منها، وعلى الطاولة القريبة كانت توجد بعض الأغراض النسائية: كومة من الكتان بها إبرة وخيط، وسلة عمل، ومقص، وقمع خياطة، ولم يتطلب الأمر أكثرَ من نظرة واحدة ليدرك الناظر أن مالكة هذه الأشياء البريئة قد وضعتها من يدها فجأة؛ إذ قوطِعت فجأة عن مهمتها.

هتف روبمور فجأة وقال: «حسنًا يا سيد هيثرويك! هذا المنزل فارغ! فارغ من الناس على أي حال.»

فوافقه هيثرويك قائلًا: «المنزل ساكن بما يكفي، هذا أكيد. يبدو أن المرأة ...»

قال روبمور: «لقد أخفتها بمجيئك إلى هنا. فتسللت إلى شارع «بينكوف». وهناك وجدت أمبروز ميتًا! ثمة علاقةٌ ما تربطها به وبباسيفيري، لأنها تملك مفتاحًا يدخلها إلى الباحة. وحين وجدت أمبروز ميتًا، عادت إلى هنا، وجمعت أشياءها ورحلت. لا يوجد شخص واحد حتى في هذا المنزل. أراهنك بأي شيء على ذلك!»

علَّق هيثرويك يقول: «فكَّرت في أن هذا قد يكون المكان الذي ربما احتُجِزت فيه المرأتان.»

فصرَّح روبمور: «سنرى بشأن ذلك. لنصعد إلى الطابق العلوي، سنفتِّش في المكان أولًا عن آخر. لكن توقَّف، لنبحث في الطابق التحتي أولًا.»

هُرع على الدَّرج حتى مطبخ القبو، وكان هيثرويك خلفه. وعند الباب راح يضحك وهو يشير إلى داخل المطبخ.

وهتف يقول: «انظر! قلت لك إنك قاطعت بعض الأمور. أترى! هذه طاولة شاي، كانت موضوعة ومجهزة لشخصين: أكواب وصحون وإبريق شاي وخبز مقطوع وزبد وكعك. وثمة طاولة شاي أخرى معدَّة لشخص واحد. وها هي ذي غلاية الشاي، تصفر كعصفور على غصن. ما معنى هذا؟ كانت المرأة على وشك أن تحمل الشاي لاثنين من الأشخاص في مكانٍ ما؛ وكانت الطاولة الأخرى لها. لقد قضيت على ذلك في مهده؛ لكنها ستحصل على شايها في مكانٍ ما. فماذا عن الآخرين؟ لنصعد إلى الطابق العلوي.»

وبعد أن عادا إلى الرَّدهة، تقدَّم روبمور على الدَّرج الرئيسي للمنزل. كان هناك طابقان فوق الطابق الأرضي، لم تكشف غرف الطابق الأول منهما، سواء فتحها الرجلان أو وجداها مفتوحة إلا عن أشياءَ عادية؛ وكان منها ثلاث تفضي إلى بسطة سلَّم رئيسية. أما الطابق التالي، فلم يكن هناك سوى غرفتين إحداهما غير مفروشة، وعند باب الأخرى الذي كان مفتوحًا بعض الشيء توقَّف المحقِّق في الحال.

قال وهو يشير في الأرجاء: «والآن انظر هنا يا سيد هيثرويك! قد أُجري هذا العمل حديثًا! أترى أن هناك مزلاجًا قويًّا هو أشبه بقضيب حديدي، قد ثُبِّت على الجانب الخارجي من هذا الباب، وزُوِّد الباب نفسه بقفلٍ حديث قوي مفتاحه من الخارج؟ يا إلهي! هناك سلسلة أيضًا. قد يكون هذا سجنًا! لكن ماذا يوجد في الداخل؟»

دفع الباب ليفتحه فظهرت أمامه حجرة كبيرة، بها سريران صغيران، وكرسيان، وطاولة كان عليها كتب ومجلات وجرائد، وعلى الطاولة أيضًا كان هناك قماش يتم تطريزه، وكان من الواضح أنه تُرِك على عجلٍ كما حدث في قماش الخياطة بالأسفل. مال هيثرويك على الأشياء يتفحَّصها، بينما توجَّه روبمور إلى النافذة الوحيدة.

وهتف يقول: «سجن، ألم أقل لك؟ يا إلهي، سجن! انظر يا سيد هيثرويك! النافذة موصدة من الداخل وعليها قضبان حديدية مثبتة من الخارج. حتى إذا تمكَّن أيًّا مَن كانوا هنا من فتح النافذة وإن لم يكن عليها قضبان حديدية بالخارج، فما كانوا ليتمكنوا من

القيام بأي شيء؛ إذ لا يوجد شيء في الخارج سوى جدار مرتفع؛ يبدو أنه جدار خلفي لمصنعٍ ما أو شيء من هذا القبيل.» وأضاف وهو يفتح بابًا كان في الركن: «لكن ما هذا؟ مرحاض صغير.» أردف وهو يتوجَّه نحو كوَّة في الحائط مربَّعة الشكل بجوار الدَّرج: «وهذا. آه! سحارة كبيرة بما يكفي لإدخال أشياء مثل آنية صغيرة، لكنها ليست كبيرة بما يكفي ليتسلل من خلالها شخص بالغ. لن أعجب إن كنت على حق يا سيد هيثرويك؛ فمن المرجَّح أن يكون هذا هو المكان الذي احتُجِزَت فيه السيدتان. لكنهما اختفتا الآن!»

كان هيثرويك ينظر حوله. وفجأة وقعت عينه على شيء مألوف له. فتقدَّم، ومن فوق كرسي موضوع بالقرب من أحد الأسِرَّة أمسك بحقيبة يد من الحرير الأخضر. كان يعرفها جيدًا.

هتف هيثرويك يقول: «هذا يحسم الأمر.» وأردف: «لقد كانتا هنا! هذه هي حقيبة الآنسة هان ... أقصد الآنسة فيذرستون، رأيتها تحملها عدة مرات. وهذه أشياؤها بداخلها: محفظتها، وحافظة بطاقاتها، وغير ذلك. لقد تركتها هنا خلفها.»

اتفق معه روبمور قائلًا: «أجل، صحيح.» وأكمل: «ومثلما قلت، لقد غادرن جميعًا في عجالة. أتصوَّر أنَّ الأمر حدث كالآتي: تلك المرأة التي كانت تعمل بالطبع سجَّانة لهاتين السيدتين التعيستي الحظ، حين اكتشفت أمر مقتل الرجل هناك، أتت إلى هنا، وحزمت أشياءها، وهربت. لكنها قبل أن تغادر، كانت تتمتَّع بما يكفي من الذوق لأن تصعد إلى هنا، وتفكَّ السلاسل، وتفتح المزلاج والباب! ومن المؤكَّد أنها انصرفت مسرعة، تاركة السيدتين حرتين. أما السيدتان، يا سيد هيثرويك، وحيث إنهما تتمتَّعان بشيء من المنطق السليم، فقد فعلتا ما كنت لأفعله مكانهما؛ هربتا بأسرع ما أمكنهما. هذا هو ما حدث يا سيدي!»

دسَّ هيثرويك حقيبة رونا في معطفه وتوجَّه نحو الباب.

وقال: «سأغادر إذن يا روبمور. ينبغي أن أحاول أن أعرف أين ذهبتا. ربما ذهبتا إلى مكتب بنتيني. سأذهب إلى هناك. لكن، ماذا عنك؟»

فأجابه روبمور: «حسنًا، سأذهب إلى شارع «بينكوف». ثمة الكثير مما ينبغي أن أفعله هناك. لكن لتذهب أنت خلف السيدتين يا سيد هيثرويك، فليس هناك ما يمكنك فعله هنا الآن. سأبقي على موظفك وذلك الرجل اليهودي؛ فقد يساعدان. أظن أننا سنقرأ عن بعض المفاجآت في الصحف غدًا، خاصة لو كان ماذرفيلد محظوظًا كما يتوقَّع.»

فسأله هيثرويك وهما ينزلان الدَّرج: «ماذا ستفعل بشأن هذا المنزل؟ أتظن أن المرأة ستعود؟»

فردَّ عليه روبمور: «أراهنك بحياتي أنها لن تعود! ليست هي مَن سيعود! أظنُّ أنها قطعت بالفعل مسافة كبيرة في هروبها من لندن، وقد يكون ذلك في أي اتجاه بحلول هذه اللحظة. أما عن المنزل؟ فسأوصد الباب الأمامي وسأضع المفتاح في جيبي. فسنكون في حاجةٍ لتفتيش المنزل تفتيشًا دقيقًا.»

ودَّعه هيثرويك للوقت الراهن وانطلق إلى شارع «فيكتوريا» وألقى بنفسه في أول سيارة أجرة فارغة صادفها، وطلب من السائق أن يتوجَّه بأسرع ما يمكنه إلى «لينكولنز إن فيلدز». كان قلقًا على رونا، لكنه كان يشعر أنها آمنة. وكان يحدوه الفضول أيضًا؛ إذ كان يريد أن يسمع قصَّتها، ليعرف ما حدث خلف الكواليس. شعر هيثرويك بأنه متأكد أنه سيجدها في مكتب بنتيني؛ فلا شك بأنها ستذهب هي والسيدة ليستوريل إلى هناك فور إطلاق سراحهما.

لكن الموظَّف الذي التقى به فور أن دخل يُهرع إلى المكتب الخارجي ثبَّط من روحه المعنوية حين هزَّ رأسه نافيًا.

فقد أجابه قائلًا: «السيد بنتيني ليس بالداخل يا سيدي. كان موجودًا حتى وقت ليس بالطويل، لكنه تلقَّى اتصالًا هاتفيًّا وذهب بعده في الحال. ولا، لا أعرف مَن الذي اتصل به يا سيد هيثرويك، ولا إلى أين ذهب؛ لكنه بدا منفعلًا بعض الشيء حين ذهب، وكان على عجلةٍ من أمره.»

استنتج هيثرويك أن السيدة ليستوريل استدعت بنتيني، وأنه ذهب للقائها هي ورونا. انصرف هيثرويك وهو في حيرةٍ من أمره بعض الشيء، ثم تذكَّر أن ماذرفيلد قطع وعدًا بأن يرسل له برقية من ساوثامبتون، فاتَّجه صوب شقته. وعند الدَّرج التقى بالحارس.

فقال الرجل: «ثمة آنسة شابة سألت عنك يا سيد هيثرويك. أتت مرتين. قلت لها إنني لا أعرف متى ستعود، أو ما إن كنت ستعود أصلًا. فقالت — لكن ها هي ذي الآنسة الشابة يا سيدي — إنها عائدة!»

التفت هيثرويك بسرعة ورأى رونا وهي تعبر الطريق. فأسرع هيثرويك ليلتقي بها غير عابئ بمن يشاهده، وأخذ يدَيها في يديه بطريقة جعلت الدماء تنبض في وجنتيها.

وسألها بسرعة: «أأنت بخير، أأنت سالمة؟»

«بالتأكيد؟»

فأجابته تقول: «أنا بخير وسالمة، شكرًا لك. كنت ... لقد أتيت إلى هنا مرتين، لكنك كنت في الخارج. أتيت لأقترض بعض المال. لقد تركت حقيبتي ومحفظتي في ... ذلك المكان الذي كنا محتجزتين فيه، و...»

فأخرج هيثرويك حقيبة اليد وأعطاها إياها وهو صامت. فراحت تحدِّق فيه.

وهتفت متعجبة: «كنت ... هناك! كيف ...»

فأجابها: «ذهبت إلى هناك ظهر اليوم. تفضلي، لنصعد إلى شقتي! لا يمكن أن نقف ونتحدَّث هنا. السيدة ليستوريل، أين هي؟»

ردَّت رونا: «تركتها في فيكتوريا، تهاتف الرائد بنتيني. هي أيضًا ليس معها نقود. كانت تريدني أن أنتظر حتى يصل الرائد بنتيني، لكنني ما كنت لأفعل. أتيت سيرًا إلى هنا. كنت ... لقد رأيت أنك سترغب في معرفة أننا خرجنا، أخيرًا.»

لم يتحدَّث هيثرويك حتى دخلا غرفة الجلوس في شقته. وبعد أن راح يحدِّق فيها في صمت، وضع يده على كتفَي رونا، وبعد أن نظر لها طويلًا، انحنى فجأة واندفع يقبِّلها.

وقال بنبرة خفيضة: «يا إلهي! لم أكن أعرف كم كنت قلقًا عليكِ حتى رأيتكِ الآن! لكنني الآن أعرف!»

ثم التفت بعيدًا عنها فجأة كما قبَّلها فجأة، وأشعل الموقد بطريقة عادية، ووضع عليه غلاية ماء، وبدأ تحضيرات كانت تشير إلى نيته في إعداد الشاي. وراحت رونا تشاهده من كرسي وثير كان قد دفعها فيه بألفة.

قالت رونا فجأة: «الحرية! كلانا يكتشف شيئًا. حين تُسجَن ليل نهار، لبعض الوقت ...»

فسألها وهو يلتفت إليها: «كيف كان ذلك؟ بالطبع نعرف كل شيء عن عملية الاختطاف، لكن ماذا عن بقية القصة، وحتى يومنا هذا؟ كان باسيفيري بالطبع، أليس كذلك؟»

فأجابته: «باسيفيري ورجل آخر. رجل طويل القامة حليق الوجه، لم نسمع اسمه قط. لكن باسيفيري كان هو المسئول الأول. أما عن كيفية حدوث ذلك، فقد التقى بنا الرجلان عند الطريق الغائر في ريفرسريد، وأجبرانا على ركوب سيارة تحت تهديد المسدسات، وانطلقا بنا إلى لندن، إلى ويستمنستر تحديدًا، ثم إلى منزلٍ هناك؛ ذلك المنزل الذي ذهبتَ إليه اليوم. وهناك ...»

قال هيثرويك: «لحظة.» وهو يبحث عن الأكواب وصحونها. ثم أردف: «ماذا عن سائق السيارة؟ لا بد أنه كان شريكًا في الجريمة.»

«لا شك في ذلك، لكننا لم نرَه بعد ذلك قط. لم نرَ إلا هذين الرجلين وتلك المرأة التي كانت سجَّانة لنا وكانت تحضر لنا الطعام. كانا يطعماننا جيدًا، ووفَّرا لنا كتبًا وصحفًا، وأعمال تطريز أيضًا. لكنهما كانا متسلطين جدًّا بشأن السيدة ليستوريل وجواهرها. لا بد أنهما كانا يعرفان كل شيء عن تلك المجوهرات؛ لأنهما حصلا على أوراقها الخاصة ...»

قال هيثرويك: «أعرف كل شيء عن ذلك. سأخبرك بجانبي من القصة حين تتناولين بعض الشاي. أعتقد أنهما أجبراها على كتابة تلك الخطابات، أليس كذلك؟»

قالت رونا: «لقد أجبراها على فعل ذلك تمامًا كما أجبرانا على ركوب السيارة، بالمسدسات! وقد كانا جادين في التهديد. أعتقد أنهما حصلا على المجوهرات الآن، صحيح؟»

فأجابها هيثرويك: «لا نعرف بأمر ذلك بعد. أصدف أن أخبرتك السيدة ليستوريل بقيمة تلك المجوهرات؟»

«لم تكن تتحدَّث عن شيء آخر غيرها تقريبًا. قيمتها تتراوح بين ثمانين ألف جنيه وتسعين ألفًا. إنها منزعجة للغاية بشأن تلك الجواهر. لكن المسألة حرفيًّا كانت حياتها في مقابل تلك الجواهر. لا أعرف ما كانا سيفعلان بي. لكنني الآن بخير!»

فتح هيثرويك علبة من الصفيح، وأخرج منها كعكة برقوق، وأعطاها رونا لتتفحَّصها.

وسألها بإعجاب قائلًا: «ما رأيك بهذه الكعكة؟ إنها هدية من عمتي في الريف، كعكة لذيذة وشهية.» ثم أكمل يقول: «أجل، أجل، أنت الآن بخير. لكن، يا إلهي ...»

لم تقُل رونا شيئًا. رأت رونا أن ارتياحه لدى رؤيتها كان أكبرَ كثيرًا مما كان يرغب في إظهاره. فصبَّت الشاي؛ وجلسا يتناقشان في الأحداث الراهنة حتى بدأت غيوم الغسق تلف الحجرة بأكملها في الظلام.

فقالت رونا أخيرًا: «ينبغي لي أن أعود إلى ريفرسريد. لقد تأخَّر الوقت.»

فقال هيثرويك الذي كان قد أخبرها بكلِّ ما يعرف: «انتظري قليلًا! ستصلني برقية من مازرفيلد قريبًا. لا تذهبي إلى ريفرسريد الليلة. اتصلي بالليدي ريفرسريد وأخبريها أنكِ ستمكثين في المدينة. ستكون أختها قد وصلت إلى هناك بحلول هذا الوقت، ومن المؤكَّد أنها أخبرتها بكل شيء. انتظري حتى نتلقَّى البرقية من مازرفيلد، ثم سنذهب لنتناول الطعام في مكانٍ ما، ويمكنكِ أن تمكثي ليلتكِ في فندقكِ القديم في سُري. أريد أن تعرفي ما حدث في ساوثامبتون و...»

توقَّف إذ سمعا طرْقًا على بابه.

فهتف يقول: «لا بد أن هذه هي برقية ماذرفيلد. والآن ...»

عاد بعد لحظة ومعه رسالة في يده.

وقال: «إنها من ماذرفيلد. سُلِّمَت في غرب ساوثامبتون في السادسة وتسع عشرة دقيقة. لا يقول فيها إن كان قد قبض على الرجل أو لا! كل ما يقوله هو قابلني في واترلو، سأصل في الثامنة وعشرين دقيقة. حسنًا ...»

قالت رونا: «ماذا حدث يا تُرى؟ لكن باسيفيري ...»

فغمغم هيثرويك: «تمامًا كما يقول روبمور.»

نظر في ساعته وقال: «هيا بنا.» ثم أكمل يقول: «لدينا ما يكفي من الوقت لنحصل على شيءٍ من طعام العشاء، في «واترلو»، وسنكون على الرصيف حين يصل قطار الثامنة والثلث. كانت شهيتي لتصبح أكبر لو كنت رأيت باسيفيري في قبضة ماذرفيلد وكويجمان أولًا!»

كانت المساحة الشاسعة بين مباني المحطة ومدخل الرصيف في محطة «واترلو» تعجُّ بالناس حين خرج هيثرويك ورونا من المطعم في الثامنة وعشر دقائق. وكان هيثرويك يسأل عن الرصيف الذي سيصل إليه القطار حين شعر بلمسةٍ خفيفة على ذراعه. وبعد أن التفت بسرعة رأى روبمور. ابتسم إليه روبمور ابتسامةً هادئة صَحِبتها غمزةٌ ذات مغزًى.

وقال: «أظنُّ أنك هنا للسبب نفسه يا سيد هيثرويك. برقية ماذرفيلد، صحيح؟»

فأجابه هيثرويك: «صحيح. وأنت؟»

فقال مصدِّقًا: «الحال نفسه.» ثم أضاف: «يمكن القول إنني هنا من أجل قطار الثامنة والثلث ومعي المساعدة. هناك أربعة رجال في الأرجاء. هل سمعت أيَّ شيء عن هاتين السيدتين يا سيد هيثرويك؟»

أجابه وهو يشير إلى رونا: «هذه واحدة منهما. إنهما آمنتان. ستعرف بما حدث فيما بعدُ. لكن بخصوص هذا الأمر؛ ماذا تفهم من برقية ماذرفيلد؟ هل فشل في مهمته؟»

فردَّ روبمور: «سأخبرك بما فهمت من برقيته. أظن أننا سنجد باسيفيري على متن ذلك القطار، ومعه ماذرفيلد وكويجمان يراقبانه عن قرب. ولسببٍ ما في نفسه، يريد ماذرفيلد أن يلقي القبض على باسيفيري هنا؛ هنا بالتحديد! هذا هو ما فهمت. لقد وقعت عيناهما على باسيفيري هناك وقرَّرا تعقُّبه إلى المدينة. وفور أن يصل القطار ...»

قاطعته صيحة حادة ومفاجئة من رونا، مما جعل الرجلين يلتفتان إليها. أمسكت رونا بذراع هيثرويك، وفي الوقت نفسه كانت تشير بيدها الأخرى نحو المسافة التي تقع خلفهم.

وقالت: «باسيفيري؛ بنفسه! هناك، تحت تلك الساعة! أتريان! إنه يتجه نحو البوابات!»

وبحركة سريعة وغير لافتة وضع روبمور يده على كتف رونا وأدارها وسحبها بين مجموعة من الوقوف.

غمغم قائلًا: «ابتعدي عن الأنظار أيتها الآنسة! سيتعرَّف الرجل عليكِ! والآن، قولي مرة أخرى أيُّ الرجال هو. ذلك الرجل ذو الوجه الشاحب والقبعة المرتفعة؟ رأيته. من السهل تذكُّر شكله أيضًا. لا بأس! انتظرا هنا أنتما الاثنان. وإذا تحرَّك في هذا الاتجاه، فتحرك أنت بعيدًا في أيِّ اتجاه يا سيد هيثرويك. انتظرا!»

انسلَّ روبمور مبتعدًا. وبعد لحظةٍ رأوه يتحدَّث إلى عدة رجالٍ يبدو عليهم الهدوء، والذين سرعان ما رمقوا باسيفيري بنظرة خاطفة. كان هيثرويك أيضًا يراقب باسيفيري. كان باسيفيري الهادئ المطمئن وغير المريب تمامًا قد اتخذ موقعًا له عند المخرج الذي لا بد للركَّاب في ساوثامبتون أن يخرجوا منه؛ كان يدخِّن سيجارًا في هدوء وبتذوق واضح.

همس هيثرويك يقول: «أنت واثقة أنه هو؟»

فصرَّحت رونا: «باسيفيري؟ إنه هو! ما كنت لأخطئه! لديَّ أسباب قوية للغاية تجعلني أتذكَّر مظهره بالكامل. لكن؛ ها هو ذا! يا له من جريء!»

قال هيثرويك: «في الواقع، ثمة شيء على وشك الحدوث! لنبتعد، لنبتعد كثيرًا! يمكننا متابعة الأوضاع من هنا من دون أن يرانا أحد. إن وقعت عينه عليكِ …»

حينها أتى روبمور عائدًا وانضم إليهما.

وغمغم يقول: «كل شيء على ما يرام! أربعة أزواج من العيون، إضافةً إلينا؛ أي ثلاثة أزواج أخرى، وكلها مسلطة عليه! رجالي قريبون منه أيضًا. هل تريانهم؟ هذا واحد، والثاني، وذلك الثالث، والرابع! كلهم حوله، وهو لا يعرف ذلك. لن أدعه يتمكَّن من الفِرار، سواء ظهر مانزفيلد أو لم يظهر. إنه شخص هادئ، إذن؟»

فقال هيثرويك: «حان موعد وصول القطار.» كانت يدا رونا على ذراعه، وشعر بأنهما ترتجفان. فهمس لها وهو يميل عليها: «أجل، هذا ما أشعر به أنا أيضًا. إنها لحظة حرجة. لكن ذلك الوغد الواقف هناك …»

كان باسيفيري ينظر إلى الساعة الكبيرة. وبعد ذلك التفت عنها صوب الرصيف فيما وراء البوابات، بينما ينظر في ترقُّب إلى سطحه المُضاء. نظر إليه الآخرون أيضًا. مرَّت دقيقة. ومن بين الظلام في الطرف الأقصى من المحطة الشاسعة، ظهر مهر يجر حمولة العربات الثقيلة خلفه ببطء واقترب من جانب الرصيف يتنهَّد كمارد منهك. بدأ ركَّاب العربات الأولى يقفزون من القطار وبدءوا يتجمَّعون نحو المخرج.

فغمغم روبمور يقول: «والآن حان الوقت. ابتعدا أنتما! سيراقبه رجالي هو والشخص القادم لملاقاته؛ فهو ينتظر شخصًا ما.»

لم يحدث شيء في غضون الدقيقة الأولى. تقدَّم جميع الركَّاب المنصرفين من الرجال والنساء والمدنيين والجنود والبحَّارة وذهبوا كلٌّ في طريقه. وشيئًا فشيئًا كان ذلك الجمْع ينقص ويتفرَّق. أمسكت رونا بذراع هيثرويك فجأة للمرة الثانية، ورأى أنها كانت تحدِّق بشيء خلف الحاجز.

وهتفت رونا تقول: «هناك! هناك، ذلك الرجل الذي يرتدي معطفًا رماديًّا وقبَّعة بلون بني فاتح! هذا هو الرجل الذي قاد السيارة! لقد رآه باسيفيري!»

نظر هيثرويك ورأى باسيفيري يرفع يده إشارة لرجلٍ يافع ناضر الوجه، وكان ذلك الرجل يقترب من جامعي التذاكر، ويحمل في يده اليمنى طردًا صغيرًا مربَّع الشكل. لكنه رأى ما هو أكثر من ذلك. بالقرب من ذلك الرجل ومن خلفه سار ماذرفيلد يتبعه من جانب وكويجمان من الجانب الآخر. واقتربا منه أكثرَ حين اقترب الرجل من البوابة، وعلى الجانب الآخر من البوابة اقترب المحقِّقون من باسيفيري.

فهمس روبمور قائلًا: «حانت اللحظة.» وانسلَّ بسرعة إلى الأمام.

حدث الأمر بسرعة شديدة حتى إن هيثرويك ورونا لم يعرفا كيفية حدوث الأمر بالتحديد. قبل أن يدركا أن الرجال كانوا محاصرين، أو قبل أن يعرف الوقوفُ المحدقون على الرصيف أن شيئًا ما يحدث أمام أعينهم، كان باسيفيري والرجل الذي معه سجينين مكبَّلين بالأغلال وسط مجموعة صغيرة من رجالٍ صامتين يسرعون بهما بعيدًا. وفي غضون لحظة ذاب الشرطيون وأسيراهم في الأطراف الخارجية للمحطة. وأدرك المراقبان فجأةً أن ماذرفيلد كان يقف بالقرب منهما ممسكًا بالطرد المربَّع في يده وتعلو ملامحه ابتسامة خافتة لكنها توحي بارتياح كبير. رفع ماذرفيلد الطرد أمامهم.

وقال: «بشكل محكم يا سيد هيثرويك، بشكل محكم للغاية! محكم على نحوٍ استثنائي، أليس كذلك؟»

لكن هيثرويك كان يعلم أنه لم يكن يشير بحديثه إلى الطرد.

الفصل السابع والعشرون

اليقين

عادت رونا إلى مستقرِّها القديم في الفندق الصغير في سُري لتمكث ليلتها، وفي صباح اليوم التالي أتاها هيثرويك ومعه حزمة كبيرة من الجرائد. ولما وجدها وحيدة، وضع هيثرويك الجرائد على الطاولة بجانبها وأومأ إليها إيماءة ذات مغزًى في إشارة إلى الأحرف السوداء الكبيرة التي كانت تعلو الأعمدة العلوية.

وعلَّق يقول بابتسامة خافتة: «لا بد أن ماذرفيلد قدَّم الكثير من المعلومات الكاشفة إلى الصحافيين ليلة أمس. كل شيء مكتوب هنا: مغامراته في ساوثامبتون أمس، ومغامراتي أنا وروبمور في ويستمنستر، وكل شيء آخر. أعتقد أن الصحافيين يسمُّون مثل هذا بالقصة؛ ويا لها من قصة جيدة! وتُختتم هذه القصة بالطبع بالاعتقال الدرامي لباسيفيري في واترلو! يؤسفني أننا لن نستطيع التخلُّص من الشهرة الإعلامية لبعض الوقت، وذلك حظ عاثر!»

فسألته رونا: «أينبغي علينا — عليَّ — أن أحضر محاكمة ذلك الرجل؟»

ردَّ هيثرويك: «لا مفر من ذلك مع الأسف، وسيكون عليك حضور إجراءات أخرى أيضًا قبل ذلك. فستكون هناك إجراءات الدعوى أمام القاضي، والتحقيقات المؤجلة، وما إلى ذلك. لا يسعنا فعلُ شيء حيال ذلك، لكننا سنحظى بشيء من الرضا؛ إذ نعلم أننا نخلِّص العالمَ من قاتل عنيف ومتوحش! إن ذلك الرجل المدعو باسيفيري هو بلا شك أمكر وأمهر شرير سمعت به. إنه عنكبوت بشري؛ وهو بارع في نسج خيوطه. غير أنني كنت أتمنَّى لو كنا قد حصلنا على المزيد من التفاصيل فيما يتعلَّق بنقطةٍ بعينها لكنني لا أعرف حتى الآن كيفية الحصول على تلك التفاصيل.»

فسألته رونا: «ما تلك النقطة؟»

فأجابها هيثرويك: «ذلك المظروف المختوم، الذي يحتوي على تفاصيل اختراع جدك أو تركيبته. أين ذلك المظروف؟ أين هو بالتحديد؟ هل حصل عليه أمبروز منه؟ هل حصل عليه باسيفيري؟ فوفقًا لما أفهمه، بدأ الأمر برُمَّته عند هذا المظروف. وسواء أكان لا يساوي شيئًا أو كان يساوي ثروة، فإن جَدك أحضر إلى لندن شيئًا كان يعتقد بقوة أنه يمثِّل قيمةً كبيرة، ولا شك في أنه وقع في أيدي هذين الرجلين؛ أمبروز وباسيفيري، بسببه. ولا شك أيضًا أنه أخبرهم أثناء حديثه معهما ما كان يعرفه عن السيدة ليستوريل، وإن كان ذلك على سبيل المثال على الأرجح. ولا شك أنَّ هذين الرجلين قد قتلاه. وأعتقد أنه لا شك أيضًا في الطريقة التي قتلاه بها! تذكَّري أن كلا الرجلين كان طبيبًا مدرَّبًا وخبيرًا، ومن الواضح أنهما اهتمَّا بهذه الصفقة بناءً على تفكيرهما العلمي. مما لا شك فيه أن كليهما درسَ السمومَ دراسة مستفيضة. ومثل هذه المعرفة تمثِّل قيمة كبيرة لمثل أولئك الرجال ذوي النزعات الإجرامية. الأرجح أنهما كانا يعرفان سمًّا مجهولًا يمكن وضعه بسهولة ولا تظهر أعراضه إلا بعد مرور عدة ساعات. لا شك أنهما كانا يعملان وفقًا لتوقيت محدَّد، حتى يموت ضحيتهما بسرعة وفجأة وهو بعيد كل البعد عن مختبرهما. ومن المؤكد أنهما فعلا الأمر نفسه في حالة جرانيت. لقد دفع جرانيت ثمن وجوده مع جَدِّك. لكن لماذا قتلا جَدَّك؟ هل تخلَّصا منه كي يتمكَّنا من الاحتفاظ بسرِّ السيدة ليستوريل لنفسيهما ومِن ثَمَّ ابتزازها هي وأختها، أم لكي يسرقا منه اختراعه ويستخدماه لصالحهما؟ إن كانت الاحتمالية الأخيرة هي الصحيحة، فإن ...»

توقَّف عن الحديث وراح ينظر لرونا مستفهمًا، كما لو كان يتوقَّع منها أن تفهم ما يرمي إليه. لكن رونا هزَّت رأسها نافية.

وقالت: «لا أفهم ما تقصده. ماذا بعد؟»

فأجابها هيثرويك: «إذا كانت رغبتهما في الحصول على سرِّ جَدك هي دافعهما، فإن هذا السر يساوي الكثير من المال! وينبغي أن يكون هذا المال لكِ. ألا ترين؟ أين السر؟ أين الظرف المختوم؟ أظن أن الشرطة فتَّشت باسيفيري ليلة أمس، وربما وجدوه معه. سنعرف عمَّا قريب، لكن هذا المال هو مالكِ على أي حال.»

أومأت رونا بإشارة تنم عن الإحجام.

وقالت: «سأكره أن أمسَّه أو أتعامل معه بأي شكل من الأشكال، إذا كان بحوزة ذلك الرجل! لكن لا أظن أنه يوجد شك في أنهما قتلا جَدي من أجل ذلك السر. لكنني أظن أيضًا أنَّ دافعهما كان مزدوجًا. كان سرُّ السيدة ليستوريل هو ركيزتهما الثانية. ربما

كانا يظنان أن الليدي ريفرسريد ستكون فريسةً سهلة. وأعتقد أنها كانت لتصبح فريسة سهلة لو لم يكن الرائد بنتيني موجودًا لتلجأ إليه. أعرف أنها كانت منزعجة للغاية بعد زيارة باسيفيري الأولى لها. لذا فإنني أرى الأمر — مثلما أراه منذ البداية — على هذا النحو: ظن الرجلان أن باستطاعتهما بيع سرٍّ جدي لقاء الكثير من المال، وكذلك الحصول على مبلغ كبير آخر من الليدي ريفرسريد والسيدة ليستوريل عن طريق ابتزازهما.»

«كل ذلك بالطبع كسبٌ غير مشروع! حسنًا ...»

أطلت خادمة برأسها في صالة الاستقبال الصغيرة التي كانا يجلسان فيها، ونظرت إلى رونا بنظرات جادة.

وأعلنت تقول: «هناك رجل شرطة يسأل عنك في الطابق السفلي أيتها الآنسة. وهو يريد أن يعرف على الأقل إن كنت تستطيعين إخباره بما إن كان السيد هيثرويك هنا الآن، أو مرَّ سابقًا.»

ذهب هيثرويك إلى مقدِّمة الدَّرج، ووجد شرطيًّا في الرَّدهة بالأسفل قد رفع نظره إليه ولمس خوذته.

وسأل يقول: «المفتش مازرفيلد يرسل تحياته يا سيدي، هل يمكنك أن تأتي وتُحضِر الآنسة هانافورد بصحبتك؟ توجد تطورات جديدة يا سيد هيثرويك. تطورات مهمة!»

فقال هيثرويك موافقًا: «سنأتي في الحال. أعطنا عشر دقائق.» ثم عاد إلى رونا ورحل معها مسرعين. سأل وهما يسرعان في طريقهما إلى مكتب مازرفيلد: «ماذا الآن؟ ربما حصلوا على بعض المعلومات من باسيفيري؟ أو ربما تمكَّنت الصحف من جذب اهتمام شخصٍ يمكن أن يقدِّم المزيد من المعلومات؟»

تعزَّز الاقتراح الأخير حين دخلا إلى غرفة مازرفيلد ووجداه جالسًا مع رجلين غريبين بدا عليهما أنهما من رجال التجارة المسئولين والموسرين. كان ثلاثتهم منهمكين في محادثةٍ جادة وعميقة، ولاحظ هيثرويك سريعًا أن الرجلين الغريبين كانا ينظران إلى رونا باهتمام غير عادي. أسرع مازرفيلد في تقديم رونا باعتبارها حفيدةَ المفوَّض السابق الراحل هانافورد، وتقديم هيثرويك بصفتها شخصًا يبدي اهتمامًا كبيرًا بالقضية.

بدأ مازرفيلد يقول وهو يلوِّح بيده نحو الآخرين: «آنسة هانافورد وسيد هيثرويك، هذان الرجلان هما السيدان كالثوايت والسيد هاوسوفر، وهما من رجال الصناعات الكيميائية في إيست هام، ويتصادف أيضًا أنهما يملكان مكانًا كبيرًا في لانكاشير. وحيث إنهما اطلعا على صحف هذا الصباح، التي تحتوي على الكثير من المعلومات عن قضيتنا

كما رأيتما بالطبع، فقد أتيا إليَّ مباشرة يحملان بعض المعلومات التي من شأنها أن تكون مفيدة للغاية حين يمثُل باسيفيري أمام القاضي في قفص الاتهام ظهر اليوم. حقيقة الأمر يا سيد هيثرويك أن هذين الرجلين أمدَّانا برابط كان مفقودًا!»

فسأل هيثرويك بحماس: «ما ذلك الرابط؟»

أومأ مانذرفيلد يشير إلى أكبر الرجلين سنًّا؛ وهو كالثوايت الذي أخرج دفترًا صغيرًا وأخرج من الدفتر ورقة. قدَّم الورقة بصمت إلى مانذرفيلد الذي التفت بدوره إلى رونا.

فقال وفي صوته نبرة انتصار: «والآن آنسة هانافورد، أيسعني القول إن بإمكانك التعرُّف على خط يد جدِّك وطريقته في كتابته الأرقامَ؟ أيمكنك أن تقسمي إنه كتب هذا؟»

طالعت رونا الورقةَ بنظرة واحدة قبل أن ترفع عينها بنظرة تنم عن التأكيد الإيجابي.

وهتفت تقول: «يا إلهي، أجل! هذا هو خطُّه من دون شك! هذا مؤكَّد بلا أدنى شك!»

التفت مانذرفيلد إلى هيثرويك.

وقال: «تلك هي تركيبة الحبر! والآن حصلنا على الطريدة الكبيرة التي كنا نسعى خلفها! وسيخبركما السيد كالثوايت بكيفية حصوله عليها.»

بعد أن سمح كالثوايت لهيثرويك بالاطلاع على الورقة، أعادها مرة أخرى بحذر إلى دفتره الصغير. بدا القلق واضحًا على الرجل وصديقه، وكان هيثرويك قد بدأ يفكِّر في تخمينات بشأن ذلك: بدا الرجلان وكأنهما متردِّدان ومضطربان. لكن كالثوايت كان مستعدًّا بما يكفي ليقص قصته.

فقال: «لقد حصلنا عليها بالطريقة الآتية. ويسعني القول أيضًا — كما أخبرتك بالفعل يا سيد مانذرفيلد — أنني لا أظن أننا كنا لنحصل عليها لو لم تتكتموا، أنتم يا رجال الشرطة، بشأن هذه النقطة بالتحديد؛ فلو أنكم أعلنتم خبر سرِّ هانافورد لكنا أخذنا حذرنا مسبقًا. على أي حال، قبل وقتٍ ليس ببعيد أتانا رجلٌ كنا نعرفه باسم بيسنج والذي أثق تمامًا من أنه باسيفيري الذي قرأنا عنه في الصحف هذا الصباح؛ والحق أننا أجرينا بعض الأعمال مع ذلك الرجل بين الحين والآخر في العام المنصرم، أتانا الرجل وعرض علينا تركيبةَ حبر أسود جديد كان واثقًا تمامًا من أنها ستزيح كل الأحبار الأخرى من السوق، وفي جميع أنحاء العالم! كان بيسنج يطلق ادعاءاتٍ مبالغًا فيها عن ذلك الحبر؛ إذ أقسم إنه أفضل حبر كتابة قد اختُرِع على الإطلاق. وقد أحضر معه عينةً منه كان قد أعدَّها بنفسه، وأجرى عليها اختبارات كثيرة. لكنه فعلَ ما هو أكثر من ذلك؛ إذ عرض علينا حقَّ استخدام تلك التركيبة السرية حتى يتسنَّى لنا تصنيعها واختبارها

بأنفسنا قبل أن نقرِّر ما إن كنا سنوافق على عرضه، والذي كان يتمثَّل في إعطائه مبلغًا كبيرًا من المال مقابل التركيبة. وقد صنعنا الحبر بالفعل باستخدام التركيبة واختبرناه، وما من شك في أنه ممتاز بقدرِ ما ادَّعى بيسنج ذاك أو باسيفيري، بل ربما كان أفضل. ولم أكن في حاجةٍ لمقارنته بالعيوب التي نجدها في أكثر الأحبار شهرة؛ إذ لم يكن بهذا الحبر أيٌّ من تلك العيوب. وحين عاد إلينا بيسنج بعد بضعة أيام، قررنا شراء التركيبة منه. فاتفقنا على سعرها ودفعنا له المبلغ المتَّفَق عليه أمس الأول؛ وذلك في مكتبنا في شرق هام.»

قال هيثرويك في هدوء: «حسنًا! كم كان السعر المتفَق عليه؟»

تبادل الشريكان النظرات، وبدا لرونا التي كانت تشاهدهما باهتمام شديد أنهما كانا أكثر توترًا من ذي قبل. لكن كالثوايت ردَّ بسرعة.

«عشرة آلاف جنيه!»

فسأل هيثرويك قائلًا: «وكيف دفعتم له المال؟ نقدًا؟»

فأكمل كالثوايت يقول: «لا، بل بشيك غير مسطَّر، بناءً على طلبٍ منه. وقد كان هذا جيدًا بالطبع بقدرِ الدفع النقدي. لكننا فور أن قرأنا صحف صباح اليوم؛ أقصد حين قرأتُ أنا الصحف لأنني قرأت عن الأمر برُمَّته وأنا في طريقي إلى العمل، ذهبنا إلى البنك مباشرة لنرى إن كان الشيك قد صُرِف. ووجدنا أنه صُرِف بعد ساعة أو اثنتين من تسليمنا إياه لبيسنج. كان بيسنج قد صرف الشيك بعملات نقدية من بنك إنجلترا.»

فنظر هيثرويك إلى ماذرفيلد.

وعلَّق يقول وكأنه يطرح سؤالًا: «هذه التركيبة مِلك للآنسة هانافورد بالطبع، صحيح؟ ليس لباسيفيري أيُّ حق في بيعها، لقد سرقها؛ أليس كذلك؟»

فقال ماذرفيلد موافقًا: «تلك هي الحقيقة يا سيد هيثرويك. لقد اشترى هذان السيدان شيئًا مسروقًا عن جهالة منهما. لكنني كنت أخبرتهما لتوي بشيء سأخبرك به. لقد وجدنا الأموال — نقدًا — مع باسيفيري ليلة أمس. وجدنا المبلغ كاملًا في محفظة نقوده. وبالطبع كان معه الجواهر التي نجح شريكه في الحصول عليها من ساوثامبتون، كان يسير بغنيمة كبيرة. لكننا نستطيع الآن أن نثبت وبسهولة كيفية حصوله على تلك الآلاف العشرة، وستعود تلك النقود إلى السيدين كالثوايت وهاوسوفر. ويمكننا أن نثبت أيضًا من خلال شهادتهما أن باسيفيري سمَّم السيد هانافورد من أجل الحصول على تلك التركيبة. لقد انتهى أمر باسيفيري!»

فقال هيثرويك: «سيستعيد هذان السيدان أموالهما إذن في تلك الحال؟» والتفت إلى الشريكين وأكمل يقول: «هل ثمة ما ينبغي أن تقلقا بشأنه؟» ثم أردف: «ينبغي أن تُسلَّم التركيبة بالطبع إلى ...»

فقاطعه الشريك الذي ظلَّ صامتًا حتى هذه اللحظة: «الحق أنَّ هذا هو لب الموضوع يا سيد هيثرويك. في واقع الأمر، نحن لا نريد خسارة تلك التركيبة يا سيدي! لقد أعطينا ذلك الرجل المدعو بيسنج أو باسيفيري عشرة آلاف جنيه لقاءها، لكن ...»

فقال هيثرويك وهو يبتسم: «لكنكما تعتقدان أن تلك التركيبة تساوي أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ فهمت! في هذه الحال إذن ...»

فقال كالثوايت بعد أن تبادل النظرات مع شريكه: «إن استعدنا العشرة آلاف جنيه يا سيدي، فسنسرُّ كثيرًا بالتعامل مع المالك الشرعي لتلك التركيبة. وفي غضون ذلك، فإنها ستظل في أمان وسرية معنا. نحن أناس معروفون ...»

ردَّ هيثرويك يقول: «سنكتفي بذلك الآن، ستضع الآنسة هانافورد ثقتَها في أن تلتزما بوعدكما حيال سرية هذه التركيبة. وفيما بعد، سنقوم بالأعمال!» نهض بعد ذلك ونهضت رونا معه. ثم سأل يقول: «هل ستكون في حاجة لنا اليوم يا ماذرفيلد؟ إن لم يكن ...»

فأجاب ماذرفيلد: «لا! إنما هي الأعمال الرسمية اليوم، وسيجري إحضاره بعد ظهر اليوم. ستُقدَّم أدلة القبض عليه فحسب مع تقديم طلب تأجيل. يمكنك أن تذهب يا سيد هيثرويك، وسنعلمكما حين نكون في حاجة لكما.»

تقدَّم هيثرويك رونا في طريق الخروج، وفور أن ابتعدا عن قسم الشرطة، ضرب هيثرويك بعصاه الرصيف.

وهتف يقول: «حين ننتهي من هذه المسألة تمامًا، أقسم إنني لن أتدخَّل أبدًا بصورة شخصية في أي شئون تتعلَّق بالجريمة. إن باسيفيري يُعد مثالًا حقيرًا ليتعاطى المرء معه! ويجرُّك في هذا الأمر أيضًا.» وأضاف فجأة: «هذا يزعجني أكثر من أي شيء. لكن الأمر يشارف على الانتهاء، وحينها ...»

توقَّف هيثرويك عن الحديث في حين رفعت هي نظرها إليه وقد بدا عليها شيء من الدهشة إزاء حدَّته. وحين كانا يسيران في تلك اللحظة في جزءٍ هادئ من جانب الجسر الذي يقلُّ المتردِّدون عليه، وضعت رونا يدها في خجل واستحياء على ذراعه. فالتفت إليها فجأة، ووضع يده على يدها.

فقالت رونا: «أظنُّ أنك كنت تهتم لأمري كثيرًا، وكنت لطيفًا معي. ففي نهاية المطاف، لم يكن اهتمامك بأمر الجريمة فحسب هو ما ...»

فهتف يقول بسرعة: «يا إلهي، لا! ربما كان ذلك في البداية، كان جزء من السبب هو اهتمامي بأمر الجريمة والجزء الآخر هو أنتِ! لقد شعرت بطريقةٍ ما أن عليَّ أن أعتني بكِ. وحينها، وحين اختفيتِ، لكنني أظنُّ أني مشوَّش الذهن بعض الشيء! سأخبركِ بأمرٍ ما، طوال فترة اختفائك لم أكن أنام إلا نادرًا! كنت أفكِّر فيك. وحين عُدتِ بعد ظهر يوم أمس، لكنني أريد أن أسألك شيئًا لا أفهمه، لا شك أنني حينها كنت مشوَّش الذهن!»

فسألته تقول: «وما هو؟»

مال هيثرويك عليها وأخفض صوته.

وقال: «كنتُ سعيدًا جدًّا وفي غاية الارتياح حين رأيتكِ ظهرَ أمس. لقد شعرتُ بأنني مصاب بالدُّوار! وأريد أن أعرف: هل قبَّلتُكِ؟»

نظرت إليه رونا فجأة، وراحت تضحك.

وقالت: «حقًّا، يا لظرفك! بالطبع، لقد فعلتَ! مرتين!»

فهتف: «هذا رائع! أنا، لقد ظننتُ أنني ربما كنتُ أحلم بالأمر. لكن، هل قبَّلتِني؟»

فسألته رونا عابثة: «هل تريد أن تتأكد حقًّا؟ حسنًا، لقد فعلتُ!»

فقال هيثرويك: «هذا أروع!»


هنداوي